مدونـــــة رفايـــع

خيانة القاهرة

شيرين أبو النجا

M.LOTFY

رواية

مكتبة مدبولى

مدونـــــــة رفايـــــــع

شيرين أبو النجا

خيانة القاهرة

مكتبة مدبولى

٢٠٠٨

الكتاب : خيانة القاهرة
تأليف : شيرين أبو النجا
الطبعة : الأولى عام ٢٠٠٨
الناشر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة
تليفون : ٢٥٧٥٦٤٢١ – فاكس : ٢٥٧٥٢٨٥٤
البريد الإلكترونى : Website:www.madboulybooks.com
E-mail:info@madboulybooks.com
رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٢٤٩٦٥
الترقيم الدولى : 977-208-719-7

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الآراء الواردة فى هذا الكتاب
تعبر عن وجهة نظر المؤلف
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر
الناشر .

حكى بارد

الصفر التجريبى

هدوء مريب لا بداية له أو نهاية، هدوء أعتذر له عن صوت زفيرى، هدوء أنيق إلى درجة الألم. أنا الصاخبة جئت من القاهرة الصاخبة المليئة بالقصص الصاخبة لأجد نفسى فى برلين التى تهمس بأناقة وحذر. كدت أحزم الحقائب وأعود، أعود إلى تلك القاهرة التى قهرتنى بعذاباتها وأغوتنى بسحرها حتى وجدتنى متورطة معها وفيها حتى الثمالة. مدينة شهدت كل عثراتى وسمعت كل ضحكاتى ولم تهتم كثيراً بدموعى. القاهرة التى طالما استمتعت برؤيتى متشبثة بحبل رفيع ينفصل الشك عن اليقين، العقل عن الجنون، الحب عن الكراهية، الروح عن الجسد. تأكل الحبل لأن السنوات تودى عملها جيداً، لكننى ظللت متشبثة، كانت بالنسبة لى مسألة حياة أو موت. كان تشبثي بهذا الحبل هو ما يميزنى، كيف أتنازل عن ميزة فى زمن كثر فيه البشر وضلوا الطريق فى مساحات تلوث ضبابية. مع كل خيط يهترئ من الحبل كنت أغض النظر وأتشبث أكثر رغم الجروح التى أدمت يدى. يهترئ الحبل وأنا أتنفس هواء الذعر، لا قبل لى على ما ينتظرنى دون الحبل. وعندما لم يتبق إلا خيط رفيع قديم فى الحبل قفزت تجاه برلين.

القاهرة التى لا يتوقف فيها رنين التليفون و لا الصداع، وآلام الظهر ضيف ثقيل مستديم. القاهرة التى تعنى صباحاتها مزاجا متعكرا لقلة عدد

مدونـــــــة رفايـــــع

ساعات النوم وتعنى نهاراتها أن تثور لأتفه الأسباب وتعنى أيامها الحاملة أن الأمن مستتب. القاهرة التى يختفى لونها تحت ركام القصص والحكايات والشائعات والمؤامرات والأيديولوجيات والصحف والمجلات والمانشيتات والأفلام والمؤتمرات. القاهرة التى تجعلنا نتأمل صورتنا فى المرآة لنقول "أهلا، احنا اتقابلنا قبل كده؟" القاهرة التى نبدأ يومنا فيها وندعو "يارب اليوم يعدى على خير". القاهرة التى نقود فيها سياراتنا ليلاً ونستعيد كلمات "أبى فوق الشجرة" بصوت "أم كلثوم": "أراك عصى الدمع شيمتك الصبر" ونتغامز لأننا نقصد شخصاً بعينه. القاهرة حيث نقع فى الحب ونقع خارجه فتتحول الأماكن إلى بؤر ذاكرة تنتظر من يعيدها حاضراً، لكنه أبداً لا يعود. القاهرة التى تفتح على النيل وتغلق الأرواح. القاهرة التى تحتكر العقل ولا تترك بوصة واحدة للقلب يصيغ فيها شرايينه كما يهوى.

القاهرة التى تعلمنا طوال العمر التسامح والغفران (ألم تغفر للكثيرين من قبلنا حتى كدنا نموت غيظاً؟) تلك القاهرة لا تسامحنا إن أخطأنا ولا تقبل أعذارنا، ونحن شعب لا تنتهى أعذاره ولا أخطاؤه. ونحن ناس لا نعرف كيف نسامح رغم كل محاضرات القاهرة، ولنا كل العذر لأننا نشيد عذريتنا على أنقاض عثرات الغير. وفى لحظة واحدة لا نسمع سوى أنفسنا وكأن المرآة موجودة فقط من أجلنا. هكذا علمتنا القاهرة، أن نذوب فى الآخر دون أن نسمعه أو نراه. وكل مدينة لها شيمتها. نقع فى هوى القاهرة ثم نتعثر

فنجدها قد انشغلت بغواية أخرى. القاهرة مدينة الغواية التى تخبئ غفرانها فى هوامش الأزقة وتحت الكبارى وعلى كومة من الرمل والأسمنت منقاة أمام بناية. القاهرة لا تمنح الغفران إلا للباحثين عنه والباكين من أجله والصامدين على جفاه. والصمود يحتاج القوة والقوة تحتاج الضعف والضعف يحتاج الفهم والفهم يحتاج القلب والقلب يحتاج الروح والروح مسلوبة بهوى القاهرة. والقاهرة غفرانها عزيز.

تلك القاهرة التى ركدت فى روحى منذ آلاف القرون، منذ أن كنت فكرة مازالت فى رحم الأرض، منذ أن كنت أحاول التودد إلى بذرة واحدة فى الأرض. تعلمت من حينها أن أقول "نعم" حينما أرغب فى قول "لا". وأن أقول "لا" حينما أرغب فى قول "نعم". تعلمت ببراعة كيف أحول الرغبة إلى فكرة عابرة سرية بدون أية معالم تشى عن وجودها سوى درجة توتر غير ملحوظة فى الصوت، وحفظت الدرس عن ظهر قلب: أن نظرة أمى تحرك المؤشر وأن نظرة الناس تعنى جحيم دانتى. فكانت البراعة تنأس بمدى القدرة على الاختباء من أعين الناس. علمتنى القاهرة وكل أحبائها أن جسدى محرم وقلبى محرم على كل الرجال إلا لواحد فقط سيأتى فى يوم ما فى مكان ما وفى لحظة ما. وليس مهماً أن أكون مستعدة لاستقباله، المهم أن يأتى. كم مرة أخطأت وتوهمت أنه أتى؟ كم مرة طلبت من القاهرة السماح والغفران؟ كم مرة شعرت أننى لا أستحق القاهرة لأننى أخطأت؟ كم مرة انتهتنى حية

الأرواح الأخرى لأننى أخطأت علانية دون مداراة؟ وحفظت الدرس مرة أخرى، لنخطئ كما نحب سراً وقهراً وكمداً. القاهرة لا تحب من يستخف بقوتها وجبروتها، القاهرة لا تحب الأقوياء بنزاهة، القاهرة تحب من يتواطأ معها، حينها فقط نتواطأ معه.

والتواطؤ مع القاهرة يحتاج عمراً كاملاً.

عمراً نتعلم فيه الابتسامة المرسومة والضحكة المفتعلة، عمراً نتعلم فيه طقوس ممارسة العفة الزائفة، أن نمشي في الشارع وننظر أمامنا مباشرة بحدة وتجهم لكي نثبت براءتنا. وألا ندل الغريب على شارع يسأل عنه حتى لو كان الشارع أمامنا، وألا نبتسم ونظهر فرحتنا حين ندخل مكان ما حتى لا يظن الآخرون أننا نحب الحياة، وألا نقول لامرأة أن زينتها لا تلائم المكان حتى لا تظن أننا نشعر بالغيرة تجاهها. وألا نسأل كاتبة عن كتابتها حتى لا نظن أننا نسرقها. وألا نكتب رسالة لرجل أحببناه حتى لا يظن أننا وقعنا في هواه فيلقينا جانباً، وألا نمرض لكي نثبت تفانينا في العمل، وألا ندخن سيجارة في أماكن بعينها ولكن يمكن أن ندخن في أماكن أخرى، وألا نقول كلمات معينة لأنها تفهم بمعانٍ أخرى، وألا نجلس مع رجل بمفردنا حتى لا يقال عنا كلام بعينه.

بكل هذه الازدواجية أحببت القاهرة فأحبتني. لكن في كل المرات التي تمردت فيها على القاهرة كان العقاب شديداً. اللعب مع القاهرة له قواعد وأصول، وغالبا هي التي ترسم القواعد لكنها تتركنا نعتقد أننا نملك الزمام. والحقيقة أننا حتى لا نملك أنفسنا في القاهرة، فالروح هائمة دائماً تبحث عن علامات رضا القاهرة والعلامات تتوه وسط الزحام والروح تتفلت من جسد سقيم عليل لا يحب نفسه، والعين لا ترى الروح الهائمة. العين اعتادت الفقد والجسد اكتسب مناعة. منذ أن فقدت أبي وأنا أعتبر كل ما أفقده ليس إلا إعادة ركيكة لكل ما أفقده. كل يوم أفقد شيئاً بل كل ساعة، أفقد التليفون المحمول وأفقد صديقة، أفقد كتاباً وزوجاً، أفقد الهواء الطازج لأن التكييف لا يتوقف، أفقد قطتي لأن أمي لا تحبها، أفقد حقيبتي، أفقد ورقة مالية، أفقد فردة حلق كنت أحبها كثيرا، أفقد الصوت اللائق لصديق قرر أن يقلل من جرعة الدفء، أفقد اختياري أحياناً (دائما؟)، أفقد خصوصيتي، وأفقد أعصابي، أفقد احترامي لفكرة أو لشخص، أفقد حماسي في أيام وانتظر عودته دون مقدمات، أفقد القدرة على الكتابة ثم تعود فأهرب منها فتفقدني هي، هل لابد أن أذكر فقدان الحب هنا؟ أحاول التظاهر أنه لم يحدث ولذلك لن أذكره، جزء من التواطؤ مع القاهرة، فنحن جميعا نعرف أنه حدث. فقدان الحب هو أول ما تعلمه لنا القاهرة. فقدان الحب هو طقس العبور إلى القاهرة. مؤلم للغاية فقدان الحب، أن نتوق لسماع صوت نعرف أننا لن نسمعه أبداً، أو نحنّ إلى لمسة يد لن نصافحها

مطلقاً وإن حدث فستكون مصالحة شبيهة بالمعلبات، مضاف إليها مواد كيميائية تحفظها من العطن. فقدان الحب يعني أن نقبل فكرة أننا فقدنا شخصاً وفقدنا معه جزءاً من الروح، جزءاً لن يعود كما كان حتى لو حاولنا مع آخرين، فقدان الحب لا يختلف عن الموت، بل هو متطابق معه. كل محاولة ليست إلا أملا لاستعادة ما فقدناه. القاهرة تكوينا بنار فقدان الحب لتوشمنا على جبيننا بعلامة تؤهلنا لدخول عالم الكبار الراشدين الذين يتحكمون في عواطفهم، العاقلين الذين يحسنون الاختيار دائماً، الحكماء الذين لا يندفعون مثلنا أو هكذا نعتقد على الأقل. الحقيقة أن كل ما في الأمر أننا نتعلم كيف نبتلع الألم ونضعه في قاع الروح في مكان مظلم مهمل، مكان الكراكيب، الحجرة المائة التي لا نفتحها أبداً إلا عندما تبدأ بعض التجاعيد في احتلال أركان العين. علمتنا القاهرة ألا نبكي فقدان الحب إلا سراً، ولا عجب فقد علمتنا أن نحب سراً أيضاً. البكاء سراً على فقدان الحب أصعب من الفقد نفسه. شلالات الدموع المتحجرة والغصة الدائمة في الحلق والوخزة في الصدر، وابتسامة على الشفتين. في مثل تلك اللحظات البسيطة الكثيرة ندرك قسوة القاهرة القاهرة.

غادرت القاهرة ولم تغادرني هي.

عادت لي القاهرة في أبعد مكان، تجرب كل مفاتيحها لتفتح الحجرة المائة. وكلما أسمع خشخشة المفاتيح في باب الحجرة أرتعد، أحاول أن أوصده أكثر، القاهرة تدفع عنوة وأنا أحمي الباب خلسة. كنت أعرف أن الحجرة لابد أن تفتح يوماً ما، لكنني كنت دوما أؤجل، فأتعلل أن العمل كثير وأن الأمر يتطلب الكثير من الوقت الذي لا أملكه وأن غبار الحجرة سيقتلني إن فتحتها وأنني لا يمكن أن أقوم بهذا الجرد بمفردي. انتهى بي الأمر في برلين الألمانية بمفردي مع مفردي. فتح الحجرة المائة عمل فردي تماماً، مهما كانت المتاعب والجروح من الأدوات الحادة التي غالباً ما سنتعثر فيها، ومهما كانت شراسة عناكب الذاكرة التي ستنقض علينا ومهما كان عدد عفاريت الظلمة الذين استوطنوا الحجرة. الآن أنا أمام أنا. كيف السبيل والقاهرة علمتنا أن نكون معاً جميعاً دائماً؟ حتى مهارات فتح الحجرة لم أتعلمها. ظننت أنها انتهت وذهبت إلى النسيان بكل ما فيها. لم تذهب، بقيت هي ومحتوياتها تنظر إلي شذراً لتفرض قوتها ولتدك كل عنادي وكبريائي ويظهر ضعفي.

كيف السبيل إلى تلك المواجهة التي تهرب منها دائماً؟ في البداية كنت أظن أنها أشياء بسيطة، موجعة مؤقتاً، سخيفة في حينها وستمر، تعلمت بكل الحجج المستهلكة، أقنعت نفسي أن درجة الحساسية تزداد كلما تقدمت السنون، وأنني أراقب نفسي وأقف أمامها لأخرج لها لساني وأقول بنبرة الأطفال عندما يحصلون على شيء رغماً عنا "شايفاكيي". أزحت

كل القصص جانباً لأكمل وكأن شيئاً لم يحدث، تماماً كما انزلقت قدمى على سلم محطة المترو فى ميدان التحرير، وتحملت آلام الارتطام فى ركبتى ويدى وكتفى، وفى آخر درجة سويت ملابسى بشكل مسرحى أنيق وقلت للجمع الغفير الذى تجمع حولى "حصل خير، مافيش حاجة يا جماعة، متشكرة قوى". أركز كل جهودى على أن أظهر لهؤلاء المواسين أنهم مخطئون، لم يحدث شىء. أضع على وجهى كل ملامح الاستهانة والاستنكار ليقتنعوا أنهم واهمون. ثم أقف وأعاود شكرهم لأثبت أن الارتطام لم يؤثر على معنوياتى وأبدأ المشي بخطوة قوية سريعة لأقدم أدلة إضافية على سلامتى التامة. تبدأ ركبتى بعد قليل فى الاحتجاج، أتجاهلها فترة لا بأس بها حتى أصل إلى مكان يمكننى أن أفحصها به. أرفع الفستان قليلاً لأجد ركبتى وقد تشوهت تماماً، جلد منزوع من مكانه ويظهر تحته اللحم عليه دم أحمر متجلط، نقاط دماء متناثرة، وخدوش كثيرة تتدلى من نهاياتها شرائح طازجة من الجلد. أنظف ركبتى وأنسى الأمر تماماً حتى تبدأ فى السخونة وتنتفخ وتتورم وأستيقظ ليلاً على وخزات الألم الشديد. يتحول الاحمرار إلى زرقة ممزوجة بأصفر باهت ويوماً بعد يوم تنقلب المساحة كلها إلى أزرق داكن. مع الأيام تتقشع الألوان وتبقى كدمة صغيرة سوداء لتذكرنى بتلك العثرة. فى كل العثرات كنت أقف وأقول "حصل خير" فانتهيت فى برلين ببقع سوداء كثيرة لن تزول إلا بتقشيرها من على الجلد.

إلحاح الحجرة المائة يزداد، إلحاح جعلنى لا أفكر فى السفر مرتين، مرة واحدة، ثم قرار، ثم مطار، ثم طائرة، ثم بلد آخر. مكان مجهول، جديد، بكل ما فيه، وجوه ولغة وممرات ومناظر ومأكولات ومشروبات وعملات ورقية. مكان جديد لابد أن نخوض فيه ممرات الألم لنصل. هكذا استوعبت ما قالته "سمر"، قالت إنه ممر طويل له بداية لكن نهايته غير معلومة، بدايته الشوك والماء المحموم وآخره السندس والريحان. ولكن ماذا لو دخلت فى بدايته ثم ضللت طريقي كما يحدث لى دائماً؟ أضل طريقى لكننى بارعة فى قراءة الخريطة. المشكلة الأولى: المكان خارج الخريطة.

١

صديقتى الصغيرة اللئيمة الجميلة "روضة" ستكمل اليوم بالتحديد عشرين عاماً. وأنا سأكمل الأربعين بعد قليل. أحب العمر دائماً كما كنت أقول لك، لا أخافه ولا أكره تجاعيده، تضحكين الآن يا "روضة" من ولعى بالكريم، أضع الكريم على وجهى - وأحاول بدون فائدة أن أنقل لك بعض مهاراتى - من باب الحب وليس الخوف. هل تذكرين ذاك اليوم الذى كنت أنتفض فيه فرحا لأننى اكتشفت – أخيرا - شعرة بيضاء تتراقص أمام عينى فى المرآة؟ شعرة بيضاء وحيدة كانت لديها القدرة على تحدى كل ذاك الشعر الطويل المتدثر دائما بالحناء. جئتكم فرحة أتقافز كالأطفال وأقول "شعرة بيضا.. شعرة

بيضا". كل منكم ضحك بطريقته... بخفة دم أو بتظاهر العقل المضاد لجنونى أو حتى بالتعجب منى، فالزمن يأتى بالكثير من الأبيض. لكن أعتقد أنك فهمتنى أيتها الصغيرة ولذلك امتنعت عن التعليق، ثم كنت فى اليوم التالى تبحثين عنها معى، وكنا عندما نجدها نضحك كثيراً بصوت عالٍ ولا نقول شيئاً ذا معنى، لأن المعنى قابع هناك ينتظرنا معاً.

اليوم ذكرى مولدك والمسار الطبيعى للحكاية أن نكون معاً نحتفل ونضحك ونتمايل فى حنان الأصدقاء وربما نسهر أكثر من المعتاد. لكننا لسنا معاً، فأنا إذ نظرت يميناً سأجد بولندا، وإذا نظرت يساراً سأجد هولندا وفرنسا، وإذا نظرت فوق سأجد الدانمارك وإذا نظرت تحت سأجد النمسا. تعرفين تلك المناطق؟ مناطق باردة بشدة وسكانها بيض للغاية، ونبرة صوتهم منخفضة قليلاً، وكلماتهم لا تكفى لإشباع جوعك. كلها مناطق محددة على الخريطة هناك، وهو ما يميزها عن المنطقة التى أريد الوصول إليها. أما أنت فإذا نظرت على يمينك فستجدين بحرا أحمر جميلا، احمراره يفوق سماعة الغسق، وإذا نظرت يسارك ستجدين صحراء ذهبية اللون، يفوق لونها قلب الشمس، وإذا نظرت فوقك ستجدين قمرا مكتملاً يناديك لأنه يشبهك، وإذا نظرت تحتك ستجدين أرضاً تناجيك بذراعين مفتوحتين ترجوك أن تقبليها كما هى. لسنا معا لكن عزائى أنك ستجدين كل هذه الرحابة وسأنتظر أنا هنا لأشاهدك تكبرين . ولابأس من بعض الألم الذى

مدونـــــــة رفايـــــع

سيزيد من جمالك - وتمرحين وتعبرين عن الغضب والفرح بنفس القدر، اليوم تضيفين عاما إلى أعوامك السبعة وتقولين "كنت...."، ومازلت لا تعرفين أن كل مكان لا يتركنا أبدا إلا إذا تركناه. ولأنك تشبثت بالحكايات لنستمد منها الأمان - حتى لو كانت جروحا - فإننا نتركها بعد عمر طويل. هل تشبثت لأننى أحببت دور الضحية أم أننى كنت ضحية بالفعل؟ احتفلى وأطلقى كل زفيرك على شموع كثيرة ملونة وتمنى.. تمنى ألا يطول تشبثك بالحكايا. دعيها تذهب كلها لحيوات أخرى وانسجى أنت حكايا جديدة. حكايا أنيقة تلائم الأعوام العشرين.

اليوم ذكرى مولدك وكأنه بالأمس القريب احتفلت بك، احتفلت بك آنذاك وأنا مكبلة بقيود دونت على ورق، قيود كان ظاهرها الحب وباطنها المتصلة، قيود رأيتها ولم أرها، لكنها جثمت على صدرى كثيراً وربما مازال بعضها هنا الآن يكتب معى، قيود منعتنى حتى أن أبتسم فى وجهك خوفاً من عقاب القيود فلا أراك ثانية، وخوفاً من انهيار ما شيدته على ورق. ولأن الورق لا يصمد كثيراً أو حتى لا يصمد مطلقاً فقد انهار كل شىء بعد قليل جداً. هل تذكرين ذاك اليوم عندما احتل هو كل الفضاء بصوته، احتله بكلمات فارغة مليئة بالبطولات الوهمية المشيدة على ورق أيضا. كتملت أعوامك يومها تسعة عشر، وكان قناعى قد اكتمل، بل اقتعنى بأكمله. كان قناعى يومها ربما فى النزع الأخير، يسجل قبحه وضيق نظرته..

قبحًا كان يعبر عن نفسه بثرثرة لا تنتهى، وبكره للناس، وبرصد لأخطائهم، وبنفاق لرغباتهم، وبطاعة لأسيادهم. حاولت جاهدة يومها أن أقلد "مصطفى" ولا أجادل لتمر الليلة ونجد مساحة احتفال بك. مرت الليلة واحتفلنا داخلنا، أطفأت لك الشموع داخلى وكنت مازلت لا تفهمين. لا تفهمين معنى الخوف، ليس فقط الخوف من الفقد ولكن من شخص. أليس هذا مريعاً وقميئاً ومقززاً؟ نعم، لكنه حدث. أنا فعلته.. أنا قبلته.. لم أعترض حتى النهاية.

يوم مولدك... اكتمل القمر بدرا واكتملت لديك خطوة فى عالمنا وأوشك فهمك لمعنى الغياب على الاكتمال، أو هكذا ظننت، أفتح البريد الإلكترونى وأجد منك رسالة تقول "أنا كتبت حاجة كده مش متأكدة هى إيه". أثبت الفأرة على الملف وأنقر عليه ليفتح:

"كلما أحاول أن أبحث عن نهاية أكثر رومانسية لجدتى أجد نفسى بعد تفكير طويل أصل إلى نفس المشهد فى عقلى. قبرها. ولماذا أحاول أن أبحث لها عن نهاية أخرى وهى التى كانت سترضى بكل النهايات. تزورنى فى أحلامى لتؤكد لى رضاها، أسمع صوت صديقى العجوز يقول: "لا تبحثى عنها فى الخارج، هى بداخلك انصتى واسمعى صوتها". اليوم فقط قررت أن أنصت. قبل ذهابى إلى النوم قلت لصديقى: "أنا جاهزة" ثم سمعت أمى

تقول: "لن نعود كما ذهبنا"، ففتحت عينى لأستقبل يوما كباقى الأيام ولم أفهم. انتظرت اكتمال القمر وجاء القمر. جلست أمام منزل أثرى فى الحسين أتأمله رغم الضوضاء المحيطة بى. أمى هى التى ذهبت وقالت لى فى قاعة المغادرة فى المطار "أرى العالم فيك"، وجاء صوته ليؤكد لى أن العالم فى داخلى وأن أمى ليست الوحيدة التى لن تعود كما ذهبت، بل أنا أيضا فى قلب التجربة دون أن أكون واعية بها. اليوم أصبح عمرى عشرين عاما، أمى هناك فى بلد لا أعرف حتى شكل أهله ولا افهم لغتهم، وأنا هنا فى القاهرة التى أعرف معظم شوارعها، محاطة ببشر أفهم أحيانا لغتهم. قالت لى "سمر" صديقة أمى "اتمنى أمنية"، وقبل أن أنحنى لإطفاء شمعة وحيدة صرخت "سمر" "الأمنية؟"... أغمضت عينى فرأيت أمى تقف بجوارى تضحك... ففتحت عينى وأخمدت نار الشمعة بنفس واحد ضعيف وأرسلت لأمى السلام مع القمر (دى مش قصة دى بس أفكار)".

اليوم تحتفلين بالعام العشرين فى القاهرة التى قهرتنى فأحببتها، وأنا أحتفل فى برلين بعيد الهالوين. هل رأيت هذا العيد من قبل يا "روضة"؟ أنا لم أره، فقط سمعت عنه. الآن أجلس فى طاولة نائية فى مطعم أمريكى بارد، أنقر على جهاز الكمبيوتر وأختلس النظر لكل هؤلاء الذين تنكروا فى ثياب "الشياطين" ليردعوا كل الأرواح الشريرة التى تسول لها نفسها التحرش بالأرواح الطيبة. وقع نظرى على تلك الباروكة الزرقاء التى جثمت

على رأس المرأة الجالسة أمامي، سرحت في ألوان الشعر المستعار لكل الجالسين معها على نفس الطاولة، تأملت أحمر الشفاه الأسود والأظافر المطلية أحمر، والنجوم المتناثرة على الملابس... يتنكرون ليصيدوا الشيطان والعفريت، أضحك داخلي باستهزاء فقد تنكرت كثيرا، بل ربما كنت متنكرة دائماً، ولم أمنع العفاريت من استيطان روحي. ها هي العفاريت تحاول أن تخرج بكل قوتها وأنا أمنعها بكل قوتي. أحتمي بجهاز الكمبيوتر وأسجل عليه كل الخوف والضعف، وأطفئ معك شموعا في ذاكرتي.. شموعا لم أطفئها معك من قبل.. لأنني كنت في منطقة أخرى هناك.

٢

عندما كنت صغيرة لم أكن أخاف الظلام مثل كل الأطفال، كنت أخاف من عمي، بل كنت أرتعد حين يذكر اسمه، وفهمت أمي الحيلة. فكنت كلما أمارس السخف المعهود للأطفال تهددني بذكر اسمه، لأتحول في لحظة إلى ملاك وديع. أمي أيضا كانت تخاف عمي، وترتعد أمامه وتقول -- دائما - "طبعا كلامك مظبوط". كانت هي أيضا تخافه، ربما كانت تخاف كل الناس، تخاف الدنيا، وتراها عبئاً لابد أن تحمله. فأحاطتني بكم لا بأس به من الحماية، لكن تعرفين أن الخط الفاصل بين الحماية والقسوة رفيع للغاية، وتعرفين أننا مازلنا نبرر قسوتنا حتى الآن على أحبابنا بالحب. أمي تقسو وأنا

أتكمش وأصمت، عمي يقسو وهي تتكمش وتبرر وتقول "كلامك كله مظبوط". كبرت قليلاً ولم أتنازل عن كرهي لعمي، ثم كبرت كثيرا ونسيت عمي. الآن فقط أدركت أن عمي كان يبحث عن كينونة، عن مكان في الدنيا، عن شخص يربت على كتفه ويقول له "إنت كويس قوى". لم يتزوج عمي وظل وحيدا في شقة مظلمة في أعلى دور بالبناية، وظل يردد "أنا على درجة وكيل وزارة في وزارة الشئون"، ثم يتأمل كل العقود الخريمي البلاستيكية التي اشتراها من سوريا في الستينيات. ظلت العقود قابعة في دولاب ملابسه من باب البخل، لأنه لم يجد المرأة التي تستحقهم - كما كان يقول -. حتى إن عمتي كادت تموت غيظاً لأنها اكتشفت أن "نبوية" التي تعمل لدينا منذ زمن حصلت على عقد من تلك الثروة البلاستيكية، وعندها تأكدت عمتي أن "نبوية" تطمع في ميراث عمي. مات عمي في مستشفى ما ولم أعلم بوفاته إلا بعد أربعة أيام. صمتُ ولم أتكلم.

لم تتزوج أمي أيضاً وأفنت عمرها في محاولة ترويضي، محاولات باءت بالفشل لأن قاموسي لم يتضمن أبداً -عندما كبرت- كلمة "نعم". عندها انصرفت أمي إلى تطريز زهور كبيرة على أقمشة لامعة، زهور تشبه الزهور، زهور فاقدة الروح، زهور تحاول أن تستمد حكاية من محاولة ترويض "نبوية".

وكانت "نبوية" أذكى منى كثيراً، فقد علمتها السيدة التى كانت تعمل لديها عندما كان عمرها سبع سنوات أنها إذا أظهرت طاعة كافية طوال اليوم يمكن أن تحصل على نصف رغيف فى المساء بدلاً من ربع الرغيف المعتاد. ومن هنا أصبحت "نبوية" أهم شخصية فى حياة أمى. تدخر أمى لها أموالها وتخطط معها حياة أبنائها، ومؤخرا تمارس عليها جرعة مكثفة من الوعظ الدينى الملىء بالمعلومات الخاطئة. و"نبوية" تملأ الفواصل بانبهار مفتعل يروق لأمى وتقول "صحيح ياست كوثر، والنبى صحيح؟". يبدو أن أمى لم تكن قوية كفاية لأن "نبوية" بعد فترة قليلة من الوعظ تزوجت عرفيا من الرجل الذى أحبته، وهى لاتزال فى عصمة أبو العيال. وتلقت "نبوية" يومها أطول محاضرة عن عذاب جهنم وعن الثواب والعقاب والآخرة، استمعت وهى تبدى الموافقة والندم على فعلتها الشنعاء. وأقنعت أمى أن الرجل غرر بها وجعلها توقع على ورقة ما وهى لا تعرف القراءة. ثم دخلت على غرفتى وهى مبتسمة وقالت "أعمل إيه بقى دلوقت يا عيشة؟". أرتبك، فليس لدى أدنى فكرة عما يجب عمله للخروج من هذه الورطة. لا أجد سوى أن أسألها لماذا تزوجته. تجيب وهى تخفض صوتها: "أصله طيب قوى يا عيشة. أول لما شافنى فى الميكروباص سألنى إن كنت فطرت ولا لأ. وراح نازل شارينى سندوتشات فول وجابلى طرشى. طيب قوى والنبى يا عيشة غير البغل التانى اللى أنا صارفة كل فلوسى على بطنه، ده بيشرب فى اليوم كيلو لبن". غالبا ما وجدنا فى "نبوية" أنا وأخواتى راحة لضميرنا، نحن

الملائكة وهى الشيطان، نحن المتعلمات وهى الأمية، نحن الإستقامة وهى الإثم. غسلنا ضمائرنا كما يغسل تجار المخدرات أموالهم، وشعرت أمى براحة الضمير أمام الله لأنها لقنت "نبوية" درسا دينيا دسما، ونمنا جميعا فى تابوت مرايانا المعكوسة التى لا نرى فيها إلا الآخرين الأشرار. كيف كنا سنشعر بالاكتمال بدون "نبوية"؟

تستدير لتغادر الحجرة ثم تعاود الالتفات وتقول "صحيح يا عيشة، نسيت أقول لك، خالك مات، يوه قصدى عمك. عرفت يوم الأربع اللى فات.".

٣

(الحب والأقنعة، سلاح صدنا، إعلان الحب، انتهاء اللعبة. كيف نقع فى الحب بسرعة لاتقل عن سرعة سائقى الميكروباص. المعتادون على ركوب تلك العربة المكدسة لا يحفلون بتهور السائق، فقد اعتادوا عليه. فقط نحن - سائقو السيارات الخاصة - ننظر بتعالٍ أنيق ونتعجب "إيه الجنان ده؟"، وعندما نقع فى الحب ونهيم شوقا ينظرون هم إلينا بتعجب "ناس فاضية". رغم أن القاهرة التى يئن أسفلت شوارعها من السرعة الجنونية للميكروباص هى نفس القاهرة التى تدفعنا إلى الوقوع فى الحب بسرعة جنونية. وفى الحالتين لا يمكن التوقف إلا عندما يحين التوقف. الميكروباص يتوقف

بشكل مفاجيء وجنونى فى مكان غير متوقع، وغالبا ما يكون مكانا حيويا رئيسيا مزدحما بالبشر ومحلات عصير القصب ولامكان فيه لموضع قدم. يغادر السائق مقعده بعنف ويصفق الباب خلفه لاعنا "الدنيا واللى فيها"، يدخن سيجارة ويتبادل بعض القفشات الغليظة مع سائق آخر ثم يعود إلى مقعده مرة أخرى وينطلق بنفس السرعة الجنونية. نقع فى الحب بنفس السرعة، هكذا نجد أنفسنا نفكر فى شخص ما يستحوذ على تفكيرنا ونؤكد "لأ لأ عادى، بجد مافيش حاجة". وبعد وقت قصير يتضح أن هناك مليون حاجة، فى عقلنا فقط، صورة نصيغها ونكمل ألوانها وفقا لاحتياجاتنا فى تلك اللحظة. بمجرد اكتمال الصورة بألوان فاقعة واثقة لا مكان للظلال فيها ننطلق بسرعة جنونية، نضع القلب والروح فى أعلى درجات التأهب واليقظة، لنكتشف فجأة أننا كنا نستريح من سخونة الأسفلت فى غفوة صورة متقنة توهمنا بغياب الوحدة وتدلل الذات قليلاً. عند هذا الاكتشاف نتوقف فجأة بمنتهى العنف محدثين صوتاً عالياً على أسفلت القلب، وكما تترك الفرملة المفاجئة للعجلات آثاراً لا تمحى على الأسفلت، يترك التوقف المفاجئ للحب علامات لا تمحى. علامات تذكرنا دائما أننا أخطأنا الاختيار وأننا كنا مندفعين، وأننا مخطئون ومخطئات، وأننا قلنا نعم حين كان يجب أن نقول لا.

كيف كان لنا أن نعرف ونحن نقود بهذه السرعة، كيف لمسافر يجرى من محطة إلى أخرى أن يتوقف ليقرأ العلامات ويفهمها؟ المشكلة أن هذا

المسافر يجد نفسه بسبب السرعة فى محطة أخرى ليست مبتغاه، فيعود إلى البداية مرة أخرى، يعود لاعنا "الحب وسنينه" ويقسم أنه لن يقود تجاه ذلك الشيء المدعو الحب مرة أخرى لأنه إحساس يسبب الكثير من الكآبة. هكذا يتوقف المسافر حتى يلتقط أنفاسه ويبدأ ليعاود السفر مرة أخرى بحثا عن مبتغاه، وكأن ما كان لم يكن. هل يجده أبدا فى القاهرة التى لم أتبين كل شوارعها حتى اليوم؟ فما بالك ياصغيرتى بأزقتها وكواليسها، وكثيرة هى. فنحن إذا لم نقرأ العلامات جيدا على كوبرى أكتوبر قد نجد أنفسنا فى مدينة نصر بدلا من العباسية، تماما كما تخوننا قراءة العلامات فى الحب. فاتتنى الكثير من العلامات التى كانت تحذرنى الاقتراب من روحه، كادت تكون مثل العلامات التى تحول نهر الشارع لوجود إصلاحات به، ولم أتحول، كنت أنظر إلى الأمام والعلامات كانت – للأسف – فى الأسفل قرب الأسفلت قليلاً. من الذى قال إنه لا يجب أن ننظر إلى أقدامنا؟ كيف فاتتنى حتى العلامات التى جعلتنا نضحك ليالى طويلة يا صغيرتى. يذكرنى دائما بسائق التاكسى الذى سألنى مرة منذ حوالى عشر سنوات "قولى لى يا أبلة، الكلمة دى يعنى إيه؟"، وأشار إلى لافتة "ماكدونالدز". فقلت له إنه اسم المحل، فسأل "بيبيعوا إيه يعنى؟" أجبت بنبرة سخرية "كفتة أمريكانى"، غرق السائق فى الضحك. عندما حكيت بعد ذلك الواقعة، لم يضحك بل أشاح بوجهه وقال "مش عارف أركن العربية فين". أنا العالم والعالم أنا، ولاشيء يستحق الاهتمام. كيف يعيش هؤلاء؟

٤

آه منك ياقاهرة فى الصباح الباكر وأهلك على المقاهى يحتسون شايا بحليب والنصف الآخر يلتهم الفول بالزيت الحار ويصنع منه وليمة على سيارات الذين يأكلون تفاحة على الإفطار، وصوت "مصطفى إسماعيل" فى الخلفية يردد بقراءات مختلفة "الطارق ما الطارق وما أدراك ماالطارق"، والمستمعين يهللون "اللللللللللللللللللللللله"، ثم يعيد "الطارق، ما الطارق وما أدريك ماالطارق" و..."اللللللللللللللله". أجلس أمام النافذة فى حجرتى فى برلين وروحى مفتوحة على القاهرة تعويضا عن سحب برلين الرمادية التى تغلق زرقة السماء، الشيخ "مصطفى إسماعيل" يبدع " **فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا** "، أدعو أن أمر بسلام من هذه المحنة وأقول "المرة دى صعبة شوية يارب، والنبى ماتسيبنيش". بدون خرائط الروح تتحول كل الأمكنة إلى صحراء وأنا لم أمتلك خريطة لروحى إلا فى القاهرة وأهمها خريطة الابتسامة، نحن أهل القاهرة نواجه كل أحداث دنيانا بالابتسام، وابتساماتنا تقول الكثير: تقول الغضب والزجر والسخرية والعجز والكذب والحب والامتنان والراحة والقلق والقبول والرفض، من يمتلك هذه الشفرة السحرية إلا أهل القاهرة؟ فى لحظة - هنا فى برلين - عدت إلى القاهرة فى أكثر المواقف مأساوية، حين جاء لصديقى المغربى خبر

وفاة والده حاولت قدر استطاعتى مساعدته ليصل أغادير قبل الليل، وقبل أن يدلف إلى التاكسى الذى سيقله إلى المطار ابتسم وأخذ يردد "شكرا... شكرا" أدركت لحظتها أنه فى أعلى درجات الألم، تمكنت من حل شفرة ابتسامته وعدت عبرها إلى القاهرة. ربما كانت كل ابتساماتنا مؤخرا فى القاهرة هى ابتسامات الألم، - وفى أحسن الأحوال - كانت ابتسامات السخرية والعجز.

٥

تشتد حرارة القاهرة وترتفع وترتفع كأنها ستنفجر فأضع على رأسى عجينة الحناء الحمراء لتمتص الحرارة، أو على الأقل هذا هو السبب المعلن. أما السبب الحقيقى فهو محاولاتى المستمرة منذ سنوات فى الحصول على شعر أحمر متوهج مثل روحى لأحقق قدرا من الاتساق فى الألوان. مؤخرا تمكنت من الحصول على ظل يشبه الأحمر لكنه ليس أحمر، ولكى أنتزع تعليقاً واحداً على هذا الظل لابد أن أقف تحت شمس القاهرة الحارقة، بعد أن أضع الحناء لتمتص حرارتها.

فى برلين الباردة التى أرتدى فى خريفها أربع طبقات من الملابس، لم أستطع الكتابة عن القاهرة إلا عبر العودة الكاملة إلى الشمس الحارقة التى تؤلم العظام وتشقق الجلد وتلهب الأعصاب. الطريق يبدأ من القاهرة. ولكى

أبداً لابد أن أقع تحت طائلة الذاكرة التى لاترحم، ذاكرة لاتشبه شيئاً لأنها تبدأ فى العمل ولاتتوقف مهما كانت التهائم والأحجبة، ذاكرة تهرس كل خلية فى القلب والعقل ولا أعرف النتيجة بعد كل هذا الهرس والعجن، كل ما أعرفه الآن هو شلالات الدموع التى تنهمر منى لا إراديا، دموع حارقة أشعر معها بوخزة ألم فى منتصف صدرى، دموع ألم وتأنيب ضمير وشعور بالضآلة والشفقة على الذات والندم، وكما تقول أمى دائماً "لولا عدة "أم مكى" لكان الخال يبكي"، وفى برلين لم أجد عدة أم مكى فكان الخال يبكى.

(من برلين أرسلت رسالة لـ"سمر" بالبريد الألكترونى عنوانها "مساعدة عاجلة"، سألتها ما العمل فى تلك الدموع وكل ذاك الرثاء وأنا هنا بمفردى وحيدة تماماً، وفورا أجابت:

"لن أقول لك لابأس، ولن أطلب منك التوقف عن البكاء، بل سأقول ابكى وابكى حتى تتخلصى من كل الآهات، بل علقى ورقة فى الغرفة تقول أنك مجروحة حتى الثمالة. ابكى وابكى وعندما تذرفين دمعك بأكمله سيجيء وقت الفهم. لكن تذكرى أنك لن تفهمى كل شيء، وعندما تحاولين الفهم لا تعفى نفسك من المسئولية. عندئذ ستطهرين الجرح من الدم والصديد الذى تراكم فى القاهرة. وعندما يصبح الجرح نظيفا سيترك مكانه علامة عجوز (لاتقلقى، يمكن أن نعالجها فيما بعد بجراحة تجميل). ابكى واعلمى أننى أحبك وأؤمن بك. ابكى حتى تجدى الطريق الذى بدايته شوك ودموع وآخره سلام وأمان".

كم جراحة تجميل أحتاجها؟ ومازلت أبكى ذاكرة ماكرة لئيمة، ذاكرة بشعة تحتفظ بكل همسة ولمسة، ذاكرة لا تخون إلا فى الأشياء التافهة، ذاكرة تهش فينا لتؤكد أن كل ما حدث قد حدث بالفعل، ذاكرة تعيد لنا كل الوجوه التى كرهناها، وكل الألسنة التى ظننا أننا قطعناها، وكل المشاعر التى كنا قد نسيناها، وكل الأحداث التى كان لابد أن نصرخ فيها ولم نفعل، واللحظات التى كان لابد أن نقبل فيها فرفضنا، والأماكن التى ما كان يجب أن ندخلها فدخلناها بثقة ولامبالاة، والنساء ذوات الأرواح القبيحة اللواتى كان لابد أن نمنعهن من مجال رؤيتنا فدخلن قسرا وغصبا ليبقرن بطوننا، والرجال الذين أسلمنا لهم القياد أحيانا فكانت حوادث مروعة... كل تلك الروائح الكريهة، كيف سمحنا لأنوفنا أن تلتقطها؟)

لن أعفى ذاتى من المسئولية، ولن أبحث عن شماعة، لدىَّ مئات الشماعات فى القاهرة، لكن لن أتنازل عن الحناء الحمراء، إذ ربما أحصل فى برلين على شعر أحمر متوهج كذاكرتى الآن.

ذاكرة النار

ذاكرة تسير بسرعة الرياح العاصفة الخائفة، تثير كل الزوابع الكامنة الهادئة لتحولها إلى أشباح متسلطة تعتصر الروح... ثم يهدأ كل شيء لأبقى أنا مع قليل من الأسئلة والكثير من رثاء الذات والشعور بالغبن والندم. ماذا تفعل القاهرة بنسائها؟ لماذا يتحولن إلى وحوش كاسرة تنقض على كل ماتجده فى طريقها؟ لماذا يلاطفن الفريسة قبل التهامها؟ إذا كشر الوحش عن أنيابه مباشرة فهذا مفهوم، إذ على الفريسة أن تلوذ بالفرار، ولكن إذا قرر الوحش أن يهدهدها ويدعوها إلى القهوة وبعض السهرات التى يكون البوح بالآلام هو محورها فإن الفريسة تأمن جانبه ولا ترى وحشيته. وهذا أصعب لأن الفريسة لا تكون مستعدة للألم فيفاجئها السكين فى أضعف نقطة.

"عالية" ابنة القاهرة بحق، تتحرك فى كل مكان وتشارك فى كل مناسبة، وتظهر فى كل مشكلة، وتتورط فى أية كارثة، وتدلى برأيها فى كل شيء، سياسة، فن، أدب، ثقافة، مشاجرة، مباراة كرة قدم، تطورات الإنترنت... بالإضافة لعملها كمحامية. تجلس معك "عالية" فتحل لك كل المشاكل المستعصية عبر قاموس ثقافى - أندهش دائما إزاء خروجه من دفتى كتاب إلى الحياة اليومية -، ثم تحكى لك حكاية تجعلك على وشك الانفجار من

شدة الضحك، ثم تجدها تقاتل فى سبيل الإفراج عن شاب مضطهد فى مكان عمله، والقاهرة تموج بالمضطهدين. عليك فقط أن تتفوه باسم رجل أمامها لتتوهج عيناها وتخبرك عن حبه المهووس لها وعما فعلته به. "عالية" لا تكذب، بل هى تصدق نفسها، تقمص الكلام حتى يصبح جزءاً من وعيها وروحها فلا تملك إلا أن تصدقها. وفى وسط كل هذا تخبرك عن جراحها وآلامها فلا تملك سوى أن ترى إنسانيتها بوضوح. أليست هذه إمرأة رائعة؟

كالمعتاد كانت العلامات أمامى ولم أرها، أو ربما رأيتها وتجاهلتها. كانت "عالية" تثور لأتفه الأسباب ولاتتورع عن سب الآخر، ولم تكن هذه المشكلة. بل كانت المشكلة أنها تفعل هذا مع من يجرؤ على إظهار الضعف. كان دائما كلامها عن العدو ذاك الآخر، غير مقبول، ولا أذكر كم من البشر ناصبتهم العداوة تبنيا لمنطقها. كنت أتابع كل الأخبار الحميمية عن الآخرين من فمها. كانوا كلهم عراة ما من شىء يسترهم أمامى، ولم أنتبه مطلقا أن دورى قد اقترب. كنت أراها دائما روحا تبحث عن المستحيل، ولم أدرك مطلقا أن ترجمة هذا القلق - الذى كنت أراه وجوديا بحتا - تعنى عدم التحقق وعدم الشعور بالاكتمال، أو غياب نقطة الارتكاز - كما يحلو لأحد أصدقائى أن يقول -. وكأن "عالية" قررت أن تكتمل عبر وجودى، - أو بمعنى أدق - غيابى. لم أعرف بالطبع إلا بعد مرور سنوات أن "عالية" لم تحتمل سرا واحدا، كان السر يثقل قلبها فقررت أن توزعه على محتاجى الأسرار، لم

أعرف أن "عالية" كانت تتقمصنى فكل حب كان لها وكل كلمة كانت لها. أصبح الهم الأوحد لـ"عالية" هو كيفية الحصول على ما أملكه، مشروع، علاقة، صديقة، عمل، وكأن النار كانت تتعش لمجرد وجودى الفيزيقى. بذلت "عالية" جهدا فائقا، لكنها لم تحصل إلا على ما تركته أنا أو غادرته أو هجرته أو زهدته، كلما أطفأت ناراً تعود "عالية" فى محاولة يائسة لإشعالها. بعض النيران اشتعلت وبعض النيران أبت الاشتعال. لكن "عالية" لم تستريح لأنها عرفت أن خلاصها الوحيد كان فى وجودى/غيابى.

ترانى "عالية" - وربما تتجنبنى - بالصدفة فى مكان فيتلون وجهها بألوان شاحبة ويعلو صوتها صاخبا، وتكتسب لغة جسدها هستيريا، كنت أحاول بث الطمأنينة فى تلك النفس الخائفة، كنت أحاول أن أخبرها أن النقصان يطالنا جميعا. محاولات كانت تزيد نار "عالية" اشتعالا وتأججا وعدوانية، محاولات كانت تطلق جموح لسانها وتزيده عنفوانا وغبنا. كانت "عالية" صادقة فى كل فعل تقوم به حتى لو بدا للبعض تناقض. هل أغوتها القاهرة بتناقضاتها أم أنها كانت ترى فى وجودى تهديدا لقاهرتها. كنت أرى بمنتهى الوضوح، لكننى اخترت ألا أرى، فقد ملكتنى القاهرة وما تركت لى أحدا منها لحظة واحدة أتوقف فيها لأعلن رفضا مماثلاً أو عدوانية مضادة. كنت أتعالى على كل التفاصيل التى تتساقط ناراً من ذاكرتى الآن. كنت أغض

مدونـــــــة رفايـــــع

البصر عن المدافن القابعة بتواضع تحت الملاهى الليلية، وكنت أتجاهل السحابة السوداء التى توقد صدر القاهرة الواسع.

ربما كنت أنا السبب؟ ألم أقل أننى لن أعفى نفسى من المسئولية، ربما أشعرتها لا مبالاتى الدائمة بالخطر، ربما أدركت "عالية" أننى "فوق هناك" وأرادت أن تجعلنى أهبط إلى الأرض حيث التفاصيل، ربما كان ادعائى الوهمى بالاكتمال الذى أستعين به على الحياة هو الذى استنفر قواها ضد هذا النمط... ربما. قالت "سمر" إننى لن أفهم كل شىء، بالطبع يا "سمر" لا أحد يمكنه أن يفهم كل شىء، لكن التخمين هو الاختيار الوحيد المتاح الآن. لماذا لم أهتم بمواجهة "عالية"؟ يلح على السؤال حتى يصبح كملح البحر الذى يأكل الجلد.

هل تذكرين يا "روضة" عندما قلت إننى "الكائن الذى لا تحتمل خفته"، هذه هى إذن نتائج الخفة. القاهرة أيضا تبتلعنا فلا نحتمل خفتها، كثيرة هى القاهرة علينا، لا نستوعبها فنقلدها، تطير هى بخفة إلى أعلى ونبقى نحن أسفل نئن من جراحنا. لسنا جديرين بهذه الخفة، خفة القاهرة حقيقية، أما خفتنا فكانت مصطنعة. بائسة أنت يا "عالية"، متى تفهمين أنه لا يمكن لأحد أن ينافس القاهرة فى عنفوانها، متى تفهمين أنه لابد أن نتقزم إجلالا

وتواضعا لقاهرة مترامية الأطراف، متغلغلة فى الروح، قابضة على جمرنا؟ القاهرة وحدها تجيب على ما تشاء من أسئلة، القاهرة الآسرة، الساحرة.

لا تسعى إلى الخفة يا صغيرتى، يلزمنا أحياناً أن نثور لأتفه الأسباب، وأن نتصنع الغضب، وأن نكسر المرايا، وأن نقول "لا" بفم متقلصة عضلاته بالحسم ومشمئزة تعبيراته بالرفض، وناطقة خلاياه بالتمرد. الخفة ياصغيرتى توقعنا فى التأجيل البليد لكل ألم قدر لنا. جاءت "عالية" من رحم غيرة القاهرة التى لا ترحم ولا تقبل خفتى.

"ليلى" مبتسمة دائماً حتى أننى كدت أعتقد أنها تحتفظ بابتسامتها وهى نائمة. لكنها ابتسامة موحدة مثل إعلان "بيبسى كولا" فى أعلى نقطة فى ميدان التحرير، لايتغير أبداً سواء كنا نعبر الميدان بحركات بهلوانية لنتقابل أصدقاء، أو نحاول الوصول إلى مكتب شركة طيران أو نحاول أن نعبر من أى ثغرة متاحة فى كوردون العساكر الذى يطوق مظاهرة ما ترفض حدث وقع فى غفلة من الزمن. يبقى الإعلان هناك ليفرض نفسه علينا وكأنه يخرج لنا لسانه. تعشق "ليلى" عروض الأزياء بنفس قدر عشقها للتواجد فى افتتاح أى مؤتمر. لم أنتبه قط أن "ليلى" ليس لديها صديقة واحدة وأنها لم تظهر بصحبة نفس الشخص مرتين متتاليتين. تعشق "ليلى" الحكى عن الآخرين ولا ترى غضاضة فى هذا، ثم تنتقل إلى الحكى عن نفسها

باستفاضة، المشكلة أن "ليلى" تبوح للجميع دون أى تفرقة، تبوح عن نفسها وعن الآخرين.

تشعر "ليلى" بالأمان كلما ازداد عدد الرجال حولها وتدخل فى حالة من الرقص الهستيرى فى ليل القاهرة، إلا أن القاهرة ليلا ملكنا جميعاً، قاهرتنا أيضا لا تفرق بيننا، فتعطى لكل ليله الذى يغنى فيه على ليلاه. لكن "ليلى" تشبه القاهرة التى لا تحتمل مدينة أخرى معها. و"ليلى" لا تحتمل امرأة أخرى معها. كنت أتأملها وهى تناصب الأخريات عداوة غير مبررة، عداوة مقنعة دائما بتعليقات حادة تصل إلى غياب اللباقة. لماذا اعتبرت نفسى بمنأى عن هذه العداوة، فالطريق الذى ندخله لابد أن نصل إلى نهايته الخاطئة، كما يحدث لى فى شوارع جاردن سيتي. أدخل الشارع لأكتشف أنه اتجاه واحد فأضطر إلى إكماله لأعود إلى نقطة البداية.

تلجأ "ليلى" إلى أقدم حيلة ابتدعتها النساء بمساعدة الرجال وتشجيعهم. تناصر "ليلى" منطق الذكورة والقوة والسلطة. وكلنا نعرف أن النساء المعارضات لهذا المنطق موصومات - دائما وأبدا - بالشبهات وهن المكان المناسب الذى تجد فيه المخيلة كل الحكايات الشيقة والأساطير الشبقة. والحقيقة أنه لابد أن أنصف "ليلى" وأقول إنها ليست الوحيدة التى وقعت

فى هذا الفخ، فقد سبقتها الكثيرات من قبل، ولم تفعل "ليلى" سوى محاولة تقليدهن علها تحظى ببعض المكاسب.

أكثر ما تخشاه "ليلى" هو المواجهة، ترتعد منها وتهتز أعصابها إذا لاحت فى الأفق. حدث أن واجهت "ليلى" ووقفت أتأملها مرة أخرى فى موقف مختلف، كانت تتلوى وتنطق بأشياء غير مفهومة، ثم تنسى ما قالته، ثم تعيده مرة أخرى ثم تلجأ إلى جمل العجز "بكره تفهمى". بمجرد أن اشتعلت نيران حياتى فى ليلة مظلمة بائسة كنت قد فهمت بالفعل ورأيت كل الأحجام الصغيرة للغاية التى سقطت ولم ألحظ سقوطها لشدة صغرها. عجيبة كانت تلك الفترة،يتهاوى فيها العشرات من الأشخاص علانية دون خجل أو مواربة. لكن هؤلاء لا أحمل تجاههم أية ذاكرة، لأنهم لم يتواجدوا بداية. فقط أشفق عليهم، كثيرا. ولحقت بهم "ليلى" فى الهاوية.

وعندما سقطت من ذاكرتى تماما شاهدتها بالصدفة فى ندوة مع "عالية". لم أتعجب بل ابتسمت ابتسامة مشابهة لابتسامة "ليلى". امرأتان معجونتان بالهيستريا وعند كره النساء تتفقان. هذا لقاء القمة. كان الحوار بينهما مليئا بشبه جمل، أو جمل مقطوعة وأحيانا كانتا تتكلمان فى نفس الوقت وتأبى كل واحدة إفساح مجال للأخرى، بل تحاول خنقها بتلوث القاهرة المتغلغل فيها. ماذا تفعل القاهرة بنسائها، وكيف تتآكل روح رجالها؟

ألسنة القاهرة لا تصمت، واليوم ينقضي فى تنافس على الحكى، تمر سنوات فى محاولات واهية لإثبات أوهام. يقضي أهل القاهرة نصف حياتهم فى محاولة لرسم صورة غيرهم، على أمل أن يرسموا أنفسهم، وتنتهى حياتهم بتشويه الكل. نار الذاكرة تفتح على ماكان ولم يعد والذاكرة تنفتح على أشباح غابت وجوهها ولم تغب أفعالها. وكثيرات وأخريات يشعلن ذاكرة النار، هناك مليون "ليلى" ومليون "عالية"، كل الأخريات نسخة مكررة منهن، ماذا أفعل بتلك الأشباح؟ كيف أفتح ذاكرتى دون مواجهة سيل من الزيف الحارق فى برودة برلين؟ كيف أتعامل مع ذاكرة لم تمر بالحكي، لم أحك أبدا.

أخرج للمشى ليلاً فى شوارع برلين حيث البرودة تجمد أطرافى وحيث لا أحد يبالى بى ولا نظرة واحدة تربكنى، ودخان أبيض يخرج من فمى مع كل زفير وكأن النار تبقى متقدة إلى الأبد، أقول لنفسى بصوت عال فى شارع يكاد يخلو من المارة "أنا لست غاضبة، أنا الآن بعيد هناك - هنا"، ثم أدركت أننى أكرر خطأ كل من قطع هذا الطريق قبلى، إذ نعتقد دائما أن الجغرافيا تلغى التاريخ، والحقيقة أن التاريخ والذاكرة ينتعشان كلما طالت المسافة وبعدت، فكلما بعدنا كلما رأينا، وكلما رأينا كلما تألمنا، وكلما تألمنا وانصهرنا كلما تعلمنا وارتقينا - لست متأكدة من الأخيرة، فلم أصل إلى حرف واحد أتعلمه مع كل هذا الألم -.

ذاكرة الألم

كان لابد أن يحدث كل هنا، كان لابد أن تزلزل المشاعر زلزالها، وتخرج النفوس أوهامها وأن أتساءل أنا مالها، كان لابد أن أمر عبر صهد فرن الوجع لأعبر الناحية المقابلة، العبور لا يتغير أبدا، يستلزم نفقا موجعا يربط بين ضفتين فقط عندما عبرت تمكنت أن أقول: كان يا مكان.

كان لابد لى أن أحاول تهدئة دقات روحى عندما قرأت رسالتك الأولى والأخيرة، تلك الرسالة التى كتبتها بخط يدك ذى الزوايا الحادة المتعسفة، الخط الذى يهتم بوضع النقاط قبل الحروف كان لابد أن أعثر على الرسالة وأعيد قراءتها بتأنى لأستعيد كل لحظة ألم وعجز، كل لحظة دفعتنى لحو ممر لم أر منه سوى عتبة غير ممهدة، خطوة غير محسوبة. كانت لحظة اخترت أن أجمد فيها عقلى واندفعت نحو ممر بدون معالم، كانت كلها معالم فى مخيلتى ترسم صورة أب وأم وأطفال. حتى آخر لحظة كنت أقاوم الخروج من كادر الصورة المرسومة مسبقاً. هكذا نحن النساء اللواتى ينتمين إلى مكان مبهم، مكان يقترض فكرة من كتاب، وفكرة من فيلم، وفكرة من طبقة، وفكرة من مبدأ، وفكرة من الخيال، وفكرة من الواقع، وفكرة من الممكن، وفكرة من موقف، وفكرة من فكرة.

(أفكار نلضمها بدبابيس مشبك لنقدم أنفسنا للعالم فنتحول إلى ما يشبه المحل الذى يبيع شامبو وملاعق وبهارات. فى الثلث الأول من عمرنا نبذل مجهودا خرافيا لشرح هذه الأفكار ولنحصل على مكسب العودة إلى المنزل متأخرين عن الميعاد المفترض نصف ساعة، وفى الثلث الثانى نحارب أنفسنا لنتواءم مع نفس الأفكار ونحارب الآخرين لنقنعهم بها، وفى الثلث الأخير نقرر أن ننسحب. من المعركة بهدوء ونخرج للعالم بآثار كحل فى العينين وحمرة شفاه خفيفة ونفكر فى الوقت الذى مضى فجأة ولم يمهلنا لنمارس أفكارنا بدلا من الكلام عنها. فى الثلث الأخير نعلن عن أنفسنا بدون رتوش، وبلا مبالاة فجة، وبهدوء مبالغ فيه، وبمنتهى عدم الاكتراث. فى الثلث الأخير نستكين لفكرة الاختلاف الذى كان يرعبنا، ذاك الرعب الأبدى أن نكون مرفوضين أو موصومين أو فاشلين فيما نجح فيه الآخرون. فى الثلث الأخير نصرح بما نكرهه ونتمسك بكل ما نحبه، الوعى الرهيب بالزمن، الوعى بليال خاوية من أحلام وبليال مزدحمة بصور سخيفة، ونبدأ اليوم وخير يا رب...)

لا نرى مطلقاً الجانب المهنى فى الأصدقاء، بل نراهم فقط كأصدقاء، حتى ننتبه فجأة لكل مالم نره من قبل. قررت مراسلة "عماد" صديقى الذى يعمل فى الطب النفسى على البريد الألكترونى. قلت له "إن الغضب يوشك أن يقتلنى وإن النار تأتى على الأخضر واليابس"، كانت جملى مهترئة كعقلى

الذى لم يرغب سوى فى الانفجار. لم يتأخر الرد على رسالتى، جاء واضحاً وقاسياً كما غضبى تماماً. "بالتأكيد كان لك دور فى هذا الألم... كنت أنانية أردت الحصول على الحب دون مقابل... ولماذا يجب أن يحبك الجميع"، ثم أنهى رسالته بما أسماه ثلاث "أخطاء طفولية شائعة": الأولى: (لابد أن يحبونى جميعا)، والثانية: (العالم يجب أن يكون كما أظنه)، أما الثالثة: (لابد أن يعاملنى الآخرون كما أعاملهم). هكذا يجب أن أسير دائما على الحدود الفاصلة بين واقع وتوقع، بين رغبة وانفجار، بين أمل وإحباط. حاولت أن أفكر كثيراً فى ذاك السؤال الأبدى "ما دورى فى جلب الألم؟" أزحت السؤال جانبا بشكل مؤقت حتى أستوعب اللابدات الثلاثة ربما أتعلم حرفاً.

مع الأيام الباردة فى برلين، انطفأت نار مفسحة مكانها لنيران أخرى، نيران الروح الملسوعة من قصص حب واهمة غائمة تأرجحت فيها بين واقع وخيال فى محاولة للحصول على أمان ملفق. فى وسط هذا البركان المحموم تصلنى رسالة من "مصطفى":

"كل المطارات موحشة ولكن مطار القاهرة بالنسبة لى على الأقل أكثرها وحشة سواء عند الرحيل أو عند العودة، عند المغادرة أو عند الوصول، عند الوداع أو عند الإستقبال - للمرة الأولى أنتبه لدلالات الألفاظ - ربما لأنه فى الحالتين يضعك مباشرة فى مواجهة حياتك التى تركها

أو التى تعود إليها. وبالنسبة لى - على الأقل - فإن هذه المواجهة هى آخر ما أتمناه. فى تلك الليلة وأمام السلك الفاصل بين الراحلين/ المغادرين وبين المودعين، اكتشفت أن العائلة هى الحمل الذى يحنى ظهورنا، وهى فى نفس الوقت الحائط الذى نستند إليه عند الشدة التى كانت وبالتعريف مجرد حالة استثنائية وأصبحت بالواقع حالة يومية، وأن العائلة لم تعد فقط الأب والأم والأخوات ولكنها تتسع وأحيانا تضيق إلى الذين تركوا بصمات أصابعهم على القلب الذى كان يوما ناصع البياض وأصبح مع مرور - أو بالأدق - مع عدم مرور العمر مثل حجرة استخراج البطاقات فى السجل المدنى القديم. على الحوائط بصمات كثيرة لم يبق منها إلا بقع سوداء لا دور لها إلا تلويث المشهد كله بزفت لايزول، وبينها بصمة واحدة أو بصمتان تحتفظ بكل خطوط الإصبع وتدل على صاحبته سواء غادرت أوبقيت. وحشتينى يا بنت ال....".

هل كان يجب أن أقطع آلاف الأميال يا "مصطفى" لتكتب سطراً واحداً. الجغرافيا تؤكد التاريخ، الجغرافيا كالمصفاة، تبقى الحقيقى وتلقى بالزائف فى سلة مهملات القاهرة. برلين مصفاة. أعجبنى التشبيه.

ذاكرة مورقة

برلين أيضاً عدسة تكبر الأشياء وتصغرها طبقاً لقدرها. وكما كبر الألم إلى درجة تفوق الاحتمال، كبرت أيضا تلك اللحظات التى تمرغت فيها فى حب أصدقاء وصديقات آخرين. ولم أكتب الألم فقط؟ فى كل ليالى برلين الموحشة، كنت أعود بمفردى إلى الغرفة لأجلس بالقرب من المدفأة كى تعود الحياة إلى أطرافى، أبحث عن شىء آكله فأكتشف أننى لم أطه بحجة أننى وحدى ثم أحاول النوم فأتوهم سماع أصوات فى الغرفة، أضىء النور وأجلس أمام شاشة الكمبيوتر حتى يجىء النوم منهكاً ومتعباً من كثرة نزاعى معه.

فى كل تلك الليالى تمنيت تلك الصحبة القاهرية التى جمعتنى بـ"نهى" و"سمر" و"جميلة" و""سميرة" و"غادة" و"هاجر" ومعنا "مصطفى" و"كمال" و"سارة" و"شهاب". لم أنجح يوما فى إدخار أموال ولا شراء عقارات، بل فشلت بشكل يثير الضحك، فقط نجحت فى بناء حائط حب صغير أستند عليه كلما تلقيت ضربة موجذعة، ولأن الضربات كثيرة تأتى من أماكن أكثر فقد استندت دائما على هذا الحائط. حائط بنيناه معا دون أن ندرك أنه كل ما سيبقى لنا. حائط يصمد رغم كل سخافاتنا وحماقاتنا

اللامتناهية، ورغم المضايقات التى نمارسها على بعضنا البعض، ورغم كل عدم اللباقة التى تقفز فى جملنا بدون سابق إنذار.

فى الليالى المتأخرة أضع رأسى فى حجر "نهى" ونضحك من القلب حتى تدمع عيوننا. تأتى "نهى" من الحى السابع بمدينة نصر حتى وسط المدينة حيث أسكن بشارع شامبليون لترانى. ولذلك فهى دائماً متأخرة عن ميعادها بما لا يقل عن ساعة ونصف. لا يشفع لها إلا صراحتها الصادمة حتى أننى جفلت عدة مرات منها إلى أن وقعت فى حبها، هذا الصدق مطمئن وداقئ رغم قسوته الظاهرة. "نهى" منغمسة فى السياسة من رأسها حتى قدميها، تحلم بالتغيير والديموقراطية والعدل وتشتبك مع "كمال" فى نقاشات طويلة، تتابع معظم الندوات والمؤتمرات وفى نهاية الأسبوع يعاودها النزيف وتقول "انا مكتئبة". أعرف هذا الإحساس بالعجز لكننى أحاول أن أحول الموضوع إلى نكتة وأقول لها إن كل هذه الندوات بمن فيها من وجوه متجهمة ومستفزة لابد أن تصيبها بالاكتئاب، ودائما ما أسألها عن سبب عدوانية النساء المتواجدات فى تلك الندوات. لكن "نهى" لا تتنازل عن الحلم أبدا، الحلم الذى بدأته منذ أن كانت طالبة فى نهاية السبعينيات، وعندما أشعر بالغيظ من مثاليتها الزائدة أقول لها بانفعال: "يا بنتى إنتِ من القرن اللى فات، ديموقراطية إيه؟ إنتِ لسة فاكرة؟ ده احنا ما نجيش على بعض خمسمية". تبتسم بارتباك وأحياناً يحمر وجهها وتقول: "معلهش،

معلهش يمكن". كانت "نهى" آخر من يغادر المظاهرة وأول من يذهب وأول من يتضامن حتى أننى كنت أشعر بالذنب أحياناً عندما أتغيب لأنجز عملاً ما، ودائما كعادة القاهرة أدارى شعورى بالذنب عبر الضحك فأقول لها: "إنت وكمال صوت الضمير الحى". تقول "آهه بنحاول، لازم نراكم فى الطريق ده". حالة أنت دائماً يا "نهى"، أتابع أخبار القاهرة من برلين ولا أجد بصيص أمل واحد، وقائع التعذيب تثير الغثيان.

"نهى" لا تجيد الرقص لكنها عندما تدخل فى حالة الرقص تتألق وتنغمس فيما تفعله تماما، حتى أن إنها يشعر بالغيرة عليها! يجذبها من طرف ثوبها أو يلح فى طلب ما فتفيق هى وتقول:

- عاوز إيه يا حبيبى؟

- عاوز أروح.

- طيب نقعد شوية.

- لأ، باقول لك عاوز أروح... تعبان الله.

ولا تملك "نهى" إلا أن تلملم بقايا روحها المتألقة لتخضع لابنها. فى تلك اللحظة تتكشف كل آلام "نهى"، ابن أنانى، مصاريف فوق الاحتمال، نزيف لا يتوقف، حياة لم تعطها ربع ما حلمت به، ووظيفة حكومية فى وزارة الشئون الاجتماعية أوشكت أن تصيبها بالانهيار. لا أملك سوى أن أحتضنها وأقول: "تذكرى أننى أحبك كثيراً". فى اليوم التالى تفاجئنى "نهى"

بمكالمة تطمئن فيها على الصداع الذى أصابنى الليلة السابقة! ثم تصمت برهة وتسأل "شكلك كان متغير امبارح. كان فيه حاجة؟" مثل "هاجر" تماماً التى تقول نفس الجملة كلما تقابلنى. تعيش "نهى" كل حياتها مؤجلة. ظللت عاماً كاملاً ألح عليها فى الذهاب لطبيب لتفهم سبب ذلك النزيف الدائم، وكانت دائماً ما تأتى أجوبتها مكررة "غداً، الأسبوع القادم، لابد من الحجز، بعد أن تنتهى امتحانات الولد"، لكن يبدو أن الأمر كان قد ازداد بشكل ملحوظ إذ أخبرتنى فجأة أنها ذهبت لطبيب مستوصف مسجد "رابعة العدوية"، وكتب لها روشتة طويلة وأنها بدأت تتناول الأدوية. سألتها عن التشخيص الذى قدمه أو سبب النزيف فقالت: "بيقول توتر". كلما أقابلها أسألها عن الأدوية فتؤكد أنها ملتزمة وأن الحالة تتحسن، لكن ما حدث بعد ذلك كشف الأمر كله. كانت بمقر عملها تراجع أوراقاً قدمتها مجموعة من النساء الناشطات اللواتى يعتزمن تأسيس جمعية، وكانت تجلس قبالتها على المكتب واحدة منهن وهى التى تعرف "نهى". ويبدو أن "نهى" شعرت أنها ليست على ما يرام فاستأذنت السيدة فى الذهاب لدورة المياه. قامت "نهى" من خلف مكتبها واتجهت نحو الباب فصرخت تلك السيدة الجالسة عندما شاهدت بنطلون "نهى" الأبيض وقد تحول إلى أحمر! فما كان منها الا أن حملتها فى سيارتها واتجهت إلى المستشفى فوراً. كانت "نهى" تحاول أن تتخلص من إلحاحى الدائم فأوهمتنى أنها ذهبت للطبيب.

مدونـــــــة رفايـــــع

جميلة بالفعل "جميلة". أضحك لضحكتها المجلجلة فى كل وقت، وكأنها أصبحت مثل أهل القاهرة، تضع كل مشاعرها على موجة الضحك رغم أنها تحمل الهم القديم الجديد، هم فلسطين تضحك فنضحك معها، تبكى فنصمت احتراماً لمشاعرها. صحة "جميلة" تتدهور يوما بعد يوم، سكر.. ضغط.. التهاب فى الأعصاب.. اضطراب فى ضربات القلب، تضحك وأرتجف أنا من فكرة غيابها، تعشق "جميلة" الحياة إلى النهاية وترفض الخضوع للمرض وتقول "أكره فكرة أن أكون مريضة"، فأجيب "ومن الذى يحب الفكرة؟ يومين بس، يومين فى البيت". ينقبض قلبى فأتصل بها من برلين، بمجرد أن تسمع صوتى تقول: "اقفلى اقفلى، أنا هاكلمك"، أجيب "أنا بكلمك أهه يا جميلة" تصر "لأ، اقفلى أنا هاكلمك". أمام إصرارها أغلق الخط وأنتظر. تعاود الاتصال وتقول "أيوه، كده الصوت واضح". كل مرة تستخدم نفس العذر لكى تجنبنى إجراء المكالمة. أول مرة تبادر بطلب شىء كان الدواء الذى تتعاطاه، وعندما طلبته فهمت أن المرض تمكن منها. بمعجزة صغيرة حصلت على الدواء، وأنتظر معجزة شفاء "جميلة". أثناء الانتظار تهاتفنى وتلح على أن أزور مرسمها بحى الحسين لأشاهد آخر لوحاتها. أستقل سيارة تاكسى لتجنب البحث عن مكان لسيارتى وأصعد سلم منهالك وقبل أن أصل للباب تفتح "جميلة" الباب وتقول: "بتعرفى شو.. قلبى حس إنو هايدا إنتِ". تفسح لى مكاناً للدخول فتطالعنى اللوحة مباشرة. لوحة كبيرة تحتل الجدار بأكمله. "اشتقت كتير لفلسطين، قلت يلا ارسمها". لوحة

مرسوم عليها خريطة فلسطين الأصلية، وتموج بأسماء المدن والقرى والبلدات الصغيرة: بيت ساحور، دير ياسين، يافا، عكا، كرمة الناليا، بيت حانون، جنين، غزة، رام الله، بيت جالا، القدس...

تنغمس "جميلة" فى الرسم وتشيد فلسطين وبيوتها بالفرشاة، تريني لوحة أخرى وتقول "هذه رام الله"، ألوان "جميلة" ملتهبة كأعصابها تماما، ولوحاتها تموج بالحوارات والقصص والحكايات. ورغم أن كل لوحة تتجاوز التفاصيل الصغيرة ولا تعيرها اهتماما كبيراً إلا أن الإحساس يصل واضحاً، مجنجلاً كضحكة "جميلة" تماماً. تجاوز التفاصيل هو ما جمع بينى وبين "جميلة"، أنظر إليها أثناء أية مناقشة محتدمة بين اثنين ويبدأ التواطؤ فورا. كلما تزعجنى التفاصيل أتأمل اللوحة التى أهدتها لى "جميلة" وأهيم فى جمال اختفاء كل التفاصيل خلف ضربات فرشاة مجنونة، وخطوط متداخلة، ومناطق يصعب الفصل بينها. لم تكن التفاصيل مهمة أبدا. فى النهاية حياتنا ليست سوى تفصيلة واحدة متكررة.

من تحدث عن التواطؤ؟ "غادة" تسخر منى دائماً وتقول إننى أتآمر ضد نفسى! يتفق معها "عماد" ويؤكد أننى "عبيطة وهبلة"، كلما يقول هذا أرتبك وأقول: "بس يا قبطى، إدفع الجزية اللى عليك وبعدين اتكلم"، يجيب "عماد" بابتسامة رائقة: "سأدفع كل ما تريدين، لكن هذا لا يلغى إنك

عبيطة وهبلة"، ننفجر فى الضحك وتوافقه "غادة" بنظرة العارفة للأمور. "غادة" عارفة إلى حد ما، لكنها لا زالت تبحث عن الحب الحقيقى الذى سيغير مسار حياتها كما الأفلام تماماً. إذا أحبتك "غادة" فلك النعيم وإذا انقلبت عليك فالمصير هو الجحيم. أحبتنى "غادة" من قبل أن تتوطد علاقتنا وأحببت ضحكتها الصافية وروحها المتقدة دائماً رغم إيقاع خطوتها البطيئة. مشتعلة "غادة" دائماً مثل قلب الصعيد الساخن الذى جاءت منه، ويملكها الغيظ من "نهى" التى لا تفعل شيئا حيال مشكلها الشخصية. لا تمر لحظة دون أن تبدى "غادة" استعدادها للتضامن، وإذا لاحظت أننى متجهمة قليلاً تقول "قولى بس مين اللى زعلك؟"، أختار أحد الأشياء من جعبة الزعل وأقول لـ"غادة": "بسيطة، معلهش". تنتفض وتقول "لأ، مش بسيطة، وما فيش حاجة اسمها معلهش، مش لازم تكونى مؤدبة مع كل الناس. كونى نفسك، إنت مش مضطرة تجاملى أى حد". حتى أنها لم تجامل "كمال" صديق عمرها - عندما كان متوتراً بسبب انتهاء علاقته مع "سارة". لم يصدق "كمال" أن القصة انتهت، فواجهته "غادة" بالحقيقة المؤلمة، وكانت ترى أن ذلك فى مصلحته، كانت تستفزها كل محاولات تهدئة "كمال" وكانت تعتقد أنها محاولات تقوده إلى الانهيار. حاولت يا "غادة" أن أكون أنا، نجحت فى أحيان وأخفقت فى أحيان أخرى، ولذلك أحببت "غادة"، فهى دائما هى. عندما زارنى "عماد" فى برلين أرسلت لها كارتا بمناسبة عيد ميلادها الرابع والثلاثين وكتبت فيه "كل سنة وإنت كما أنت لأنك رائعة

هكذا". ولأن "غادة" نفسها دائما فطبيعى أن تكون آلامها لا تحصى فى القاهرة التى تأبى أن تكون أنفسنا. فى العمل ينظرون إليها باعتبارها الشيطان الأعظم، فهى دائما شاردة وعندما يعترض أحدهم تقول: "كل الشغل ده وهم، تأدية واجب، ده شغل أى كلام"، وهى تعلن دائما غضبها من "تخلف الناس" كما تقول. ولا تفهم ما الحق الذى يجعل الرجل يعتبر زوجته ملكية خاصة. وبعد عدة سنوات من هذا الكلام لم تعد القاهرة تحتمل آراء "غادة" خاصة فى مدرسة حكومية، كل يوم تذهب "غادة" إلى العمل بوجه مكفهر ومتربص، تلقى بآرائها فى الوجوه فيبادلونها مزيدا من القمع والاستبعاد. كلما أقابلها تقول: "أنا خلاص قررت أحصل على إجازة بدون مرتب، أنا مش لاقية نفسى خالص"، ولا تفعل. حتى حدث ما جعلها تصر على المغادرة. كان عيد ميلادها قد توافق مع يوم الجمعة واحتفلنا جميعاً به. وفى صباح اليوم التالى توجهت إلى المدرسة الكائنة بشارع "يوسف الجندي" وكما تفعل كل يوم طلبت كوباً من الشاى واحتسته مع الساندوتشات التى تحضرها معها من المنزل، وبعد قليل وجدت مجموعة من المدرسات يتوافدن عليها بالحجرة فخمنت أنهن يردن كتابة طلب إجازة مثلاً. بعد السلامات والتحيات المكررة والباردة قامت واحدة منهن وتوجهت نحو "غادة" وهى تحمل فى يدها علبة ملفوفة بورق هدايا وقبلتها وقالت لها أن الهدية جماعية بمناسبة عيد ميلادها. فرحت "غادة" لأنهن تذكرن عيد ميلادها وشكرتهن على تلك اللفتة ولكن كبيرتهن قالت أن هذا تقليد بدأنه

من حوالى شهرين مع كل مدرسة وموظفة فى المدرسة، وأن أعياد الميلاد يتم معرفتها من وكيلة المدرسة. لم تفهم "غادة" مغزى كل هذا الشرح وكررت شكرها مرة أخرى. اقترحت المتحدثة باسمهن على "غادة" أن تفتح الهدية. ارتابت "غادة" فى الأمر، فقد كانت تخبرنى أن هذه السيدة تخيفها بملامح وجهها القاسية، ونظراتها الحادة وصوتها الأجش. كنت دائماً ما أضحك عندما أستمع لهواجس "غادة" وأتأكد أكثر أن نصف العالم يحدث فى مخيلتها. لكن يبدو أن "غادة" كانت على حق تلك المرة. فعندما فتحت العلبة وجدت عشرة شرائط مكتوب عليها "عذاب القبر". ومن هول المفاجأة صمتت تماماً، وقالت لها السيدة المخيفة، "هذه الشرائط لابد أن تستمعى لها جيداً، وعندما تتعظين ستكونى ولدت من جديد. عندئذ يكون عيد ميلادك الحقيقى. ربنا يهدى إن شاء الله". لم تذهب "غادة" للمدرسة فى اليوم التالى، وبعد أسبوع كامل من الغياب طلبت إجازة بدون مرتب. وحين نفذت قرارها أخيراً والتحقت بمشروع خاص مؤقت عن المناهج التعليمية فى مؤسسة أهلية، أشرق وجهها وتغيرت نبرة صوتها وبدأت تنتبه لصحتها التى كانت قد أهملتها. أهاتفها من حين وأقول لها "وحشتنى اللمة معاكِ"، وأسألها عن أخبار الجميع، ما زالت مغتاظة من "مصطفى" لأنه "نايم فى العسل نوم وفاكر الناس بتشتغل عنده"، وتنسى "غادة" أن إيقاعها مماثل لإيقاع "مصطفى" وأنه احتاج خمس سنوات ليكتب لى سطراً على الكمبيوتر. أتجاهل كل غيظ "غادة" من "مصطفى" لأنها تنشغل به كثيراً

وتسأل عنه كلما أتيحت لها الفرصة. أتجاهل الأمر كله وأتعلم منها حين تغلق المناقشات السياسية المتأزمة بجملة عبثية "تانى هنقول مين اللى سرق العامود؟" رغم كل تلك القوة المفتعلة لا تحتاج "غادة" أكثر من كلمة أو نظرة لا تفهمها لترسلها فى أطول سلسلة هواجس ومخاوف.

ذاكرة تفتح على أوراق حب وعشرة، أوراق صدق بدون حسابات، ذاكرة كالأوراد كلما استعدتها تتملكنى القوة. وكلما تهبط درجة الحرارة فى برلين إلى ما تحت الصفر أفتح الذاكرة لأشعر بالدفء، وكلما أشعر بالدفء كلما يزداد الحنين. كلما تزداد البرودة كلما عبرت روحى الحدود وفى العبور لا أقابل أية صعوبات، جاءت الصعوبات فيما بعد. التضاريس ليست وعرة بل سهول مفتوحة من الوضوح والحب مثل "سمر" تماماً، سهل مفتوح حتى لتعتقد أنه خداع البصر. هناك عدة مشاهد تحكم العلاقة بيننا. ذاك اليوم فى أكبر قاعة بجامعة القاهرة كان "إدوار سعيد" يلقى محاضرة وكنت قد دعوتك لتستمعى لها. تمكنت بحيل محولة أن تحصلى على إذن بتغيب ساعتين من المركز القومى للبحوث، وجئت فى غاية الأسى... "تصورى يا عيشة، أنا مضطرة أكذب فى الشغل علشان آجى أسمع محاضرة فى صميم الشغل بتاعى. قلت لهم خارجة فى بحث ميدانى وألفت قصة طويلة. حاجة تغم". لا أذكر ما الذى حدث وجعلنى أفتح مفكرة المواعيد الخاصة بى، كانت ممتلئة عن آخرها - غالباً ما كانت مواعيد لا قيمة لها - ونظرت أنتِ خلسة وقلت

لى "very impressive". كاد قلبى ينفطر يا صديقتى لأننى أعرف ما تعانيه من ظلم وغبن وقهر ولم أملك سوى الغضب من أجلك. كل أربعاء تأتين بعد أن ينتهى عملك وتقضين معى ساعة فى تلك الحجرة الصغيرة المهملة فى القسم التى ليس بها سوى نافذة واحدة تطل على نخلتين باسقتين، تحكى أنت عن الوجع وأنا لا أقول سوى "مش معقول كده، لازم تعملى حاجة". كنا صغيرات وغاضبات وكانت قوانين القاهرة هى ناموسنا فى الدنيا، ولذلك عندما سلبوا منى الحجرة -وهو الجزء الذى لا تعرفينه - أقمت مناحة لسكرتيرة القسم، فهى الحجرة التى شهدت الكثير من الدموع والحكايات ودخان السجائر. قبل أن أغادر القاهرة توجهت إلى هذه الحجرة واستعدت كل مخارج الحروف المؤلمة التى كانت تأتى بك فى طريق طويل مليء بالمنغصات من جنوب القاهرة. وعندما تمردت على أشد قوانين القاهرة قسوة نجحت فى المرور برحلتك الجبلية الصعبة، ظاهرها الرحمة من قسوة رجل وباطنها العذاب من مواجهة نفسك والقاهرة. حتى أنك انتقلت إلى شمال القاهرة. لكن القاهرة رأفت بحالك، فحولتك إلى فراشة تطير ولا تحط أبداً، إلا عندما سافرت وعدت أكثر نقاء وأشد وضوحاً. عدت "سمر" النقية بعد أن مررت بتلك المرحلة الضبابية الغائمة. كنا نسألك "مالك يا سمر؟" ودائما كانت الإجابة "مطحونة فى الشغل، مفرومة والله". عدت يا "سمر" بعد غياب لتشهدى رحلتى الجبلية الصعبة، لتشفعى لى عند القاهرة إذ ربما ترأف بحالى كما فعلت معك من قبل.

"سميرة" ذات الأربعين من العمر تبدو وكأنها فى الثلاثين، فارعة الطول ومغرمة باللون الأحمر. وعندما انخرطت فى تنظيم سياسى فى الثمانينات لم تتنازل عن عشق اللون الأحمر، وبمنتهى الثقة ارتدت جونلتها الحمراء القصيرة فى إحدى الاجتماعات، ونبهها المسئولة وقالت لها "ألا تخجلين مما ترتدينه؟" عينا "سميرة" لا تستقران أبداً فهى أكثر من تلتزم فينا حرفياً بقوانين القاهرة. أردت دوما أن أقول لها إن القاهرة ترى ما تريد حتى لو تشبهنا بالسيدة "مريم". فنحن حفنة من النساء اللواتى يرتعد أمامهن الآخر فيلقى عليهن كل بلائه.

"سميرة" تعشق الحب، حتى أننى دائماً أرتبك أمام أى شريك لها فى العلاقة، لا أتمكن من تحديد إن كانت "سميرة" تحب الشخص بعينه أم أنها تحب الحب. قضت "سميرة" عشرين عاماً من حياتها فى النضال وتقاطعت مع "نهى" فى منعطفات كثيرة. بعد أن تخرجت عملت بهيئة التأمين الصحى ولكنها لم تعشق سوى الكتابة. لم تدرك أبداً أن القاهرة تميل إلى التصنيفات التى لا تسمح بأكثر من دور واحد، وهو ما جعلها فى إحدى المرات تشعر باليأس التام وتعتزل الكتابة. ثم عادت "سميرة" إلى الكتابة. المشكلة أن "سميرة" تكتب بدمها ودموعها، تعيش أقدار الشخصيات حتى النهاية وعندما تموت إحدى الشخصيات تبكى "سميرة" كثيراً، وتقول: "ما كانش يستحق الموت"، أجيب "إنتِ اللى قررت تموتيه"، فتقول: "ما هو كان لازم يموت"! دأبت "سميرة" على اختفاءات مريبة وانقطاعات غريبة. فكما

تظهر فجأة تختفى فجأة، هاتف المنزل لا يجيب ورسائل المحمول لا تؤثر فيها. أغضب وأقول لـ"نهى": ""سميرة" عمرها ما هتتغير، أنا زهقت بقى من الحركات دى". تسارع "نهى" بالاتصال بها وتخابرنى "سميرة" فى اليوم التالى لأكتشف أنها كانت فى البلد لأن جار عم زوج ابن خالتها قد مات وكانت لابد أن تتواجد فى العزاء، وهكذا حتى تحول الأمر إلى نكتة فكلما تختفى "سميرة" نعرف أن هناك شخصا لا تعرفه "سميرة" قد مات فى البلد. ولكن هذه هى الحساسية البورجوازية لدى "سميرة" التى نلتقى فيها معاً، فعلى الرغم من كل الدروس التى ألقيها على "سميرة" يبقى أهل القاهرة هم الجمهور الذى أراعيه دائماً (ربما تضحكين أنتِ الآن يا صغيرتى من الدروس التى طالما استمعت إليها) وأنصت له وأخرج من كلماته وأحصى أنفاسه، ولم يتغير الأمر فى برلين كثيراً فقد غادرت القاهرة ولكنها لم تغادرنى. يمتد التواصل بينى وبين "سميرة" فى نفورنا من النساء الشرسات العدوانيات، والقاهرة تموج بهن. هؤلاء النساء اللواتى يكرهن الأخريات "غير المناضلات" اللواتى يلقين بالا إلى مظهرهن، فيضعن أحمر شفاه أو يطلين أظافرهن على استحياء أو يبدين سعادة ما، هؤلاء (أى نحن) نساء خائنات "غير ملتزمات"، والأمر بالطبع لا يتعدى كوننا لسنا جزءاً من شلل قاهرية بعينها ادعت لنفسها الوصاية وملكية أعلى طبقة صوت وأشد أشكال العدوانية. أنفر أنا من هؤلاء النساء وأشعر بالرثاء من أجلهن، أما "سميرة" فترتعد من رؤيتهن. الخوف من أهل القاهرة يتحكم فى "سميرة". فى ذات مرة قالت إن

واحدة منهن تذكرها بكاكوس، وعندما سألتها "غادة" بعينين لامعتين عن معنى الكلمة، قالت "سميرة" بهدوء شديد إن الكاكوس هو "حيوان خرافى فى الأساطير الإغريقية له خلقة بشعة وعينان مشتوقتان بالطول وفم يخرج لهب"، حتى اليوم مازالت هذه الكلمة تضحكنا وأصبحت تختزل الكثير من الكلام.

لكننى التقى أيضاً مع "سميرة" فى كل التصرفات الصبيانية التى تجعلنا نتخلى مؤقتاً عن وقار القاهرة وعن حرفية قوانينها. فندخل مثلا إلى حمام المكان العام الذى نجلس فيه لنرقص أمام المرآة على موسيقى وهمية، تفاجئنا "نهى" وتقول "العيال اتجننت" فترد "سمر": "هو فيه أحلى من الجنان"، أو مثلا أقول ما لا يجب قوله أمام شخص فتقرصنى "سميرة" فى ركبتى لأغير مجرى الحديث فوراً. ورغم كل خفة ظل "سميرة" تبقى آلامها محفورة فى ذاكرتها منذ أن صدقت مثالية زوجها الأول وتلقت طعنات أقرب الصديقات.

أما أنت يا "روضة" فحكايتك بلا بداية ولا نهاية تماماً مثلنا كلنا، لم نعرف متى بدأنا ومتى سننتهى. كل ما نملكه حكى عن بدايات كثيرة ووهم نهايات أكثر. كل ما أعرفه عنك الآن هو قدرتك المذهولة على تكوين ثروة عظيمة فى أقصر مدة ممكنة. عرفتك وأنت فقيرة تماماً، فى الابتسامة والكلام والأكل والشرب والصوت والوجود والتعبير، ثم بدون أية مقدمات تحول

هذا الفقر المدفع إلى تلال من الثروة، رغم كل التوقعات التى خيبتها لك والتى لم ألتزم بها لأنها كادت تخنقنى. كان لديك موديلا فى رأسك تريدين رؤيته متحققاً فىّ، وبمجرد إدراكى لهذا بدأ الغيظ يفتك بى. احتجت وقتاً لتتنازلى عن هذه الموديلات وتقبلينى كما أنا. فقط بقيت لنا مشكلة واحدة لم نحلها: رغبتك المتقدة فى إظهار مشاعرك التى تساوى تماماً قدرتى العظيمة على إخفائها... وما بين الإعلان والإخفاء ننسج كل أشكال التواطؤ.

ذاكرة طالبة صامتة

"روضة" طالبة. تعرفت عليها وهى لاتزال طالبة صامتة مذعورة. الخوف كان يسبقك دائماً ويقدم لك، كنت تفسحين له كل المجال وتتنازلين له عن كل الهواء ليتربع على عرش كل تفصيلة تأتين بها. الصمت هو مسكنك حتى يخال من أمامك أنك فى شدة الغباء لكونك لا تفهمين حرفاً أو أنك مثلاً خرساء لم تواجهين الأبجدية بعد. طالبة صغيرة مذعورة تحفظ عن ظهر قلب روايات "إيزابيلا الليندى" وأشعار "محمود درويش" ولا تمل من إعادة مشاهدة أفلام بعينها. طالبة صامتة مذعورة ترفض الأكل وتتفاخر أن المسئول الذى يجيب على الهاتف فى محل ماكدونالدز يعرفها ويحفظ طلبها. طالبة صامتة مذعورة ترتعد من أشباح وهمية وتسميها "حرامى"، وأى صوت فى أى مكان كفيل أن ينتزع من صوتك صرخة مشفوعة بكلمة "حرامى"، صامتة مذعورة تعيش العالم كله فى بضعة كتب وترتعد من المصعد والطائرة وتهرول على السلالم لأنها تسمع أصواتا وترى وجوهاً. طالبة تذهب كل يوم للجامعة التى التحقت بها بحى ٦ أكتوبر وتعود بدون أية بشاشة على وجهها وبدون أية حكايات عن زملاء حاولوا التودد لها. طالبة صامتة مذعورة تنام فى أى وقت وغالباً لا تأكل فى أى وقت، وترتدى قمصانا قصيرة تلائم طفلة فى السادسة من عمرها. طالبة صامتة

مذعورة تنظر لك وكأنك المسئول عن صمتها. لا تغادر شاشة الإنترنت وتتحدث مع شخص لا تعرفه فى أمريكا وتناقش مشاكله وكأنها تعيش معه. طالبة صامتة مذعورة تؤمن أن المقهى الأوحد هو ذاك الكائن بمدينة نصر، فتبحث كل أسبوع عن شخص يصحبها لهناك ثم يعيدها إلى المنزل فى المهندسين. طالبة صامتة مذعورة تتنازع مع أمها على المكان فى حياة الأب، ليبقى هو الرجل الأوحد المتنازع عليه. طالبة صامتة مذعورة تصيبها حالة من التوحش البرى فى مواجهة أمها وتحكى حكايات كثيرة تظهر فيها على شكل ضحية. طالبة صامتة مذعورة تنادى كل صديقاتى "طنط" وكل أصدقائى "أنكل" وتتوهم أن لا أحد يحبها. كان ذلك عندما نقلت منطقة النزاع - الطالبة الصامتة المذعورة - من أمام أمها لتضعها بأكملها فى مجالى.

ذاكرة الانتظار

وصلت برلين فى بداية شهر أكتوبر، وكان السؤال الذى يلازمنى "متى يسقط الثلج؟" تأتينى الإجابة مشفوعة بضحكة ونظرة شفقة "لاتتعجلى، كله آت". لا غضاضة، أتيت من بلاد حارة وأشتاق للبرودة، ثم أننى لم أر الثلج فى حياتى إلا فى الثلاجة أو فى أكواب المياه على شكل مكعبات. فى الشهر الذى دعى "عماد" إلى ألمانيا ليشارك ببحث فى مؤتمر عن الفرنسى "جاك لاكان" عقد فى ميونيخ، وبعدها قام بزيارتى فى برلين، وبعد أن أمطرته بالقبلات والأحضان تأملته ولم أتمالك نفسى من الضحك، فقد كان يرتدى كماً هائلاً من الملابس بالإضافة إلى المعطف الذى كان حريصاً عليه أكثر من نفسه لاعتقاده أنه مرصود للسرقة. فقلت له وأنا أضحك "إيه اللى إنت عاملاه فى نفسك ده؟" أجاب بسرعة البديهة المعروفة عنه "إيه البلد اللى إنت عايشة فيها دى؟".. "أصل إنت صعيدى طالع من القرن طازة"، استمر تراشق القفشات وأصررت على موقفى "البرد أحسن من الحر ستين مرة، يارب الثلج يجى". ظللت أتمنى وأتمنى حتى استيقظت يوماً وهممت بفتح النافذة فوقعت عيناى على مشهد تجمد له الدم فى عروقى... البياض يلف الكون كله. تراجعت فزعاً إلى الخلف، فلم أستوعب مباشرة

ما حدث، ولم أحب ذاك اللون الأبيض الذى يلغى الاختلاف تماما، ألم يكن هذا هو رعبى من القاهرة، مساحة الاختلاف التى تضيق يوما بعد يوم؟ انتظاراتى عموما تنتهى بخيبة أمل، ومباشرة بدأت أنتظر انقشاع الثلج.

صباح كل يوم فى برلين أضغط على زر تشغيل الكمبيوتر وأنتظر بلهفة أية رسالة، أقرأ كل الرسائل حتى تلك التى تتضمن اعلانات أو إغراء اشتراك فى موقع ما. أتابع الأخبار بدقة وعناية، أقرأ الخبر بأكمله، أنتبه لأخبار ما كنت سألتفت إليها فى االقاهرة، أنقر على الشاشة على "قرار ١٥٥٩" وأتابع حملة حزب الله ضد القرار، بعض الأخبار أبحث عنها على مواقع عربية وإنجليزية وأمريكية وأقارن، وأنتظر المزيد. أنتظر أية كلمة من "مصطفى" فيرسل إلى قصيدة، أنتظر أن أسمع من "سمر" عن حالة والدها الذى تركته راقدا بالمستشفى، أنتظر ظهورك يا صغيرتى على الشات الذى تعلمته مؤخرا، وأنتظر ظهور "غادة"، أنتظر ردا على رسالة عتاب وأنتظر جوابا لسؤال وأنتظر... هل هو انتظار العودة؟ أم انتظار الغربة؟ "لا غربة دون حلم بالعودة" هكذا كتب لى "مصطفى" ذات مرة... فى أيهما أنا؟ انتظارات برلين مكتومة وحبلى بالشجن. شوارعها باردة ونظيفة للغاية حتى أننى فشلت فى تحديد مكمن روحها.

انتظارات القاهرة لاهثة ومتلاحقة ومؤقتة وخادعة وصاخبة. فى أغسطس ننتظر الشتاء وفى أول رمضان ننتظر العيد وفى فبراير نتساءل عن الربيع (هل بقى لدينا ربيع؟)، ننتظر دخول كتاب إلى المطبعة ثم ننتظر خروجه، ننتظر شيكاً من مؤسسة حكومية نحلم أن نشترى به العالم، ننتظر صديقاً تأخر عن موعده، ننتظر أن تفتح الإشارة، ننتظر انقشاع السحابة السوداء، ننتظر تصريحاً يتيماً من الحكومة يدل أنها تعرف عن وجودنا، ننتظر مكالمة لا تأتى أبداً، ننتظر رجلاً نحبه، ننتظر ورقة طلاق من رجل تواجد بصدفة طارئة فى حياتنا، ننتظر الأسبوع المقبل ليخف ضغط العمل، ننتظر عودة المسافر، ننتظر شفاء مريض يحتضر، ننتظر العام المقبل، ننتظر ما ننتظره دائماً وأبداً: لكنها القاهرة... كل شىء يحدث بها ولا شىء يحدث. لا أحد يمر من هنا) قاهرة لا تهدأ ولا يبطل مفعول الصخب بها، مدينة لا تغير شيئاً، قاهرة تمدنا بوهم يجعلنا نتعلق بها وننتظر، وعندما تتراكم السنوات نكتشف أننا لم نتعلم سوى فن الانتظار وهذه كل مؤهلاتنا فى الحياة. برعنا فى فن الانتظار الذى لا يعلن عن نفسه مطلقاً.

يذهلنى "كمال" بقدرته على الانتظار. هو الوحيد فينا الذى ينتظر علناً، كل خلية فى جسده تفصح عن انتظار أبدى. وجهه يشبه الصخرة المصمتة، منحوت فيها – بالصدفة - عينين لوزيتين وأنف رومانى مستقيم وفم محايد لا يفتح كثيراً. رأسه شبه حليق مستعد لاستقبال أية فكرة تحوم. جسده متماسك ونحيف، خطوته مدربة فى أزقة القاهرة وميادينها. خطوة تخدع

مثلما تخدع ملامحه الجامدة. ملامح يكفى أن يخدش سطحها بطرف دبوس لينفجر بركان غضب غائم ومخيف وصامت، أو بحار حب غائم ومخيف وصامت. فى غضبه لابد الاحتماء من الأمواج الهادرة وفى الحب لابد الاحتماء من شظايا اللهيب.

اتخذ "كمال" من الشعارات السياسية مظلة احتماء. أفلت من تعصب والده الأزهرى ليقع فى التعصب السياسى. لم تتبع روح "كمال" أية طائفة دينية بل تبعت حلم تغيير العالم. بدأ حلمه بترتيب أشياء صغيرة مثل غرفته، ولكن عندما ضاقت الغرفة بمحتوياتها وانهارت ذات ليلة الكتب فوق رأسه وهو نائم، بدأ يحلم بتغيير البشر، وكانت نقطة البداية هى الشركة التى يعمل بها كمحاسب ولكنه لم يجد سوى ضحكات سخرية. وعندما تملكه اليأس بدأ يحلم بتطهير العالم من الشرور الصغيرة، كإرجاع حق أو علاج مريض، وعندما لم تساعده إمكانياته قرر أن يستأصل من العالم الشرور الكبيرة وعندها لم يجد موقع قدم لبصمة عدل بدأ يترنم بهزيمته ويبحث عن هيكل جديد للعبادة. حاول "كمال" أن يغير كل شىء إلا نفسه التى لا تؤمن بالاختلاف.

وهب نفسه للآخرين فإذا أراد صديقه اقتراض بعض المال استدعاه، وإذا أرادت الأخرى أن تعالج المآس الكهربائى الذى اتهم كل شىء فى شقتها

تستنجد به. وعندما أردت أن أضع لوحة فى إطار ملائم هاتفته. قرأ فى الأدب الروسى والفرنسى والعربى، قرأ فى السياسة والاقتصاد، فى كل مظاهرة وكل ندوة كان أول الحاضرين وآخر المغادرين، وفى عيد ميلاده الأربعين لم يكن لديه أية أمنية محددة سوى تغيير مقر عمله، فانتقل إلى شركة عقارية. قضى أربعين عاما يستمع للآخرين، حتى أصبح محط رحال آلامهم ومآسيهم وقصص وقوعهم فى الحب وخارج الحب، استمع إلى قصص غيرة نساء القاهرة وثبت كل فرحة فى صورة وكل إحساس فى كادر، كلما تجمع لاحتفال ما نكون قد قضينا الكثير من الوقت لاختلاق سببه، يتواجد "كمال" مع الكاميرا. هل هو الخوف من هروب الحياة من بين أصابعه أم محاولته فى أن يكون هنا والآن؟ تدريجياً استبدل "كمال" الحياة بالصور وكلما كان يرتد إلى واقعه كان الأمر يختلط عليه، فينقضى الزمن خارجه وتبقى الصور داخله. كان يحلم أن يكون مصوراً ولكنه لم يصرح بحلمه أبداً.

فى "سارة" وجد "كمال" هيكلاً جديداً للعبادة، فاضت بحاره وانطلقت كل براكينه الحبيسة معها. منحه هيكلها ألواناً جديدة لم يعهدها من قبل، وأصدقاء طيبين وبهجة متواصلة. وضع كل مدخراته فى ذلك الهيكل وفى حكايات "سارة" الفائضة عن احتياج العالم. لم يسمح لها بثغرة واحدة تتنفس من خلالها. عندما أرادت أن تؤدى صلواتها وقف يراقب، وعندما ألقت بنفسها فى البحر تتلوى كالسمكة التقط لها الصور، وعندما كتبت خواطر

أصر على قراءتها. ضفر عقله وقلبه مع مشاكلها الصغيرة والكبيرة فلم تجد شيئا تحله بنفسها، عادى أعداءها وصادق أصدقاءها، وأصر على الذهاب معها للمحكمة عندما يحين ميعاد مرافعة أو تقديم مستندات خاصة بقضية. ثبت كل لحظات فرحها وألمها بالصور. فى ستة أشهر التقط لها حوالى مائتى صورة واحتفظ بنسخة لنفسه. وحينما قررت أن تكسر الحصار وتعيش خارجه اختلط الحب مع الغضب وبذل ما فى وسعه ليحتفظ بصورتها كما هى، ليحنط الصورة فى عقله كما قدماء المصريين. زاد من قوة حصاره حولها عبر أصدقاء وعبر بشر يمرون فى الحياة فى شوارع القاهرة.. وآه يا قاهرة من كلامك وحكاياتك. لم تزدها الحكايات إلا عناداً وإصراراً، كرهت حتى ذكرى العلاقة وكرهت شعورها بالذنب تجاه ذنب لم تقترفه وكرهت أصدقاءها الذين لم يتوقفوا عن استجدائها، ولما أصرت لم يجدوا سوى الانصراف عنها - ولو مؤقتاً - لمداواة جرح "كمال". انصرفوا عنها وأحدثوا لها جروحاً مازالت باقية معها حتى اليوم. كلهم رفضوا علاقات واختاروا أخرى، كلهم دخلوا علاقات وخرجوا منها، لكنها عندما فعلت مثلهم لم يسمحوا لها، أقصوها واستبعدوها وقالوا لها "إنتِ قوية، لكن "كمال" حساس زى ما إنت عارفة." وأثبتت الأيام أن قوة "سارة" حملت صدقاً أكثر من ضعف "كمال" الماهر. كانت "سارة" تقول لى دائماً "مشكلتى إنى باعمل كل حاجة فى العلن، بجد مش باعرف خالص أعمل حاجات فى السر، أى حياة سرية بتكتم على نفسى. دول بيتعاملوا معايا كأنى قتلت لهم قتيل. سهراتهم بالليل تطلع على الصبح".

مدونـــــــة رفايـــــع

مازالت "سارة" تحكى حتى اليوم عما فعلته معها "سمر" ومازال "كمال" حتى اليوم يحاول أن يستنطق الصور ليجدها خرساء. حاول أن يلتقط فيلماً آخر فجاء محروقاً. مازال يجوب الشوارع والأزقة فى القاهرة. مازال وجهه المنحوت يوحى بالثقة. مازال يبحث عن المرأة التى لاتشبهه. مازال يمسك حلم تغيير العالم فى يد وهزيمته فى اليد الأخرى. مازال كل شىء كما هو عدا القسوة التى أصبحت ملاذه.

ليس "كمال" وحده هو الذى ينتظر من القاهرة عصاها السحرية. ربما كلنا ننتظر "مصطفى" أحياناً لكى نحكى له عما فعله بنا الآخرون الأشرار، فيذكرنا بالموعظة التى ألقاها علينا فى البروفة السابقة، ويؤنبنا أننا خالفناها وسمحنا لحدودنا أن تفتح قليلاً. عندها نشعر بالنقص أمام تعاليه عن تلك الصغائر، وعندما تراودنا بعض المشاعر ونبكى، يهتز شاربه قليلاً ويندهش أننا لم نتجاوز بعد كل هذه الحماقات المتخيلة. يقول إنه خبر كل الحماقات، وعرف كل الأماكن، وعشق كل النساء (الطيبات)، إنه بدأ وانتهى من قبل أن نبدأ نحن. يقول إنه كان مناضلا ومغرماً بالمقاهى. يقول إنه خاض معاركاً فكرية، يقول إن جميعهم يحمل له التقدير والإعجاب، يقول كل هذا وهو يحاول أن يستيقظ، فنشعر بضآلتنا فى مواجهته، ونفكر فى الانسحاب من المسرحية. نحن الذين لم نصل إلى خبرته نشعر بالصغر أمام من يتشبه بـ"تايرزياس": "فهمت المنظر، وحدست بقيته".

ليست صدفة أن يكون عالم "مصطفى" فى أعلى طابق بالبناية، وكأنه أمير يطل على الشارع من أعلى، وعندما يطل لا يرى سوى النيل. ولذلك فإنه عندما يطل علينا لا يرانا رغم أن القياس الهندسى يؤكد أننا فى مستوى نظره. عالم خادع لا يتسع إلا له وحده، يشبه السراب الذى يلمع ويوهم الناظر أنه رحب يسع الجميع. عالم متطابق مع حدود وجهه. عالم حكمة متعالية، تلقى متاعبنا خارج الحدود لتنام فى هدوء دون أن تبذل أى مجهود. ظل "مصطفى" يتعالى علينا وعلى كل ما نقوم به لنعبر عن آرائنا أو لنحصل على قروش قليلة نعيش منها حتى جاء اليوم الذى اضطر فيه أن يفعل مثلنا جميعاً ويعمل رغماً عنه.

نحيى انتظارنا فى أعمق وأضعف منطقة داخلنا. لكننا بالطبع نؤكد دائماً أننا لانتنظر لأننا نفهم لعبة القاهرة. ونحن أيضاً مثل كل أهل القاهرة نكذب. إلا أن الانتظار - انتظار شىء ما (هو الذى يحفزنا إلى مغادرة السرير صباحاً رغم مطارق الصداع التى تدق الرأس وآلام الظهر المستمرة لنأخذ نفس المسار إلى الحمام حيث نتأمل وجوهنا فى المرآة ونتجاهل الانتفاخ الواضح تحت العينين ونقول فى نفس اللحظة الصباحية "النهارده لازم أنام بدرى"، ثم نفتح دولاب الملابس ونقف أمامه كالبلهاء، وكأن شخصاً آخر هو الذى ابتاع هذه الملابس. نبذل مجهودا لنرتدى ما يصلح لسياقات اليوم

المختلفة، فالقاهرة سياقاتها عديدة تبدأ بالسيدة "نفيسة" ولا تنتهى بالمشاركة فى مظاهرة.)

نذهب إلى العمل وننتظر بلهفة ميعاد المغادرة، وفيما بينهما نتحسس الهاتف المحمول. يحمله "كمال" فى يده كالسلاح المشهر فى وجه العالم، تتحسسه "غادة" وتربت عليه وكأنه رجلها المدلل، تضع "سمر" جرسه على أعلى صوت لتسمعه فى أى مكان، وألغى أنا صوته وأضعه فى جيب الجونلة الجينز فأشعر بذبذباته دائماً، أما "مصطفى" فيبحث عنه دائما بين الوسائد والكتب الملقاة على الأرض. نتهاتف ونسأل "هه إيه الأخبار؟"

قبل أن أغادر إلى برلين تقلصت طموحات الانتظار لدى، فقط كنت أنتظر أن أغادر إلى برلين، وعندما وصلت مطار القاهرة كنت أنتظر أن تغادروا جميعا، لم أكن مستعدة لكل تلك العواطف، وعندما غادرتم جلست أنتظر الطائرة، وعندما صعدت على متن الطائرة انتظرت الوصول إلى بودابست، وفى بودابست انتظرت ميعاد إقلاع الطائرة إلى برلين، وفى برلين انتظرت حقيبتى، ثم انتظرت "لورا" التى ستوصلنى إلى الحجرة التى استأجرتها لى، وفى الحجرة ارتميت على السرير لأنام وعندما استيقظت بدأت أنتظر اتصالات القاهرة.

ذات ليلة جاءت "غادة" متألقة فسألتها "إيه؟ حصل حاجة جديدة؟" أجابت "جاءتني مكالمة كنت أنتظرها منذ سنة"!! القاهرة... فن الانتظار...

ذاكرة السرقة

الهاتف المحمول هو موضوع الساعة فى القاهرة، القاهرة نفسها تحولت إلى أكبر هاتف محمول، تدور المشاكل حول تلك "الرنات" التى نتلقاها أو الرسائل القصيرة التى ترفعنا كالملوك أو تهزمنا ليتلون وجهنا بالحزن والارتباك. رسائل تحمل إعلانات ونكات ونميمة، اعتذار عن ميعاد، تبرير لتأخير، أو تنبيه بسرعة دفع الفاتورة. أثبت المحمول قدرات خارقة وأصبحنا نحن القاهريون نتصرف وكأننا ولدنا به ولذلك أنظر لعم "أحمد"، صديقى المسن المكتئب دائماً، بحسد لأنه رفض إدخال المحمول إلى حياته. كلما أزوره يقول لى "اكتمى البتاع ده بقى". تضاءل وجود التليفون المنزلى وتضاعف حجم الفواتير، وأصبحنا نخرج إلى العالم فى الصباح ونحن نحمل المحمول كما لو كنا نحمل حياتنا. وهذا يعنى أنه عندما يسرق المحمول - وهى سرقة أصبحت شائعة فى القاهرة - فإن حياتنا تسرق. كلما كنت أسمع عن سرقة مماثلة أعتبر أنها لا تخصنى، لست أنا من يسرق منها المحمول. ولكن لا شىء كبير على القاهرة الجبارة. أعادت لى تلك السرقة ذاكرة أول سرقة مررت بها.

لا أذكر كم كان عمرى آنذاك، السابعة أو الثامنة. كان طموحى هو صدور مجلة ميكى يوم الخميس التى كنت أعيش مع أبطالها فى صحوى

ومنامى، كنت أجد "كوكا" مملة وأتطلع إلى "ميمى" باعتبارها أجمل امرأة (أدركت فيما بعد أنها ليست سوى فأرة واعتبرت الأمر خيانة شخصية). لسبب ما لم يأت بائع الصحف يوم الخميس ويبدو أن هستريا ما أصابتنى مما جعل أمى تسمح لى بالنزول إلى الشارع لأبحث عن البائع فى البناية المجاورة، ولما لم أجد له أثراً توجهت إلى البناية التالية ثم التالية ثم التالية، وعندما أوشكت على فقدان الأمل بدأت أبكى حزناً على ميكى الذى غاب عنى وخوفاً من أمى التى حتما ستعاقبنى لأننى لم ألتزم ببناية واحدة. اقترب منى رجل وأمسك كف يدى برفق وسألنى "مالك يا أمورة؟" ازداد بكائى لأننى لم أجرؤ أن أنزع يدى من كفه، ثم قال: "لأ لأكده الأنسيال الحلو ده هيقع منك، بصى إنت تقلعيه كده"، وخلعه من يدى ثم لفه فى ورقة منزوعة من جريدة وقال "هاشيله لك معايا علشان ما يضيعش"، وافقت على الفور لأنها كانت الفرصة الوحيدة أمامى لانتزاع كفى وعدت جرياً إلى المنزل وأخبرت أمى بكل ما حدث. بعدها لم أفهم لماذا بدأت أمى توبخنى ولماذا أخذ الرجل الأنسيال، كنت مصرة على شىء واحد "عايزة ميكى دلوقت"، وعندما انفعلت أمى "بلا ميكى بلا زفت" شعرت أن الإهانة موجهة إلى فى الصميم. لم يتوقف بكائى ولم يتوقف تأنيب أمى الذى كان يدور حول "بلاهتى" و"غباوتى"، هكذا فقدت فى خبطة واحدة مجلة ميكى والأنسيال وموافقة أمى على وجودى.

ظلت أمى توبخنى سنوات لفقدانى الأنسيال، ورغم التأنيب لم أتعلم أبداً. بل ازددت براعة فى فن الفقدان، جاءت حياتى تمارين على الفقد.. حتى برعت فيه، براعة لم تنافس براعتى فى فن الانتظار. ولأكافئ نفسى على هذه القدرة الرائعة كتبت على حائط غرفتى "ليس من الصعب تعلم فن الفقدان". ولذلك عندما فقدت الهاتف المحمول كنت سعيدة ولكننى آثرت الكتمان. فقد أدركت أننى أنهيت مرحلة ما من حياة فى مكان ما. انزعج الجميع من هذا الفقد إلا أنا. كنت أعرف أن شيئاً كبيراً على وشك الحدوث. وبالفعل بعد أسبوعين فقط من الإقامة فى بيت توهمت أننى سأصنع فيه أسرة تشبه أسرة كتب الأطفال المصورة، غادرت بدون رجعة، فقدت أشياء كثيرة وأشخاص أكثر -كان لابد أن أفقدهم أو أسقطهم - بسبب هذه المغادرة. وما زالت واقعة فقدان الأنسيال تعاودنى فى مواقف عديدة، فقط كنت أريد ميكى. كلما تحضرنى دموع العجز والقهر التى تساقطت منى، كلما أرتبك، أتذكر تلك الواقعة. وعندما توقفت فعلياً ميكى عن الصدور منذ عامين - رغم أننى أنا أيضاً كنت قد توقفت عن شرائها - فى ذاك اليوم تجمعت الدموع فى عينى ورمقنى "شريف" بائع الصحف بنظرة غريبة.

تطورت القاهرة بشكل مفاجئ، "زمان" كنا نسمع عن الحرامى الذى سرق المجوهرات من منزل أحد الأثرياء أو الفشال الذى استولى بخفة على محفظة الموظف "الغلبان"، أو "دنجل" مجلة ميكى زعيم عصابة القناع الأسود التى كانت تسرق بنكاً بأكمله فى صفحة واحدة. أصبح الآن كل شىء

مباح للسرقة فى القاهرة، وبعيدا عن تلك الأشياء المملة من كثرة حدوثها مثل سرقة الآثار والبنوك وطعام المساجين ومواد البناء وكابلات الكهرباء، أصبحنا نحن أنفسنا موضوع السرقة، نحن - نحن كأشخاص نمشى فى شوارع القاهرة- نسرق فى كل لحظة، شاشات تليفزيونية تبث كلاما مبهماً عن تغيير ما وإصلاح ما فيسرقون عقلى الذى ينشغل بالتفكير فى أمور لن يراها. تطالعنى آلاف التوقيعات المطالبة بالتغيير فتطالعنا الصحف بعدم دستورية التعديل، تطالعنى مسلسلات التليفزيون بنهايات سعيدة، يطالعنى عم "سيد" صاحب كشك السجائر بشارع قصر النيل بابتسامة واسعة افتقدتها بشدة عندما قرر الرحيل عن عالمنا، يطالعنى رجال ملتحين بحديث عن الفضيلة ووجوب تغطية لحم النساء، تطالعنى إمرأة ترتمى فى أحضانى ثم تسرد ما لذ وطاب من الكلام، تطالعنى أخرى بتنظير عن حقوق الإنسان المنتهكة ثم لا تتورع عن انتهاك مشاعر من حولها. سرقات قاهرية تحدث بنعومة وسلاسة حتى نكاد نقول لها "اسرقينا كمان".

لكن أكثر السرقات أناقة هى تلك التى يقوم بها رجال أنيقون أيضاً. عرفت عددا من هؤلاء، كان آخرهم واحداً أراد أن يسرق عقلى وأفكارى والهواء الذى أتنفسه، وعندما فشل تساقطت أقنعته واحد تلو الآخر ليكشف عن وجهه ويتحول إلى المثال النموذجى للقبح. كان أكثر ما يزعجنى فيه هو تمسحه بالحياة، لم أكن أنزعج منه هو بشكل شخصى بقدر ما كنت

أحزن من أجل الحياة نفسها. ربما كان صوته العالى هو ما يزعجنى أو ربما أنانيته الطفولية أو ربما هى رغبته الشديدة فى أن ينبه من حوله لوجوده... أعتقد أننى أنزعج الآن من مشاهد علاقتى به. كانت "سمر" دائماً ما تردد "أصل ما عندوش خبرة بأى حاجة"، هى الفلسفة عندما تتلبسها، أما "غادة" فقد منعتها عدة مرات من الفتك به. كالمعتاد يدفعنى "مصطفى" ببروده إلى الجنون "عادى كنت متوقعة إيه؟" ظلت "نهى" فترة طويلة تنظر إليه ثم تسائل كائنات لا تراها "معقولة فيه بنى آدم بالشكل ده؟"... وحتى هذا اليوم لا زالت "جميلة" تكرر "طفل.. طفل.. طفل"، أما أنا فكلما أتذكره أتأكد أنه أبرع سارق تعثرت به. على الأقل لديه موهبة. لن أنسى له أنه ساعدنى على تسديد كل الديون المتراكمة المتأخرة، التى نظن أنها سقطت بالتقادم.

أما "مصطفى" النائم، الذى كان يهز رأسه أمام المهازل التى أحكيها فقد فقدنا واحداً تلو الآخر. البعض شعر بالملل من الانتظار، وقلة باقية أبدت تجاهه اللامبالاة. لم يشعر باليأس، وبدأ يحاول بعث الحياة فى قوة تأثيره على الآخرين. الأذكياء لم يستجيبوا لأنهم عرفوا أنه سيلقى بهم على قارعة الطريق فى أية لحظة، أما المخدوعون المتعبون فقد وجدوا لديه قدرة هائلة على الاستماع لآلامهم وأحزانهم - التى كانت كثيرة بدون مبرر - أفرغوا كل ما بصدورهم لديه، وهو يؤكد لهم مع كل شكوى أنه الصديق الأول والأخير.

وفى اللحظات القليلة التى ظهرت لهم فى النوايا النائمة فقد أدركوا أنه لا تراجع لأنهم تورطوا معه عبر الإدلاء بكل الممنوع، بكل لحظات ضعفهم، واللحظات التى كرهوا أنفسهم فيها. لكنهم لم يدركوا أن "مصطفى" لم يحك لهم شيئاً عن نفسه - تلك النفس المصقولة اللامعة وكأنها جاءت من فراغ كبير شفاف - لكنه لا يشف عن أى شىء مضىء. هل تعمد ألا يحكى أم هم نسوا أن يسألوه؟ كلما أسأله "عامل إيه يا سى مصطفى؟" يجيب: "زى الفل الأبيض. عمرك شفتينى غير كده؟" وقع الجميع تحت تأثير لغة "مصطفى"، وبعد فترة قصيرة من احتضان هؤلاء المعذبين فى الحب بدأ الملل ينتاب "مصطفى"، فالحكى غدا متشابهاً وحتى الأغبياء يصعب أحياناً إقناعهم بكل مفردات اللغة.

عندما كان من حوله يخالفون قواعده كان ينعتهم بالغباء، أو قلة الخبرة، أو يقول إنهم مزعجون أو تافهون. كان يرى أن صديقاته يخترن أسوأ الرجال، كان دائماً ما يشير إلى "سارة" ويقول "هبلة والله بيضحكوا عليك". ينظر إلى أصدقائه ويؤكد أنهم يعانون حالة مستعصية من السذاجة العاطفية، لكنه لم ينس أبداً أن يشيد بعظمة بعض الكتاب الذين نجح أن يعقد معهم صداقة، كتاب كانوا يعتبرون المعارضة سذاجة والمظاهرات سمة من سمات التخلف الحضارى. سقطت أوراق التوت واحدة تلو الأخرى حتى قابلته بالصدفة فى الشارع وأعجبنى قصر النظر العظيم الذى أتمتع به. لم يعرف

"مصطفى" أبداً أن الاستماع أحياناً ما يتحول ضد المستمع، لم يدرك أن بعض البشر لا يغفرون كشف الضعف أمام الآخر، ربما أدرك هذا عندما تحولت ملامح "كمال" من الامتنان إلى الغل. أما أنا فلم أدرك أن "مصطفى" مصاب بالاكتئاب المزمن إلا مؤخراً.

ذاكرة الصوت

لم أفهم حتى اليوم لماذا سرقنى، ليس الوحيد على أية حال. تماماً كما لم أفهم فى طفولتى ما الذى يتوجب على أن أفعله عندما أسمع صوت الغارة، كنت أقف كالتائهة فى فناء المدرسة حتى تجذبنى يد قوية إلى مكان مظلم. كما لم أفهم كيف يبدو "الإسرائيلى"، ولم أفهم كيف تحولت زجاجة الكوكاكولا إلى علبة صفيح يسمونها "كانز" يحولها المصريون إلى كنز أو كنزى. كما لم أفهم أمى ولم أفهم "كمال" ولم أفهم "مصطفى". لازمنى عدم الفهم فى برلين. بمجرد وصولى لم أفهم ذاك الهدوء المتحفظ، فقد جئت من بلاد صاخبة، أصوات أهلها عالية وقوية، لا يهمنا أن نستمع بقدر ما نتقاتل لكى نتكلم، وتماماً في منتصف الجملة يقول لنا الشخص الذى نحاول أن ندفعه إلى الاستماع إلينا "مش قصدى أقاطعك بس عايز أقول لك رأيى". دائما ما يحبطنى كل من لا يتقنون فن الاستماع. الاستماع فن صعب.

فى آخر أيامى فى القاهرة تدهورت درجة احتمالى، فقد كانت كلمة "مؤتمر" أو "ورشة" - رغم أن الشخص يتكلم فينا لكنها آفة الترجمة الحرفية- تنتزع منى ابتسامة قاهرية مقهورة عاجزة عن التعليق. حاصرتنى إحدى هذه الورش قبل أن أغادر وكان لابد أن أذهب حفاظاً على صورة

يشكلها لنا الآخرون ونتورط نحن فى الحفاظ عليها. ارتديت ملابسى بتكاسل وغادرت المنزل مرغمة ووضعت نفسى أمام مقود السيارة وأنا أفكر فى حقيبة السفر التى لم أضع فيها أى شىء بعد. وصلت شارع "عبد الخالق ثروت" حيث نقابة الصحفيين، وبنظرة سريعة مدربة على شوارع القاهرة أدركت أنه لا يوجد مكان لترك السيارة، تقدمت قليلاً ثم اضطررت أن أنحرف يميناً فى شارع "طلعت حرب"، وصلت إلى نهايته فلم أجد مكانا واحداً، حتى وجدت نفسى أمام جراج شارع قصر النيل. وبذلك سرت من قصر النيل حتى عبد الخالق ثروت. لست أدرى ما الذى جعلنى أتجاوز نقابة الصحفيين لأدخل نقابة المحامين، ثم... وبمنتهى البساطة خرجت من هذه لأدخل تلك. المسافة بسيطة على أية حال. عندما دخلت المبنى كدت أفقد توازنى لأن قدمى انزلقت على الرخام المصقول. نظرات فضول من الآخرين... أنتظر المصعد... أنا المدربة على فن الانتظار. المفترض أن تبدأ الورشة فى السادسة ولسبب غير معلوم لم تبدأ إلا فى السابعة والنصف. جلست أستمع إلى أهمية المجتمع المدنى والشفافية والتنسيق والتدريب والتشبيك... كنت أعرف معظم الحاضرين والحاضرات، أعرف من يهادن ومن يقايض ومن يواجه بشدة غير عابئ بما يقال وبما سوف يقال عنه. رحمك الله يا "زينب" عندما اتصلت بى من أسوان وسألتينى: "هو يعنى إيه التشبيكك ده؟ يعنى نقعد ونتعرف على بعض؟" وكان لديك كل الحق

فى السؤال. إذا كنا لا نشتبك مع أنفسنا ولا نعرفها فكيف بنا مع الآخر الذى لا نستمع له؟

سرحت وبدأت أجول بنظرى فى الحضور ومن بعيد لمحت "كريمة المرشدى" مستغرقة فى حوار مع أخرى لا يبدو أنها مصرية. "كريمة" نموذج متكرر، عرفتها فى فترة من حياتى ونجحت أن تستدعى أسوأ ما فىّ. فكرهت نفسى معها وكرهتها أيضاً. كل حياتها تدور باللغة الفرنسية والإنجليزية، قلما تتكلم العربية، تستخدمها عندما تحتاج إلى ألفاظ بذيئة فقط. وبين كل ضحكة وضحكة تحشر ضحكة أخرى بصوت عال وبذىء، فى محاولة للدفاع عن نفسها ضد العالم بأكمله. ضحكتها مستفزة ولا تنقل عبر الأثير سوى كم من الغل والعدوانية والكراهية. كرست فترة من حياتها لمناهضة الختان على الورق فى أبحاث ومحاضرات باللغة الإنجليزية، وأنجزت كتاباً على ورق مصقول ولامع تكلفت طباعته عدة آلاف، وحمل غلافه صورة فلاحة تضع على رأسها طرحة سوداء مكتوب أسفلها باللغة الإنجليزية "لا تقتلونى". تقضى "كريمة" معظم السنة فى الخارج وكلما تعود تلقى بأفكار جديدة لمناهضة الختان، أفكار تبهر السامعين ويسيل لها لعاب بعض الممولين. أدير وجهى لأنفض "كريمة" عن رأسى.

الكلام ينهمر على رأسى كالمطارق حتى لمحت "سارة" تجلس أمامى، أرسلت لها رسالة من كلمة واحدة على هاتفها المحمول "يللا؟" وبدون كلمة واحدة قامت من مكانها والتقينا خارج القاعة، وبدون أى تعليق غادرنا النقابة معاً. وكأن عدوى التجهم انتقلت لى. لست أدرى لماذا يتحول التجهم مع قليل من العبوس والكثير من العدوانية والأبوية والقدرة الفائقة على تصنيف البشر وتقييمهم والمبادرة إلى تأديبهم أحياناً إلى صفات ملازمة لكل من يدافع عن حقوق الإنسان. كنت وأنا بينهم أشعر بالذنب عندما أضحك أو أبدى البهجة أو حتى أبدأ علاقة ما، ورغم أنهم جميعاً ينادون بالحقوق ويضحون من أجلها إلا أنهم لايترددون فى انتهاك حق الآخر طالما أنه لا يؤكد انتماءه للجيتو. فهذه غبية وتلك تافهة والأخرى انتهازية، وبعد أشهر أو أعوام أجد المغضوب عليهن قد أصبحن جزءاً من الجيتو. كم سمعت محاضرات عن الشفافية وكم اكتشفت أهوالا خلف الشفافية. وحتى اليوم لم أفهم كيف تعقد التحالفات ومتى يلتئم الشمل؟ من الصديق ومن اللاصديق؟ من المرضى عليه ومن المغضوب عليه؟ متى يظهر الود ومتى تكشر العدوانية عن أنيابها؟ أين يجب أن يقف من يريد اليسار؟ كلما يقف يجد نفسه متحالفاً مع اليمين، لأن اليسار خذله أو طرده أو رفضه أو وصمه. أسأل "سارة": "هى الكآبة والعدوانية دى سببها إيه يا سارة؟ مالهم مبوزين كلهم؟"، تتنهد وتقول "يعنى يا عيشة عايزاهم يرقصوا وهما بيوثقوا التعذيب. وبعدين ما تنسيش إن اليسار كله أحزان وهزايمه مش هينة. ده كفاية

الخناقات والحسابات الشنيعة اللى بين التيارات المختلفة". أصمت، ربما "سارة" على حق.

القاهرة مدينة الكلام. وأهل القاهرة لا يملون الكلام، كلام قديم يشبه قطعة الخبز التى نسيناها فى ركن مطبخ ليس نظيفاً تماماً فظهرت على وجهها بقع خضراء. غادرت القاهرة وحبوب الأسبرين لا تكفينى. وعندما هبطت بى الطائرة فى مطار تيجل ببرلين ولم أسمع صخباً ظللت أتلفت حولى لأتأكد من وجود بشر. لماذا لا يصرخون مثلنا ويفقدون أعصابهم فى ثانية؟ لماذا لا أسمع كلمات نابية؟ هل هو حاجز اللغة أم هى ثقافة دخلتها دون أن أستعد كما ينبغى؟ فى برلين يتكلمون قليلاً ويعملون كثيراً. وأنا أريد أن أتكلم. تمر على أيام وأنا صامتة، وعندما أسمع صوتى أرتعد. بعد أن طال الصمت بدأت أحادث نفسى بصوت عال حتى أحتفظ بنغم الكلام. فأقول مثلاً "يللا بقى دلوقت ناكل" أو "هه إيه الأخبار يا جميل؟" وفجأة أتذكر تعليق ما فأضحك كأننى أسمعه للمرة الأولى وهكذا حتى أصبح الصمت جزءاً من حياتى. أخرج، لأمشى ربما تتبخر الوحدة بالمشى. أحتار هل أتجه يميناً أم يساراً. إذا اتجهت يميناً فى شارع جرونافالد ووصلت حتى نهايته حيث يتقاطع مع شارع هوبت سأجد بلداً كاملاً من الأتراك الذين يبتسمون لى ويصرون على تبادل بضعة كلمات معى اعتقاداً منهم أننى تركية، شارع ملىء بمحال البقالة التى تبيع كل ما يمكن استيراده من تركيا. شارع لغته كلها تركية.

إذا اتجهت يساراً ستجد برلين الألمانية، مطاعم هندية مليئة بالألمان، محال تبيع أحجار كريمة ونصف كريمة. مقاهى عديدة. يميناً أو يساراً لا يهم كثيراً طالما أنني لن أتوقف أمام المنزل مباشرة حيث منزل الكاتب المسرحي "هنريش فون كلايست" الذى تحول إلى مدرسة للموسيقى والفن. بمجرد أن رأيت ذلك المنزل عندما وصلت برلين، وضعت اسم "كلايست" على الانترنت لأعرف من هو. علمت أنه مات منتحراً. الفكرة تسبب لى ضيقاً وكآبة شديدة، فكنت أصل أمام المبنى وأبدأ فى المشى بشكل سريع لافت للنظر، ورغم كل الموسيقى الرائعة المنبعثة منه دائماً لم أجرؤ ولو مرة واحدة على الدخول.

كان ظهور "حنان" إعلاناً عن كسر الصمت قليلاً. التقينا أنا و"حنان" لنبدأ معاً من أول السطر، من الصفحة الأولى وكأنها بداية بعد نهاية. فبدأنا نتكلم عن الجليد الذى يكسو برلين وعن الملابس الملائمة لهذه البرودة الشديدة وعن النظرية النقدية وعن فلسطين والمقاومة وعن الزواج والأطفال والأفلام وفوائد الطماطم وكيفية طهى السباغ. قضت "حنان" معظم حياتها فى أمريكا فكرهت أمريكا، حسها السياسى متقد فى كل لحظة ورغم أنها قد تنسى الأسماء العربية لبعض الأشياء إلا أنها مصرية حتى النخاع، تؤمن بالمقاومة وتؤنبنى إن تهاونت فى حق أو تعاطفت مع باطل، لكننى آمنت من قبل يا "حنان" وقاومت حتى لم أعد أرى ما الذى أقاومه

أو من الذى أقاومه، فبدأت أقاوم الانصهار والزيف والكذب والازدواجية وفساد الجو العام، كما يحلو لأحد أصدقائى أن يسميه، قاومت حتى تحولت إلى أضحوكة فى نظر البعض وساذجة فى نظر البعض الآخر ولئيمة لدى البعض فقررت أن أحفظ عقلى من الفساد وحملت حقيبتى وغادرت.

غادرت القاهرة الآسرة ولم تغادرنى ولا زالت دموعى حبيسة لم تعلن عن نفسها حتى الآن. غادرت القاهرة الهادرة إلى مدينة كانت منشطرة إلى نصفين فى وقت ما ثم التحمت فى وقت آخر. مدينة لا زالت تحتفظ على الأسفلت بخط يحدد مكان الجدار الذى كان يفصل نصفها الشرقى عن نصفها الغربى. كلما أذهب إلى ميدان بوتسدامر أقف على ذلك الخط لأقلد تلك اللعبة التى كنا نلعبها ونحن أطفال. كنا نسير على خط وهمى مستقيم، كل واحد منا فى مواجهة الآخر ونردد على التوالى "مصر.. سوريا.. مصر.. سوريا". لم أفهم مطلقاً ما الذى كان يجب أن نصل إليه فى النهاية ولذلك كانت اللعبة مملة قليلاً. فى سن متقدمة فهمت أن تأثير الوحدة بين البلدين كان مازال راسخاً، لكن هل كانت اللعبة حنين لتلك الوحدة أم تشفى فى انتهائها؟ فى كل الأحوال قررنا أن الذى يضع الخطوة الأخيرة ويقول "مصر" لابد أن يكون قد كسب شيئاً ما. أول درس فى الشوفينية. الآن أسير على خط القسمة فى برلين فى وسط المدينة، وأردد "عبرت.. لم أعبر.. عبرت.. لم أعبر". ربما مازلت على الحدود. تقفز إلى ذهنى فكرة الباب الدوار، فى أول

مرة شاهدته كانت المرة الأولى التى أتذوق فيها لبان "شيكلتس"، كان بضاعة مستوردة وقتها، اشترته لى أمى كمكافأة على شىء ما. تدفعنى أمى فى الباب وتقول "يا بنتى مالك، ادخلى يللا". كيف يكون الباب مفتوحاً ومغلقاً فى نفس الوقت؟ الباب حاجز، فاصل، كيف يكون معبراً فى الوقت نفسه. لم أفهم فقد كانت أقصى الأحلام هى معجزة مسلسل "وليد ورندة فى الفضاء"، "وليد" و"رندة" وصلا إلى الفضاء على شاشة التليفزيون، وكنت أدعو سراً أن أحصل على سعادة "وليد" و"رندة".. الآن أقصى الأحلام هى العبور... عبور الحدود الفاصلة بين الواقع الذى حتماً لا أراه والواقع الموجود، عبور الحدود بين ذات كانت لا واعية، نائمة، منغلقة، ساذجة ونفس أخرى أجرت عملية ليزر فى عينيها فأصبحت ترى بوضوح مؤلم. كم مرة توهمت أننى عبرت، كم مرة رددت بمنتهى الثقة "ما لا يكسرنى يقوينى"، كم مرة ظننت أنها صفحة جديدة وسطر ينتظرنى؟ سرقات صغيرة تراكمت حتى صنعت سرقة كبيرة، ومازال سؤال "غادة" يتراقص فى أذنى "مين اللى سرق العامود؟"

ذاكرة الدهشة الاعتيادية

كنت أظن أن القاهرة فقط هى التى تمنحنا دهشة تثير الفزع الذى يتحول مع الوقت إلى اعتياد. ثم أدركت أن برلين لها وجه مماثل. اتصلت بى "هافين" صديقتى الكردية - التى تحمل الجنسية الأسترالية لكنها عاشت فى تركيا - لم أرها منذ مدة طويلة ولم أعرف أنها انتقلت للعيش فى ألمانيا. منغمسة "هافين" حتى النخاع فى السياسة. قاتلت فى الجبال فى شمال العراق فترة طويلة ثم دخلت المكتب السياسى لحزب العمال الكردستانى حيث أثبتت جدارة فأصبحت المترجمة الأولى لـ"عبدالله عجلان". بعد إلقاء القبض عليه انتقلت إلى هولندا لتدعم فرع المنظمة هناك ثم استقرت فى شمال ألمانيا. كرست "هافين" حياتها لترى دولة كردية، وعندما أصبح للأكراد وجود فى شمال العراق كادت أن تضرب رأسها فى الحائط، كانت تهاتفنى وتقول "يحصلون على رشاوى مقابل مرور المخدرات".

اتفقنا على ميعاد عند نقطة محددة فى محطة القطار ببرلين. وصلت مبكرة عن موعدى لأمنح نفسى فرصة تصفح الصحف والمجلات فى المكتبة التى تستقبل القادمين والمغادرين المتعجلين دائماً، أحياناً فرحين وأحياناً متجهمين وغالباً مترقبين وفى أغلب الأحوال مسرعين. فى تلك المسافة

الفاصلة بين المدخل الرئيسى للمحطة وبين المحطة تتراص محلات الأكل والعصير والقهوة والمخبوزات، كنت أهرول تقريباً لأهرب من الروائح المتداخلة حتى كدت أتعثر بكومة بشرية ملقاة على الأرض. إمرأة فى حوالى الثلاثينات ملقاة على الأرض لايمكنها التحكم بجسدها ولايمنعها من التمدد التام سوى ركبة العسكرى التى صنعت لها حاجزاً تستند عليه، كلما يميل رأسها يسارع العسكرى إلى رفعها ويواصل كلامه مع زميله. توقفت عن السير تماماً وانتابنى شعور بالغثيان. أردت أن أستفسر عما يحدث لكن اللغة لم تسعفنى والوجوه أجبرتنى على التراجع. كان الجميع منهمكاً فى الأكل والشرب، لم تحن التفاتة واحدة من أيهم، بل إن العابرين اعتبرونى عثرة فى طريقهم، وكانوا شبه يدفعوننى. تخيلت هذا المشهد بكل تفاصيله فى محطة مصر ثم نظرت إليها وتمنيت أن تلتقى نظراتنا، لكنها لم تكن تنظر إلى. كان جفناها متدليين إلى الأسفل ومتورمين، تدور مقلتا عينيها فى مكان آخر وزمان آخر. هل تضاهى وحدتى وحدتها أم أننى أبحث عن تضامن وهمى. اشتد شعورى بالغثيان وخرت القسوة عظامى منافسة البرودة الشديدة. عندما التقيت صديقتى قضيت نصف ساعة أقص عليها ما حدث لأتغلب على رغبتى فى البكاء. استمعت لى باهتمام ظهر فى إماءة منتظمة برأسها، ثم أخرجت لى جملة معلبة من رأسها: "إنها رأسمالية الغرب. هذا هو ما يناضل ضده الرفيق عجلان".

مدونـــــــة رفايـــــع

القاهرة تفعل بى نفس الشىء. بدأت أتخيل أننى أجلس على مقهى فى وسط المدينة وأقول لمن حولى بمنتهى الثقة "إنها رأسمالية القاهرة". فى طريقى المعتاد إلى الجامعة لابد أن أمر من أمام مبنى كئيب تعلوه لافتة تعلن عن نفسها بفخر شديد "مديرية أمن الجيزة". ولست أدرى هل هو سوء حظى المعتاد أم عثراتى التى لا تنتهى هى التى تجعل "الباشا" يدخل المبنى فى نفس اللحظة. الغريب فى الأمر أننى أذهب إلى الجامعة فى أوقات مختلفة طبقا للجدول، وهذا يعنى أن الباشا يذهب طبقا لمزاجه الخاص. فى كل مرة يهرول العسكرى - الذى يلعن حظه أيضاً - ليوقف كل السيارات المارة فى الشارع، ويبدو أن وجودنا فى الشارع هو ذنب اقترفناه لأن العسكرى يرمقنا بعدها بنظرات لا تخلو من اللوم. فى الفترة الزمنية الفاصلة بين دخول الباشا ووتوقف السيارات فى الشارع يحدث الكثير. هناك دائماً فى العالم بأسره هؤلاء النساء اللواتى تتحول حياتهن إلى نضال دائم بمفهوم خاص ومعايير مختلفة عن معايير النضال البطولى الذى عرفناه. أم تسعى لرؤية ابنها المحتجز فى تهمة نشل أو زوجة تريد أن تتأكد من وصول الطعمية لزوجها بالداخل.. نساء يعرفن كيف يبدأن مشاجرة ومتى يجب أن تنتهى، يعرفن الأرصفة والأزقة فى القاهرة، يعرفن متى يرتفع الصوت ومتى ينخفض، نساء لا يتحدثن عن الكرامة الشخصية ولا عن الرؤية المستقبلية، نساء لا يرغبن سوى فى تحويل الحاضر إلى واقع حى وملموس ومعاش... يعرفن قواعد التعامل مع العساكر، الاسترحام أولا ثم الإلحاح ثم فقدان الأعصاب ثم

الدعاء عليه ثم "إنت زى ابنى"، "ربنا ما يوقعك فى ضيقة"، "ريح قلبى يا بنى"، "دانا ولية شقيانة وباجرى على يتامى". والعسكرى الذى يريد أن ينافس الضابط فى القسوة يتركها تسترحمه وتغريه بقدر ما فى جيبها "هاشوفك بالشاى والدخان"، وعند اللحظة التى يوشك فيها العسكرى على القبول لأن قلبه رق بالفعل أو لأنه استرد بعض رجولته المهدرة دائما أمام الضابط الكبير، عند هذه اللحظة يقرر الباشا أن يصل المبنى. يدفعها العسكرى بعنف "وسعى يا ست، ما تجيبيش لى الكلام". هنا تنهار كل جهودها ويتوجب عليها أن تبدأ من جديد. الماهرة هى التى تغافل العسكرى وتفلت من الحصار لترتمى عند قدمى الباشا "والنبى يا باشا، أبوس رجلك يا باشا، جوزى يا باشا". الباشا الذى يرى فى سلوكها خرقاً لهيبة النظام يرميها بنظرة استنكار ويقول بحسم "لمى نفسك ياولية بدل ما ألمك"، تعود المرأة محبطة وتتمتم بصوت مسموع لكل العساكر "يورينى فيك يوم يا ظالم"، ومن باب التواطؤ يتظاهر العسكرى أنه لم يسمع شيئاً ويمضى فى مواساتها.

أصل إلى الإشارة التالية حيث تكون كلية الفنون التطبيقية على يمينى بجموع الطلبة التى تعبر الشارع وحديقة الأورمان على يسارى حيث يتهادى قلة من المحبين، أوشكوا على الانقراض، وهم يتلفتون حولهم بحذر خوفاً من النظرات وتحسبا للنتائج. إشارة طويلة، أتسلى بفتح حقيبتى أو تصفح كتاب ملقى بإهمال على المقعد بجانبى أو إغلاق نوافذ السيارة لأوفر بضعة ثوان

عندما أصل. فى كل مرة يلمحنى "محمد" فيأتى من بعيد مسرعاً، "صباح الخير يا ست الكل"، "صباح الخير يا محمد، متشكرة مش عايزة النهارده"، لا يمكن أن أشترى علبة مناديل ورقية فى كل مرة أراه فيها. فى فترة سابقة وجدت حوالى عشرة علب متشابهة فى أنحاء المنزل. عندما سألنى "محمد" أول مرة "المهم إنت عاملة إيه؟" بهت من السؤال، ثم فاجأنى أكثر عندما أنهى الحوار بسؤال حميمى للغاية "مش عايزة أى حاجة؟ بجد والله". مر عامان و"محمد" لا يغير السؤال فأصبحت أبحث عنه كلما يختفى. فى خلفية حوارى مع "محمد" مشهد مريع لكنه أصبح معتادا (لمن؟). عسكرى وشخص ارتبط مصيرهما بالأصفاد الحديدية، يسيران تحت لهيب شمس القاهرة، لا أميز من فيهما الذى يقود الآخر، البؤس يعلو وجهيهما، الإرهاق باد على خطواتهما، والأرض لا تكاد تحمل ثقل قلبيهما. يتوقف العسكرى مع الشخص الذى يرحله عند كشك قابع فى الزاوية ويبتاع علبة سجائر. يتبادلان بعض الضحكات مع البائع الذى لا يدهشه المشهد. مشهد يجعلنى أتشبث بمقود السيارة أكثر، و"محمد" لا يزال منحنياً ليكلمنى عبر النافذة والمشهد بأكمله يدور خلف ظهره، "شكرا يا محمد مش عايزة حاجة. عايزة سلامتك".

عندما مرضت والدة "نهى" كنت أخرج من الجامعة لأتوجه إلى شارع القصر العينى وأبدأ البحث حوالى ساعة عن مكان أضع فيه السيارة،

وعندما أجد مكاناً فى النهاية يكون ميعاد الزيارة قد انتهى وهكذا إلى آخره من مصاعب القاهرة. أثناء رحلة البحث عن أى مكان أرى من عجائب القاهرة ما لا يوصف. ثلاثة أو أربعة أفراد يدفعون ترولى عليه مريض وشابة تحمل بيدها حامل الجلوكوز الذى لا زالت إبرته مغروزة فى ذراع المريض. فى الدورة الثانية حول المستشفى يتكرر نفس المشهد مع اختلاف الأشخاص، واختلاف آخر بسيط، كانت العائلة بأكملها - بصحبة الترولى- تشترى ساندوتشات فول وطعمية من إحدى المحال المتناثرة على جانبى شارع القصر العينى. كان البائع يواسى المريض.

هل هذه هى الرأسمالية؟ أم القسوة القاهرية التى لا تبالى لأحد؟ القسوة التى تجعل قلوبنا غلف وعقولنا باهتة. القسوة التى تحمل فى ظاهرها دهشة مروعة ما إن يقع بصرنا عليها حتى تهوى قلوبنا بدون صوت. دهشة أصبحت معتادة ففقدت صفتها الأصلية ثم أصبحنا ندهش من عاديتها.

ذاكرة الوحدة

أهل القاهرة نحن... أهل الكلام، لا نمل من إعادة الحكاية عشرين مرة وفى كل مرة يحول خيالنا الحكاية القديمة إلى حكاية جديدة لنجعلها حدوتة مشوقة. ليس للمستمع، بل لأنفسنا. نحن أمهر رواة بالصوت والصورة ولذلك مع نهاية اليوم نردد جميعا جملة واحدة "راسى تقيلة، عايز أنام"، فقد تقمصنا عدة أدوار على مدار اليوم، كنا رواة ومستمعين، وغالبا ما تلبسنا روح الحكيم الذى يحل كل المشاكل العويصة، الحكيم الذى غالبا ما يسدى نصيحة واحدة مملة لا تتغير "كل ده كلام فاضى، انسى الموضوع كأنه ما حصلش"، رغم أن كل الأشياء حدثت. نحن أمهر مستمعين، دور نعشق تقمصه لأنه يشعرنا بالتفوق على الآخر المنغمس فى التفاصيل الصغيرة. وفى اللحظة التى نقول فيها تلك الجملة يكون خيالنا مشغولاً بإضافة كل عناصر التشويق التى تحول الموقف إلى حكاية مشبعة لمن كان غائباً، ثم... "طيب، نتكلم بكره". عندما نبدأ التفكير فى يومنا الطويل وأدوارنا المتعددة يغافلنا النوم ويسرقنا على الوسادة. تراكمت الحكايات فى رؤوسنا، فاختلطت مشاعرنا تجاه بعضنا البعض، تزايدت الإشاعات وتضاربت فنتحالف ثم نتعادى ثم نتصادق ثم تفرقنا القاهرة، تماما كالملح والسكر عندما يضافا للطعام بنفس القدر. ليس من الغريب أن يشيع مطلب عام فى القاهرة

"لازم أقعد مع نفسي شوية". مطلب يتحول بعد قليل إلى اكتئاب عام مزمن مختبئ غير معلن.

كانت "سمر" أول من بدأ هذا التقليد فقررت أن يوم الاثنين من كل أسبوع هو يوم خاص بها. نجحت فى اقتناص اليوم فى أول أسبوع ثم توالى الفشل حتى مضى عامان الآن. تضاءلت طموحاتها، وفى ذات ليلة وكلنا مجتمعون بمنزلها فى عمارات العبور، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، انطلق جرس الهاتف، بعد الرنين المتصل نبهتها فقالت "لأ، أصل أنا باحاول أعود الناس إن الوقت ده على الأقل بتاعى أنا"... نظرنا إليها جميعاً بدهشة وكانت هى أول من انفجر فى الضحك عندما أدركت المفارقة. ولا تتغير لازمة "سمر" عندما نعلق على اختفائها "مطحونة والله يا حبيبتى، الشغل والبيت والعيال، ده أنا نفسى أقعد مع نفسى شوية ومش عارفة". يكره "كمال" البقاء فى المنزل ولكنه يؤكد "أنا بعدت عن الناس خالص، باقعد مع نفسى ومش باشوف حد". يتشابه معه "عماد"، "أنا بطلت أشوف الناس، قصص وكلام فارغ. الواحد يقعد فى البيت يسمع موسيقى ويتفرج على فيلم حلو، كفاية اللى باسمعه من العيانين فى العيادة طول النهار"، تتوق "غادة" إلى الاختلاء بنفسها لكنها تهرب من الفكرة دائماً بحجة المشاوير والمهام التى يجب أن تنجزها. "مصطفى" كعادته لا يبالى بالعالم وتدريجياً توقف العالم عن المبالاة به، لكنه بالطبع يعشق الاستماع لقصصنا جميعاً ويقول "علشان كده

الواحد يقعد فى البيت أحسن". "سارة" كانت تحقق كل هذه المعادلات بشكل غريب. تنتهى من عملها بالمركز الحقوقى فى وسط المدينة ثم تعود إلى منزلها فى المعادى وتختفى بضعة ساعات لتعاود الظهور ليلاً، وتتعمد ألا تجلس إلا فى وسط مجموعة كبيرة. فكان "مصطفى" دائماً ما يسألها "مين المظاهرة اللى معاكى النهارده؟" عندما تتقارب المواعيد تضطر "سارة" أن تلغى بند العودة إلى المنزل وتقضى عندى هذه السويعات القليلة. تأكل سريعاً ثم تخلع ملابسها وتجلس على السرير شبه صامتة وكأنها فى عالم آخر. عايزة شاى؟ طيب أعمل لك قهوة؟ حاجة حلوة؟ أشغلك التكييف؟ التليفزيون؟ أسئلة تجيب عليها "سارة" باقتضاب وكلها تصب فى سكة الرفض حتى تزمجر "بس بقى يا عيشة، هو أنا غريبة، بتعملى زى أمى اللى بتعزم على وأنا قاعدة بأكل معاها". لا أهتم بما تقوله وأسألها "هو حد مزعلك فى الشغل؟" تجيب بنفاذ صبر "يا ستى لأ، مافيش حاجة. أنا كده لازم أفضى دماغى شوية علشان أقدر أكمل اليوم".

أما أنا فلم أقل فى أى مرة أننى أريد الاختلاء بنفسى، فأنا أعرفنى، كلما كنت أجلس مع نفسى تهاجمنى الأفكار والوساوس هجوماً شرساً عشوائياً، أو تعود السنوات المنصرمة بدون سابق إنذار، دون أن أعرف كيف أدفع عن نفسى وحشتها وآثارها التى أتظاهر بنسيانها، تظاهر يكلفنى الكثير من الابتسامات وغصة دائمة فى حلقى، غصة تعتقد أمى أنها بسبب التدخين،

أوافقها الرأى وأتعهد أن أحاول التقليل من التدخين. عندما كنت أغتاظ من أمى وأنا صغيرة لأنها تمنعنى من شىء أو تهرنى أو تعاقبنى كنت ككل الأطفال أشعر برغبة فى الانتقام عبر إغاظتها أو استفزازها، ما كنت أتخيل أن قلبى سيدمى عندما أراها حزينة من أجلى، ويبدو أننى أحزنتها طوال السنوات التى مرت. أصبحت القاعدة أننى دائماً على ما يرام من أجلها، أضحك وأبالغ من أجلها، أؤكد أننى بخير، وعندما تهاجمنى الدموع أبحث عن مكان غير البيت لأبكى فيه أو أنتظر أن تنام لكى أبكى أو أتظاهر بالنوم لأنصت أننى بالوسادة وأبكى، وعندما فكرت أن أستقل فى السكن كنت أفكر فى الحصول على مكان أبكى فيه كما أشاء، أعبر عن غضبى، مكان أعلن فيه لنفسى أننى لست بخير ولست على ما يرام وأننى أريد أن أختفى من العالم الآن. حتى هذا الاستقلال الجزئى لم أتمكن من القيام به، فكنت كلما أنظر فى عينيها أتأكد من عدم قدرتى على المغادرة.

بارعة أمى فى بث الرعب فى قلبى. دائماً ما تلوح لى بشبح الوحدة المحتومة إذا لم أتخذ ملاذاً فى ظل رجل، لم تكن المسألة بالنسبة لها "أى رجل". كانت دائما المهنة هى ما يحكم رؤيتها للرجال. حتى تنازلت مؤخراً عن أى شىء مقابل أن تتأكد من وجود رجل ما يعلن وصايته بورقة. كانت ترى الجروح بوضوح وتفهمها ولكنها تتعمد تجاهلها لصالح الوصاية. لم تفقد الأمل مطلقاً فتحاصرنى بنظرات الشفقة والدعاء المسموع فى الفجر "اللهم

اهدى بنتى يا رب واستر عليها وارزقها بابن الحلال". تؤمن أمى بالستر وتتجاهل كل إمكانيات تحوله إلى عرى وتتمنى ابن الحلال الذى غالباً ما يكون حلاله مغروزاً فى تاريخ طويل سابق ملىء بالرغبة فى الوجود القسرى السخيف.

لم أتمكن يوماً من فهم الأمهات، تختار كل واحدة منهن إحدى بناتها وتقرر أن تعيد تشكيل الحياة بدبوس إبرة فى رأسها. حتى جدتى كانت تحاول فعل ذلك مع أمى، فما كان منها إلا أن مالت بكل ثقلها العاطفى على أبيها، جدى. فانتقلت جدتى لى لتمارس نفس الخبرة معى. كنت أخشاها قليلاً ولكننى كنت أفضلها على جدى العنيد الذى كنت كلما أرفض له طلباً يقول لى "أنا كنت مفتش نيابات الأحوال الشخصية، ما ترديش على يا بنت كوثر." بالفعل لا أرد عليه وأتسلل لجدتى وأجلس بجانبها وهى تخرط الملوخية بهمة شديدة. أراقب ورق الملوخية الذى يتضاءل إلى قطع صغيرة مع حركة المخرطة ذهاباً وإياباً، أبدأ اللعب مع نفسى فأغمض عينى وأراهن أنه عندما أعد لعشرة ثم أفتحها ستكون المخرطة فى طريق العودة. تقطع على جدتى اللعبة وتسأل "كنت بتعملى إيه عند زينب مع جدك؟" أرتبك لوهلة، وأسأل "زينب مين يا تانا؟"، "زينب اللى كنتم عندها الصبح". اسمها "زينب" إذن. أصطحبنى جدى فى الصباح معه لمنزل هذه السيدة وجنس قبالتها وكان يناديها "زينب هانم"، وأعطاها أوراقاً وقعت عليها ثم

أعادتها له وشكرته وكانت تناديه "حسين بك". كانت زيارة مملة بالنسبة لى وقررت بعدها أن أتمرد على تلك الصحبة التى يفصلنى جدى عليها. حكيت لجدتى كل ما حدث فنهرتنى قائلة "طيب مش عايزاكى تروحى للست دى تانى خالص".. خفت كثيراً ولم أفهم شيئاً إلا عندما ظهر جدى فى الأفق واتضح أن جدتى تغار عليه من تلك السيدة وأخذت توبخه بشدة وهو يدارى الضحك. ويقول لها "غير لائق، عندك خمسة وسبعين سنة وتتصرفين كفتاة غير راشدة". كانت هذه الجملة هى التى أشعلت الفتيل، انطلقت جدتى فى وصلة صياح تركية كدت أموت رعباً منها لأنها كانت محملة بالوعيد والتهديد، وكانت تنهل من تاريخ الأتراك والألبان والسلاجقة و"محمد على". كلما أتذكر هذه المشاجرة الآن أضحك كثيراً، كانت مشاجرة تاريخية عرقية. كانت جدتى تصر أن تعلمنى اللغة التركية فيحاول جدى أن يدمر لها مجهودها ليعلمنى الفرق بين التركية والألبانية. فقررت أمى أن تعلمنى الفرنسية حتى تمردت عليهم جميعاً وتعلمت الإنجليزية. لم أنس أبداً تركية جدتى ولم أتخلص من عادة أكل الحلو والمالح معاً. كنت كلما أذهب لها تضع لى رغيف بلدى طازج وطبق به قطعة جبن أبيض وطبق آخر به عسل أسود. كنت آكل دون أسئلة معتقدة أن هذا طبيعى حتى جاءت خالتى فى يوم وقالت لى "إيه يا عيشة ده، حد ياكل حلو على حادق؟" أسكتتها جدتى بنظرة وقالت "لازم نتعود ناكلهم مع بعض. الحلو والحادق زى الدنيا

تمام". ونجحت جدتى أن تشكلنى بدبوس إبرة. وبتلقائية كنت فى أمريكا أغمس البطاطس المقلية فى العسل الأبيض!

لم تيأس جدتى ولم تتوقف عند الجبنة والعسل، كانت تلاحقنى بكلمة "شفتشى" كلما أصر على البيات عند خالتى "سعدية". "سعدية" ليست خالتى ولكنها زوجة الأخ الأصغر لجدتى. رآها "محمد أرناؤطى" أثناء زرع الحوض الشرقى بقرية هيبا فأحبها وأصر على الزواج منها رغم المعارضة العائلية الشديدة. فهى بالنسبة لعائلة جدتى لم تكن سوى "شفتشى" أى فلاحة بالتركى. عاملها الجميع بازدراء فى البداية وخالتى "سعدية" تصمت وتخبز مزيداً من الفطير المثلثات وتطهو الحمام المحشى وتحرص على لف ورق العنب حتى يكون بحجم البنصر، ثم تحمل الأوانى المكدسة بالطعام لمنزل جدتى، تضع الأكل فى صمت، وتتظاهر أنها لم تسمع التعليقات ولم تلحظ النظرات. بعد سنين تحول موقف العائلة فأصبحوا يصفون خالتى "سعدية" أنها "غلبانة" و"مالهاش حس" وف "حالها". لم تكن هذه الأوصاف تحمل معنى القبول بقدر ما كانت تعبر عن قبول الأمر الواقع المتدنى، لكن لم يتوقف أحد عن استخدام اللغة التركية فى حضورها - عدا التعليقات على ملبسها ولون بشرتها - لكى لا تنسى أبداً الفرق بينها وبينهم.. بيننا. كان جدى يواجه كل هذا التعصب بمزيد من الأوراق التى يكتبها عن تاريخ الأرناؤوط ويعلقها فى كل أنحاء المنزل، تقرأ جدتى ما يكتبه خلسة ثم

تقول له "حفظنا تاريخ الأرناؤوطلك" فيجيب "احنهم أرناؤد يا افرنجية". وتبدأ مرة أخرى مشاجرة الألبانى والتركية. وأهرب أنا إلى خالتى "سعدية"، كلما تجىء لزيارة جدتى أحضر نفسى لوصلة بكاء طويلة حتى تقبل جدتى أن أغادر معها لأقضى فى منزلها المجاور يومين. كنت أعرف دائماً أن قلب جدتى سيرق فى النهاية وأنها ستوافق. يحسم الأمر بمجىء شقيق جدتى ليصطحب خالتى "سعدية" فأتعلق بيده وأقول "انا أنا عايزة أروح معاه". يربت على كتفى ويتوجه لأخته قائلاً "عائشة معانا فى الحفظ والصون يا عزيزة هانم". بمجرد أن ينطق اسمى صحيحاً توافق جدتى وتنفرج أساريرى. أسير فى الشارع متعلقة بيد خالتى "سعدية" وأنا أكاد أطير فرحاً. الإحساس بالانتصار، أحلام الحرية تتراقص أمامى. نوم بدون مواعيد، مشاهدة التليفزيون، صخب وضحك ولعب، جلوس على الأرض، ونساء يهمسن ليلاً بأسرار لا أفهمها، وبابور جاز تخرج من فوقه أجمل الأطعمة. أقضى يومين كاملين فى اللعب مع "أحمد" و"علاء" ابنى خالتى "سعدية"، يصطحبنى "أحمد" فى الصباح المتأخر لشراء الإفطار، فول وطعمية وباذنجان من عربة تقف أمام المنزل مباشرة، أراقب حلقات الباذنجان التى يتغير حجمها فى ثانية بعد هبوطها فى الزيت المغلى، وفى المقلاة المجاورة تخرج كرات العجينة من يد البائع لتهبط فى الزيت فيتغير لونها فوراً وتتماسك، لو علمت جدتى أننى أقف فى الشارع أمام الزيت! ثم ننعطف يميناً لشراء الخبز البلدى من الفرن، نحمل الأرغفة وفى طريق العودة أقول لـ"أحمد": "عايزة حلاوة شعر".

يبتسم وينظر لى نظرة ذات مغزى فقد كان يعرف أن كل ما أطلبه هو خروج عن تعليمات جدتى. نذهب للبقال الذى يعرفنى ويقول "ازيك يا أمورة؟" لا أجيب، قالت جدتى ألا نكلم الغرباء ولا نرد عليهم. يبتاع لى "أحمد" حلاوة شعر بقرشين، كان ذلك أقصى أحلامى، فقد كنت أشترى سراً حلاوة بتعريفة لأتمكن من التهامها سريعاً قبل أن تراها جدتى. يناولنى البائع قرطاس ضخم تتدلى منه الحلاوة أبدأ فوراً فى التهامها ونحن على وشك المغادرة يقول لى البائع "سلمى على ستك". أرتعد وأرتبك فلم أفهم معنى الكلمة، أفهمنى "أحمد" أنه يقصد جدتى، أسأله "هو يعرفها منين؟" فيجيب "ما يعرفهاش، هو عارف كل بيت كده بس، مين اللى فيه، من بعيد لبعيد". أعاود السؤال "يعنى حيقول لنانا إنى أكلت حلاوة؟" يضحك "أحمد" ولا يجيب. أنسى الموضوع وأقرر أن أستمتع بالحلاوة فتتساقط الأرغفة من يدى لانشغالى بالقرطاس، يسارع "أحمد" لرفع الأرغفة التى سقطت منى، يقبل كل رغيف ثم يضعه على جبهته، يفعل ذلك ثلاث مرات مع كل رغيف. أسأله عما يفعله، أسئلتى لا تتوقف و"أحمد" صبره ونشاشته يكفيان الدنيا، "حرام نعمة ربنا تقع على الأرض". كشفتنى جدتى بعد ذلك عندما سقطت منها قطعة لحم فى المطبخ فسارعت إلى التقاطها وتقبيلها كما فعل "أحمد"، صرخت فى وجهى بالتركية وحملتنى إلى الحمام وصارت تصب على مياه ساخنة وأنا أصرخ من الفزع وهى تصرخ فى نفس الوقت "عايزة اللحمة النية تسممك يا شفتشى".

نعود أنا و"أحمد" محملين بالغنائم فيتحلق الجميع حول الطبلية، "أحمد" و"علاء" وخالتى "سعدية" وابنتها الكبرى "سهير" ورجل مسن لا يتكلم ويأكل قليلاً ودائماً ما تقول له خالتى "سعدية": "كل يا حاج مبروك، مد إيدك ما تكسفش" والحاج يهز رأسه ويقول "الحمدلله على نعمة ربنا"، ثم يغادر وهو يتمتم بكلمات لا أفهمها. ويظهر مرة أخرى على طبلية الغداء. أسأل خالتى "مين ده؟" تجيب "ده جارنا من زمان، وحدانى ومالوش حد، راجل مبروك بصحيح". لا أفهم نصف الكلام وأستمر "بس ليه واحد مش عارفينه يقعد كده؟" تهرنى بحنان بالغ "لأ يا عيشة، الناس لبعض يا حبيبتى، دى لقمة هنية تكفى مية وإنت من بيت أصول وكرم، ما يصحش تقولى كده". أسرح فيما تفعله خالتى، أجلس كل يوم أمامها والبانيور بيننا، أراقبها وهى تخرط البصلة مباشرة فى الإناء، تتحرك يديها بخفة ومهارة وسرعة، حاولت على مدار الزمن أن أقلدها فى تخريط البصل ولم أفلح، تتساقط قطع البصل فى السمن المقدوح وتفوح الروائح. حتى اليوم كلما أشتاق لخالتى "سعدية" أبتاع علبة سمن خصيصاً لأقدح بصلة، وتعود خالتى "سعدية" مع الرائحة. بعد تخريط البصلة أفقد اهتمامى بالمراحل التالية المتضمنة تسبيك الصلصة وتقطيع الخضروات. أقوم لألعب أمام المنزل لعبة الأولى المبهرة وبدلاً من استخدام طوبة أعطتنى "سهير" علبة كريم "نيفيا" صغيرة وملأتها لى بالرمل. أدعو علاء ليلعب معى فيرفض ويقول "دى لعبة بنات"، أشكوه لخالتى "سعدية" فتقول له "العب مع عيشة يا علاء، فيها

إيه؟" يشاركنى "علاء" اللعب على مضض ثم ينسى ويندمج تماماً. أتعب من اللعب فأعود للداخل وأقول "تعالى العبى معايا يا خالتى"، تضحك من قلبها، كنت أحب ضحكتها الرائقة "يا عيب الشوم يا عيشة، ألعب ازاى، يا ربيت، تعالى إنتِ زغطى معايا البط". تمسك خالتى بالبطة وتزغطها حبة فول وعندما أرى رقبتها تنتفخ أصرخ "حاسبى يا خالتى، حتموت". "ما تخافيش، هو البط لازم يتزغط كده". أنام ليلاً على صوت هديل الحمام، وبعض الأصوات القادمة من بعيد وأفكر فيما ستقوله لى جدتى عندما أعود. خرجت إلى العالم بتعاليم جدتى التى خرقتها كلها بتعاليم خالتى "سعدية"، فتأتى أفعالى متناقضة بشكل صارخ.

فى طريقى لمقابلة "هاجر" مررت على محل لبيع الطيور، وقفت أبحث عن صوت يشبه هديل الحمام فلم أسمع سوى أصوات عصافير وببغاء مزعج. كنت قد اتفقت مع "هاجر" أن نجلس فى إحدى تلك المقاهى الحديثة التى تميزها عن القهوة المتعارف عليها وتسميها "كافيه". كوب القهوة بثمانية جنيهات. كانت "هاجر" تحكى الكثير عما تقابله فى محنتها كمدرسة أطفال وأنا أستمع ثم سرحت فى غلاف مجلة ملقاة أمامى تتصدرها امرأة رائعة الجمال، لا أثر لأى هالات سوداء تحت عينيها ولا أثر لهم واحد على وجهها ولا تشى ملامحها بأية فكرة، ظللت أنظر إليها فى محاولة منى لفهم ما كان يدور برأسها حين التقطت لها تلك الصورة. ويبدو أن "هاجر" انتبهت لغيابى عنها فصاحت

"يا عيشة يا جميلة رحب فين، اللى واخد عقلك". ضحكت من هذا التعليق الذى طالما سمعته على مدار السنوات والذى دائما ما سألته لنفسى ولم أعرف أبدا أين كنت، ضحكت وأشرت لغلاف المجلة وسألتها "هم مين دول يا هاجر؟ يعنى بيحصلهم كده ازاى؟" وبسرعة شديدة انطلقت "هاجر": "إنت شربات يا عيشة، دول عرايس بلاستيك، بس عموماً دى ممثلة أمها روسية ومتربية كويس قوى". أعجبتنى كلمة "متربية" كلما أسمعها أشعر أننى عديمة التربية ثم أكتشف أننى لا أعرف كيف أكون "متربية"، هل أتبع جدتى أم خالتى "سعدية"؟ بلا مبالاة أقول لـ"هاجر" وأنا أحتسى آخر رشفة فى كوب القهوة الضخم "واضح إن أنا مش متربية خالص، أمى غالبا شايفة ان أنا ماليش لازمة فى الدنيا، ما عملتلهاش ولا فضيلة من الصورة اللى كانت رسماها فى دماغها". أحكى لـ"هاجر" عن دعاء أمى المسموع عند الفجر فتضحك وتضحك، وتقول "تيجى نبدل". تخبرنى "هاجر" عن أمها التى تحذرها دائماً "خلاص يا "هاجر" انسى موضوع الحب والجواز ده خالص، المهم شغلك وبس". يصيبنى الذهول من حكاية "هاجر" ومن أمها ومن رعب أمها أن تقع ابنتها فى الحب(الأمهات والملكية، العالم والملكية، نحن والملكية، وهم الملكية التى لا نملكها. نحن لا نملك شيئاً.)

مدونـــــــة رفايـــــع

ذاكرة أشباح

لم أستغرب كثيراً عندما كانت الدموع هى ما استقبلت به برلين. بعد غفوة قصيرة استيقظت وجلست على السرير، نظرت حولى ببلاهة وتحسست ظهرى الذى آلمنى من المرتبة اللينة وبدأت أبكى، كنت أفكر فى سريرى فى القاهرة وحجرتى وتفاصيلى. هاجمتنى الوحشة دفعة واحدة، كأن العالم تركنى وحيدة وغادر، كنت أبكى وأنا أفكر فى المرتبة القاهرية المزعجة ذات السطح غير المتساوى، ثم فجأة تذكرت أمى وبكاءها وأنا أودعها، وتذكرت تقلصات وجهها التى تسبق البكاء، فبدأت أبكى من أجلها، ثم بدأت أبكى لأننى أبكى، وكأننى جئت برلين لأجد مكاناً أبكى فيه. ثم أنتبه إلى كل هذا الرثاء للذات فيزداد البكاء. أقوم فجأة من على السرير بعد أن تنهكنى الدموع وأقول بصوت عال "إيه المناحة دى؟" ثم أبتسم لنفسى باعتبارى قلت نكتة. أدركت فجأة أن المواجهة قد حانت وأن ما هربت منه دائماً قد حان الآن قسراً. لم أنم طوال الليل من ذعر المواجهة، ليال وليال لم أنم. كنت أغمض عينى ثم تبدأ كل المشاهد التى أردتها أن تختفى. مشاهد قلت فيها كل ما لم أقله من قبل، مشاهد وهمية من الجدل والنقاش. ثم تطور الأمر وبدأت أدفع عن نفسى الأشباح التى كانت تهاجمنى ليلاً وأصبحت تأتينى نهاراً، تحولت برلين إلى مدينة الأشباح، أشباح أنا فقط

التى تراها، أشباح أطلت برأسها بعد سنوات لتؤكد قوة وجودها، أشباح تجىء فى أرواح أحبتها ووجوه كرهتها. هاجمتنى القاهرة بكل حكاياتها ونسائها. تضخمت حكايات القاهرة وتحولت برلين إلى عدسة مكبرة، ولكن برلين لا تضخم إلا الأحزان، وكأنها تلتقط من الروح كل خيوط الألم لتجدلها حول القلب، لتعصر بها القلب، لتهدده بالتوقف عن العمل فى أى لحظة إن لم يستجب ويخضع لسياط الأشباح. أتذكر أمى مرة أخرى فأدفع قلبى إلى التحمل رغم كل إغراءات الإختفاء والتلاشى.

أحاور أشباحاً لا أراها إلا فى منامى، أعتذر وأحاور وأجادل لكن الحساب معقد فكلما انتهى من قصة يواجهونى بقصة أخرى، قصة ظننتها انتهت وطواها النسيان... هؤلاء الأشباح لا ينسون صغيرة ولا كبيرة، فقط القاهرة هى التى تنسى ويبقى أشباحها مسلحين بذاكرة تجلدنا فى أية لحظة. تنام القاهرة ولا تنام الأشباح. كيف أهرب من عيون تلك الأشباح؟ هربت من نفسى وهربت من القاهرة ولا أستطيع الهروب من أشباح مزعجة. أحاول الهروب فى البرودة. أضع معطفى وأتمشى فى الطرقات ليلاً. البرودة تجمد أطرافى والألم يلهب روحى والهدوء يقتلنى، أعود منكسرة الروح وقد أعيانى البكاء بدون سبب، أرتمى على السرير وأقول "غدا أتصل بالقاهرة".

ويأتى الغد لتترك لى الأشباح الصباح وتعود فى المساء، ولا أعرف ماذا أفعل بيومى، فأتصرف وكأننى فى مشوار مؤقت سينتهى قريباً، وأننى

سأعود سريعا لأحكى لأهل القاهرة عن المتحف المصرى فى برلين وعن جمال نفرتيتى. تقفز إلى ذهنى صورة عم "أحمد" وهو يحتسى بتلذذ كوبا ثالثاً من الشاى ويحدق فى سقف الغرفة رغم جلوسى معه ويقول بصوت مبحوح "الناس وحشة قوى"، "ليه بس يا عم أحمد، دول زى الفل"، "بكره تعرفى". ويبدو أننى عرفت أكثر مما يجب، تجاوزت الخطوط الحمراء فى المعرفة، لكن القاهرة تمحو كل الخطوط والحدود حتى لا نكاد نعرف أين نقف. والقاهرة لا تقبل الأعذار، القاهرة الصارمة.

يقرصنى الجوع وأشعر بوخزة حادة فى معدتى، فأذهب إلى السوبر ماركت المجاور وأحاول عبثا أن أبتاع شيئاً أفهمه. تنتهى محاولاتى بنجاح صغير وفشل كبير. أضطر مرة أخرى إلى اللجوء للمطعم الأمريكى الكائن أسفل البناية. أجلس وحيدة إلى مائدة تكفى أربعة أشخاص، أطلب ما تمكنت من فهمه، فالنادل يصر على محادثتى بالألمانية، ثم أدخن بضعة سجائر وأصعد إلى غرفتى، والقاهرة تملأنى تماماً. أتسمر أمام شاشة الكمبيوتر، أتصيد كل خبر عن القاهرة، أقرأ أخباراً لم أهتم بها من قبل، أتابع تفاصيل كنت أراها سخيفة ومملة، أتصفح كل الصحف على الإنترنت وعندما يعيينى الصمت أكلم الكمبيوتر بصوت عال أو أكلم صورتى المنعكسة فى زجاج النافذة أمامى، فأستنكر أحياناً "معقولة اللى بيحصل ده؟" أو أندهش "إيه ده... إيه ده؟ لأ حرام بجد"، وكثيرا "ولاد الذين... الحرامية، سرقوا البلد

خلاص". أضغط على زر البريد الألكترونى لأقرأ الرسائل بمنتهى التأنى وأعيد قراءتها مرة واثنين. أجيب على الرسائل بعناية، أصف الطقس وبرودته التى لم أر مثلها من قبل، أتحدث عن انطباعاتى الأولية، وأحكى كثيراً عن كنيسة سانت مارى الواقعة فى الجزء الشرقى من المدينة والتى يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر، ولا أحكى أننى أوقدت فيها شمعة ووضعت مقابلها يورو فى العلبة المعدنية، ولا أذكر شيئاً عن الأشباح. أصف تفصيلياً جدارية "رقصة الموت" التى يصل عرضها إلى اثنين وعشرين مترا وطولها مترين. ولا أذكر شيئاً عن رقصة الموت التى أشارك فيها الأشباح كل ليلة. يأتينى الرد أو لا يأتى، رسائل القاهرة قصيرة ولاهثة ومتعجلة ومنهكة مثل أصحابها. كل جملة تحمل مشكلة وكل مشكلة معادة وقديمة، بعض الرسائل تحمل شكاوى من الدنيا والمشغوليات والوقت الضيق. وهناك رسائل متثاقلة تكتب بحكم الاعتياد وضرورة المجاملة. ورسائل مليئة بالدفء والود، وهناك رسائل تمنيت ألا أقراها لأنها مغرقة فى العادية والجفاف من قبيل "الشغل كتير وأنا لوحدي" أو "آلام ضهرى فظيعة" أو "كنت عيانة بقالى أسبوعين" أو "كنت عايزة أكتب من زمان بس مش فاضية خالص".

أتشبث بالقاهرة وأحاول بعث ليالينا الدافئة، أطهو لـ"حنان" سبق ابتعته من سوبر ماركت تركى اكتشفته بالصدفة وأوقد شموعا وأضع أغنية

"هجرتك" لـ"أم كلثوم" فى جهاز التسجيل، وأتدفق فى الحكى عن القاهرة لأستحضرها. وأسبق كل حكاية بـ"عندنا هناك فى القاهرة..."، تستمع إلى "حنان" باهتمام وتسألنى عن التفاصيل وتقول "بجد، فين الحاجات دى ما شفتهاش"، فأجيب "لأ أنا هأوريكى القاهرة اللى على أصلها"، أتدفق فى الحكى عن أهل القاهرة، أمجدهم وأعظمهم وأعيد رسم صورهم وأفتخر بهم، أقص حواراتهم ونكاتهم وأبالغ فى التمسك بروح المكان. كنت خائفة ألا أعود كما ذهبت، كنت أدافع عن قاهرتى حتى النهاية، كنت أصارع الأشباح بسبب القاهرة ومن أجلها.

أبحث عن قمر القاهرة فى سماء برلين فلا أجد إلا السحب والغيوم والمقاهى التركية التى تقدم الشيشة والتى يعشقها الألمان ويعتقدون أننا نعيش فيها. يؤمن الألمان أننا كلنا مثل "شهاب" لا نغادر الشيشة مطلقاً ونقضى ليالينا فى المقاهى. وغالباً ما تكتمل الصورة لديهم عندما يرون قرطاً فضياً يتدلى من أذنى. فى النهاية كلنا بالنسبة لهم لسنا إلا أتراك. أتوجه إلى مطعم مصرى فى ميدان سافينى فأكتشف أنه يقدم أكلاً مغربياً رغم أنه يسمى نفسه "الفرعون المصرى"، تضحكنى "ال" التعريف لأن كل من حكمونا كانوا فراعنة بامتياز، فمن هو المقصود بالضبط؟ ينتابنى الملل والاختناق من التنقل تحت الأرض بمترو الأنفاق، فأستقل الأوتوبيس بدون هدف وأصعد إلى الطابق الثانى لأرتفع عن الأرض بقدر الإمكان، أتأمل البشر من فوق

فأجدهم بعيدين وملامحهم غير واضحة. تبدو القاهرة الآن بعيدة للغاية... هناك فى مكان ما... فى صفحة روحى تهت ملامحها وتخفت أصواتها وبهدأ صخبها، هل هى التى تخرج منى أم أنا التى أخرج منها؟ تملكنى الإحساس باليتم، ولم أستطع أن أتخيلنى خارج رحم القاهرة.

ذاكرة العودة الأولى

هكذا ارتميت فى أحضانهم دفعة واحدة فى محاولة لاستعادة رائحتهم وملمس جلدهم ورغم وجوههم الباهتة وأصواتهم المتحشرجة لم يهدأ صخبى، ورغم الملوحة التى ظلت مستقرة فى حلقى لعدة أيام بفعل التلوث الجبار لم أتوقف عن الاستمتاع بالتدخين فى القاهرة. لم تستقر عيناى فى مكان واحد ولم تهدأ روحى فى أعتى شوارع القاهرة، كنت أختصر ساعات النوم وساعات التنفس وضربت عرض الحائط بكل طقوسى الصباحية والمسائية، لأدخر القاهرة داخلى، درت ألتهم الشوارع والوجوه، أضحك لكل قفشة حتى السخيف منها، أنصت لكل حكاية حتى الكاذبة منها، أذهب كل الأمكن حتى التى لم أكن أطيقها، وأتغزل فى الجو المليء بالغبار.

أشتاق لنهار القاهرة فى ميدان السيدة نفيسة. أضع سيارتى فى المكان المخصص للانتظار وأتوجه إلى الباب الخلفى المخصص للنساء. أمر عبر حارة ضيقة جلست النسوة على أحد جوانبها يبعن الورد والبخور "للمست" وعلى الناحية المقابلة كراسى متهالكة تشكل مقهى يقدم مشروبات وفول نابت. نساء يخرجن من الجامع ويطلقن الزغاريد فأتساءل عن فرحى الناقص دائما... ربما هو الطريق نحو الاكتمال، نساء أخريات يرتدين الأسود ويبكين

فأتعجب من وجعى المستمر. أخلع حذائى وأمر عبر الباب المفتوح بهدوء على مصراعيه. باب يستقبلك بالأحضان الدافئة، ثم باب آخر يقضى لمقامها كأنها كانت تنتظرك أنت بالتحديد، تشعر بأهميتك وتبدأ فى تشكيل خصوصية المناجاة. قبل أن أغادر إلى برلين قلت لها فى مشهد مماثل "أنا تعبانة يا ست نفيسة" ثم شعرت بالحرج من إلقاء همومى هكذا دون حتى إلقاء السلام والتحية. سلمت عليها وتمنيت لها الخير ثم حاولت تنميق بعض الجمل التى تليق بمقامها. "الحقيقة جئتك فى موضوع سخيف بعض الشىء" أحذف كلمة "سخيف" لأنها كلمة سخيفة، لماذا آتى لها بالسخف؟ "أريد أن أحدثك فى شىء يؤرقنى ويحيرنى" أتراجع، لابد أن أحدد مطلبا فلن تسمع منى كل هذه المقدمات. أتذكر الدعاء وأقول ثمانى عشرة مرة:

كم حاربتنى شـــدة بجيشها فضاق صدرى من لقاها وانزعج
حتى إذا أيست من زوالها جاءتنى الألطاف تسعى بالفـــرج

أنتهى من الدعاء وأنا ألهث ثم أنظر حولى فأرى الرجاء على الوجوه وأسرح فيها. أفيق على صوت حاد لامرأة مقعدة مسئولة عن المقام "حرام اللى بتعمليه ده، صلى بعيد عن المقام".

تنهمر دموعى وأقول "أنا تعبانة قوى يا ست نفيسة" أستند بظهرى على الباب فى محاولة لتمالك نفسى أمام "نفيسة بنت الحسن"، لكن النساء لا

يمهلنى فكل واحدة كانت تريد أن تستند إلى الباب حيث لا سند إلا هو. تعلمت فى العودة الأولى أن أدس بضعة جنيهات فى يد تلك المرأة ثم أشفعها بالكلمة السحرية "كل سنة وإنت طيبة"، وكان أن تغاضت المرأة عنى تماما.

فى كل مرة وأنا أغادر السيدة نفيسة أودعها بحرارة وكأننى لن ألقاها مجدداً. سألنى صديق خسرته منذ مدة - ومازلت أشتاق لرؤيته - "اشمعنى السيدة نفيسة؟" بهت من السؤال وتلعثمت وأخرجت كلمات غير مفهومة، ما تسميه أنت يا "روضة" "حروف زيادة". لا أذكر التنظير الذى تطوعت به فى تلك الليلة، لكننى لن أنسى أننى أردت أن أقول "كده وخلاص". جملة حاسمة تمجد الفردية والمشاعر الجوانية التى لابد وأن تمنع خصوصيتها إبداء أية مبررات. لكن القاهرة لا تعترف بالخصوصية. الحياة فى القاهرة كلها فى العام والمكشوف والمعلن والمبرر والشائع والمقبول والمفهوم، تتكون الحياة بأكملها على وزن "مفعول".

أغادر النست وأنا منتشية، شعور بالإنجاز يكاد يصل إلى شعور بالتحقق، ثم يصل إلى إحساس التطهر من كل حكايات القاهرة التى أسمعها مرغمة أحيانا ومقبلة أحياناً أخرى، ربما هو شعور بالخفة اللانهائية، استغناء عن الكل فيما عدا النست. انتقال فى المكان يشبه التعثر المفاجئ فى ثلاث درجات سلم يتبعه خمس ثوان من الإنقطاع عن الحياة بفعل الصدمة. ربما

يكون الأمر كله ليس إلا "كيتش" بلغة أهل برلين حين يوصمون شيء لا يعجبهم.

في عودتي الأولى كنت مازلت مغروسة في القاهرة، معجونة بغضبها وغبارها وحكاياتها، لم أستطع إقامة تلك المسافة التي تتغنى بها "سمر". كنت أغادر مقام الست لأتفحص هاتفي المحمول ثم أرمي بعض قذائف الغضب تجاه "مصطفى"، ذاك النائم الأبدي. فأجد مبتغاي في "كمال" و"نهى" و"سارة". "مصطفى" و"كمال" وجهين لعملة واحدة. ورغم اختلافهما الظاهر لكل عين إلا أنهما متشابهان خاصة حين يقيمان علاقات عابرة مع نساء، ويؤكدان "والله ما في حاجة، عادي، احنا أصحاب". المشكلة أن هؤلاء النساء يتطوعن بالحكي عن هذه العلاقات. وفي كل مرة نضحك ونقول "رجالة عبيطة بشكل". وتضحك "سميرة" وتقول "هما يخبوا ليه؟ يمكن متجوزينا واحنا مش واخدين بالنا؟" وتمد "سارة" يدها في مخزون حكاياتها وتبدأ. "مرة عرفت "مصطفى" على واحدة صاحبتي، يعني ما كانتش صاحبتي قوى. بعد أسبوعين يا حبيبتي أبقى قاعدة مع "مصطفى" ألاقيها بتكلمه على الموبايل وبتتفق معاه على ميعاد. يصادف إن في نفس اليوم أكون متفقة معاها وتعتذر وتقولي "أصل المود بتاعي مش كويس". مرة على مرة، ابتدت يا حرام تحكي له مشاكلها العاطفية، وآخر مرة كانت موجودة في عيد ميلاد "نهى"، كنت إنت في ألمانيا يا "عيشة"،

احتفلنا في مكان كده في المهندسين مش فاكرة اسمه، اتعاملت معانا كأننا أشباح وقعدت جنب "مصطفى" وبدأت تتأمل في الفراغ رغم إن الموسيقى كانت تصحي الميتين. أصل "مصطفى" كان ابتدى يدخل في النوم فهي يا عيني افتكرت إنه في حالة تأمل، قوم إيه.. قعدت تتأمل معاه من باب الإيهار يعني. طبعا "مصطفى" بعد كام شهر كان نسي الموضوع بعد ما خلاص فقد دهشته، وحياتك وهي كمان. بس ألطف حاجة في الحكاية إنهم مش عارفين لحد دلوقت إن كلنا عارفين. باعتبارنا أغبيا يعني، لو بس الناس يتعاملوا معانا على إننا بنفهم".

"مصطفى" ينام طوال اليوم أما "كمال" فيقضي يومه في الشارع. "مصطفى" مؤد بارع بينما لا يفهم "كمال" فنون الأداء، فيما عدا الكذب الساذج غير المبرر الذي أتقنه مؤخرا وبدأ يختفي بعده. يترك "مصطفى" العنان لشعره حتى تبدأ في مناداته بإنسان الغاب أما "كمال" فهو حليق دائما حتى الثمالة، والاثنان مولعان بالمجاملات الفارغة من كل مضمون التي توحي بالثقة للآخر وتشعره أنه أقرب صديق. أما الشيء الحقيقي الذي يجمعهما - دون أن يعرفا بالتأكيد - هو أن كليهما لا يعرف أي شيء عن أي شيء. كل ما في الأمر أنهما ينتظران شيئا مجهولا لا يأتي، وربما لن يأتي مطلقا. كلاهما مستعد للفعل وراغب فيه إلى حد اللافعل. وكلاهما تحول

فمه إلى ما يشبه مغارة على بابا وهم يرفضان معا الذهاب إلى طبيب الأسنان.

فى العودة الأولى حمدت الله أن "غادة" بشرتها داكنة نوعاً ما فلا يظهر الشحوب على وجهها بوضوح وإلا كانت ستبدو كتمثال يقف بأناقة فى متحف الشمع. أجلس أمامها وأستمع إلى قصة غياب كما الموت تماماً، ولا يملك سوى الصمت لأننى خبرت الموت من قبل فى أشكال مختلفة، لكننا نفهم الموت الذى يعبر فيه الأحياء إلى الشاطئ الآخر، أو هكذا نقنع أنفسنا لنتمكن من مواصلة الحياة فى ظل غياب مفاجئ. كل أصدقائى يسمون الموت المفاجئ "عبث" ويؤكدون على الكلمة فيخفضون صوتهم حين نطق الحروف الثلاثة وتكتسى وجوههم بتعبير محايد فى محاولة لإضفاء قدسية على ما تبعثر. أما الموت دون انتقال للشاطئ الآخر فلا مبرر له. يقرر هذا الميت المفترض أن يلعب فى لحظة يختارها هو دور الحى المبتهج الذى لا يكف الهاتف عن نقل صوته وبث أشواقه، ثم يقرر فى لحظة أخرى مباغتة ضعيفة أن يتحول إلى الميت الذى يريد أن يطمئن على مسيرة حياتنا بدونه. لم أمتلك أى شىء أقدمه لـ"غادة" سوى بعض اللقاءات وافتعال ضحكات فائضة عن حاجة الحزن والشعور بالغياب.

كانت "سميرة" تدخر القنبلة لتفجرها فى الوقت المناسب. فى ليلة فى منزلى انتهزت "سميرة" لحظة صمت بيننا جميعاً وقالت "عايزة أقول لكم على حاجة. جوز أختى بعت لى عرض كويس علشان أروح أم القوين فى الإمارات". لسان "سارة" كالمبرد "إيه؟!! أم قويق؟" أضحك رغماً عنى وتبدأ "سميرة" فى محاضرة ظاهرها تأديب "سارة" وباطنها دفاع عن نفسها: "بطلى جهل. إنت بتدافعى عن الناس ازاى، تلاقيكى بتقفى تقولى يا حضرات القضاة إنى أطالب بإعدام موكلى. لو عندك شغل تانى غير التأمين الصحى اللى بيطلع عينى فيه علشان سبعميت جنيه آخر الشهر يبقى أهلاً بيك. بقى لى عشر سنين دلوقتى باسدد أقساط الشقة العوجر اللى اشتريتها من النقابة. عارفة الشقة دى على بعض بكام؟ بخمسين ألف جنيه. فاضل على خمستاشر ألف لسه. طهقت من ركوب الميكروباص رايح جاى كل يوم. طهقت من الشرايط اللى كلها شتيمة فى السنات، طهقت من الراجل اللى بيتلزق فىّ، برضه كل يوم. وبعدين أوصل الشغل فى شارع الجلاء وأشم كل العادم وأسمع شوية كلام متنقى وشوية شتايم، آخرة المتمة ألاقى واحد عيل بيقول لى "عندك تأخير عشر دقايق يا أستاذة". هه.. عندكم حل لإنسانيتى اللى بتنتهك كل يوم؟ أنا مستعدة لأى حل. اتفضلوا يللا". صمت رهيب. تتشاغل "سارة" بجمع الأكواب. أسأل بصوت خفيض "هتعملى إيه هناك يا "سميرة" ؟" تصمت. أكرر سؤالى: "هأقول لكم بس مش عايزة حد يقول لى حاجة خالص. ده قرار. فندق جديد هيفتح

وهأشتغل أوبريتور، يعنى أرد وأقول "جود مورننج، السمكة الخضرا أوتيل، كان آى هلب يو؟" تعود "سارة" من المطبخ "يا نهار أسود هو فيه سمكة خضرا؟ اسمه كده بجد؟ أم قويق وسمكة خضرا؟!" تقذفها "سميرة" بوسادة كانت تحتضنها. أغوص فى مقعدى وأدارى دمعة. قاهرة بدون "سميرة"؟ كيف؟ قاومت "سميرة" كثيراً حتى اضطرت للرضوخ.

ظل "كمال" ينتقل من اجتماع لآخر ويجيئنا بوجه من مر عليه القطار دون أن يصيبه بضرر، فقط الذهول، أسأله عن جدوى الاجتماعات اليومية ولا أجد إجابة، ابتعدت اجتماعاته كثيرا عن فلسطين واقتربت من القاهرة. كنت أراه كالقطة المحبوسة فى حجرة ولم تعرف لها مخرجاً، كان كالعصفور الذى يندفع بأقصى سرعة محاولاً الهرب فيصطدم بأول جدار. وقبل أن أغادر أوصيته ألا يغفل عن "غادة" و"نهى"، إذ رغم كل سخفه وكآبته مؤخراً يبقى هو السند الأوحد لهما. طوال أيامى بالقاهرة كانت "غادة" تحترق بالغياب و"نهى" تغرق فى بحر دماء تمرد على سكنى جسدها.

طالبة غير صامتة

لم ينقشع صمت الطالبة الصامتة المذعورة تدريجياً كما يحدث فى كل الحالات المشابهة، بل بشكل مفاجئ وبدون سابق إنذار. جاء مساؤك وأنت صامتة وفى الصباح بدأت الكلام الذى لم ينته حتى الآن.. وكأنك تعوضين الصمت منذ الولادة. تأملت ذلك الكائن الجديد الذى ظهر من خلف حجاب الصمت وانبهرت. كلام وحكايات وكلام وحكايات كانت كلها تليق بطفولتك الكامنة داخلك وبتساؤلاتك عن العالم. كأن صمتك لم يكن سوى مرحلة تحضيرية للعديد من الأسئلة. حتى أدركنا جميعاً المشكلة، كنت تتكلمين وتراقبين الجميع. لم تتورطى فى حكاياتنا فلم تكونى أبداً طرفاً فيها لكنك كنت تتألمين لآلامنا وتضحكين فى أفراحنا وتحملين عنا بعض أعبائنا. ورغم كل هذا الانغماس كنت واعية أنك تقفين على الحدود. كنت واعية أنك لم تعبرى بعد، أنت هناك، يمكنك المغادرة فى أى وقت، لا يربطك بنا سوى أننا كنا التربة التى انقشع صمتك فيها. وكما انقشع الصمت انقشع معه الزهد فى الأكل، فأصبحت تأكلين بشكل ملحوظ، تأكلين كل شىء وأى شىء وفى أى وقت. كأن كل حياتك كانت مربوطة بهلب فى مكان ما وكأن الهلب انفلت من مكانه ليطلقك حرة تماماً. لابد من هلب آخر يعيد ربطك هنا والآن، لابد من رمى هلب لتتورطين فى العديد من السياقات التى

نتعاملين معها كمشاهد تمر أمامك على شاشة. كانت تساورنى مخاوف من قبيل أن تتحولى إلى متفرجة مثل "مصطفى"، متفرجة صفيقة مثله تماماً. لاحظت أنك هدأت قليلاً مع أمك ولكن ليس بالقدر المطلوب. كانت "سميرة" تطمئننى وتقول "بكره تكبر وتحب زى بقية البنات". لكن الآخرين لم يتوقفوا عن السؤال "ألم تحب بعد؟" وكأننى مسئولة عن الإتيان بالحب، بل كأن الحب يقبع هناك ينتظر إشارة منا ليأتى فوراً.

طالبة غير صامتة تتكلم وتقول "لما أكبر عايزة أكون مخرجة"، نضحك ونضحك وأقول "إنتِ كبرتِ خلاص، هتتخرجى السنة الجاية". تصرين "لأ.. لأ.. أنا لسه صغيرة". كان وضعك وسطنا كفتاة مدللة يصدر لك شحنات من الأمان. كنا نستعجل كبرك وكنت تستمهلين طفولتك. كنت تراقبين حتى اصطفيت "غادة" صديقة. لكن "غادة" تصر على أنك مازلت طفلة فى كل مشاجرة تفتعلها بسبب هواجسها القاتلة. تنسى "غادة" ما قالته وتعود صديقتك. فى عامك الأخير بالجامعة توقفت عن قول "لما أكبر" ولكنك لم تتوقفى عن الكلام ولا الأكل.

ذاكرة جديدة

ولأنك توقفت عن أمنيات "لما أكبر عايزة أكون" فقد احتفلنا بالعام الجديد سوياً قبل مغادرة القاهرة، وكنت تفكرين فيما سترتديه. كان لابد أن أخوض تلك الليلة لتختلف العودة الأولى عن العودة الثانية. اجتمعنا عند "مصطفى" بكل تعاليه عن العالم، وبكل قسوته فى التعامل مع ضعفنا وبؤسنا ودموعنا وبلاهتنا وسذاجتنا أحياناً. لم أهتم كثيرا بصفاقة "مصطفى" التى تربكنى أحياناً إلى حد مساءلة جدوى معرفته، فأنا أعشق الاحتفال بالعام الجديد وأستقبله بكل الطفولة المتاحة لدى، فستان جديد وصخب شديد وصوت جديد وروح جديدة كأنها جاءت لتوها لتبدأ من جديد. كل عام كنت أكرر نفس المشهد دون ملل أو تكرار، كل عام كنت أشارك فى الجملة المعتادة "السنة الجاية تبقى أحلى من اللى فاتت". كل منا يوجه رسالة للآخر فى هذه التهنئة السخيفة، لكن كلنا نوافق ونهز رأسنا بحكمة وحب "يا رب، إن شاء الله"، ولا نعلق. لدينا جميعا ما نريد أن نمحيه من حياتنا لكى نبدأ عاما جديدا بدونه وبدون أدنى شبهة أنه تواجد من الأصل. ذهبت لتلك الليلة بفكرة أن بضعة ساعات ستمحو ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً. لكن تلك الساعات أعادت سنوات وسنوات. ساعات أضاءت فجأة كما لمبة قوية احترقت لعدم توافقها مع التيار الكهربائى، فى تلك اللحظات

المعدودة التى أضاءت فيها تشكل السؤال وبقى معلقاً فى الهواء المعتم. هواء القاهرة المراوغ الخادع الذى لا يدع لك فرصة الإفلات من الزمن وأنت جالس على الكنبة فى منزل "مصطفى" والموسيقى الهابطة تصدح تمهيدا لـ"شادية" ثم "نجاة" ثم "أم كلثوم". وعندما مرت ساعتين وبدأت أنزوى فى نفسى استشعرت الخطر الآتى، فهذا الانزواء يعنى أن هناك ولادة وشيكة لمعرفة ما تحت الجلد وداخل خلايا العقل، معرفة مضفرة بدقات القلب. انزويت فى تلك الكنبة المريحة بابتسامة عريضة على وجهى تتمدد وتنكمش طبقاً للموقف وللشخص (آتى كثيرون فى تلك الليلة). فكنت أتهلل لمن آمن إليه وأنزوى لرؤيتى من أعرف أنه قاهرى أصيل. أغادر مكانى تحت إلحاح لأرقص كيفما اتفق وأعود سريعاً كمن أدى الواجب المطلوب. اقتربت الثانية عشرة ولم يتنازل "كمال" عن التقليد الذى كان قد ابتدعه منذ عدة سنوات، وبدأ "محمد منير" يصدح بأغنيته الشهيرة التى يشعر كل قاهرى أنها ملكه، بل كتبت ولحنت خصيصا له لأن القاهرى بالطبع معبأ بالهزائم ولذلك كنا جميعا نصرخ "ولا انهزام ولا انكسار"، وكأننا نؤكد لأحد ما هناك يراقبنا، وليست سوى أنفسنا هى التى تراقب. قمت إلى الدائرة مرغمة، أمسكت يدك يا "روضة" من جهة اليمين ولا أذكر يد من من جهة اليسار، كانت "سمر" بكل فرحها تميل قبالتى وتشدو بالأغنية وكأنها أول مرة تسمعها، وكنت أنا أتابع المشهد بأكمله وبكل ادعاءات الفرحة والابتهاج وتداعيات السنوات. كم مرة أعدنا هذا المشهد من قبل، كم مرة

ابتذلناه؟ ولم لا؟ وكيف يمكن من موقعى على الكنبة أن أدين الآخر البائس الذى يفتعل الفرح المبتذل وأنا لا أقل بؤسا عنه؟ هل أجرؤ أن أدينه؟ هل أجرؤ؟ هل أجرؤ؟ لن أدعى بطولات متوهمة. هل أجرؤ؟ وهل أقبل أن أتغاضى عن كل القلوب المجتمعة الآن التى لا تصدر دقة واحدة دون حسابات؟ كل العقول التى أدانت فى لحظة بعضها البعض؟ كل من اختار لعب دور المتفرج لأنه خاف الخسارة؟ خاف أن تتلعثم حساباته؟ هذا الوعى الشديد الضاغط لو يرحل ويتركنى أرفل فى سلام وأمان لكى أصم الآخرين بضمير مستريح وصورة رائعة عن الذات، هذا الوعى الذى يزداد حدة مع الزمن... هذا الخوف الذى يتحول إلى عبء أحاول التخلص منه لأنعم بلحظة نوم عميقة تنقى على الآخر كل ما يقدمه لى وعى مراوغ. آه لو أنطلق هكذا فى عالم الحكايات المحسوبة دون خوف من حساب عسير. كم من العداوات فى تلك الليلة تحولت إلى أشواق ستعود غدا فى الصباح إلى سالف عهدها من البغضاء. تعالى الافتعال حتى شعرت أن المكان أوشك على الانفجار. فى دائرة واحدة كان هناك الطيب والشرير والجميل والقبيح والبؤس يطل من أعينهم جميعا بشكل متساو. تمنيت لو كانت أرض الصالة التى نجلس فيها كهربائية تفتح تلقائيا فتهبط الكنبة إلى اللاقرار وأهبط معها بسلام، وهناك أمحى هذه الليلة من شريط الزمن. الكشف يزداد والمعرفة قاسية والحجاب ينحسر وينحسر حتى بدأ الضوء يتحول إلى نقاط بيضاء تتراقص أمام بصرى، لحظة شبيهة بتلك التى تسبق الإغماء، لحظة منفلتة

من الزمن وهاربة من قواعده. وعندما عاد الضوء والصخب فجأة كدت أنتفض ذعراً لتلك العودة المباغتة، أدركت أننى ألعب دور المتفرج، وأنا التى تكره المتفرجين. المتفرج شخص متعال بطبيعته، يشاهد المباراة والفيلم ليقيم ما رآه وليبدى غضبه من البشرية التى لم تستشره منذ البداية، وهو متفرج لديه دائماً بلاغة مطلقة تسمح له أن يسقط على الآخرين ما يمقته فى نفسه، يكشف ضعف من أمامه ليبقى هو هناك مع الأقوياء المنزهين عن كل خطأ. لكن المتفرج لا يعرف أنه جزء من المشهد، بل هو ربما أسوأ ما فى المشهد، وأن وجوده هو الذى يحول الحدث إلى مشهد. المتفرج شخصية رئيسية وليست ثانوية، كل ما فى الأمر أن تعاليه المفجع يعميه عن هذه الحقيقة. كل متفرج مشارك بالضرورة، وكل أهل القاهرة متفرجون. ولكى أنفض عن نفسى شبهة الفرجة انتفضت من على الكنبة وشاركت فى الصخب بكل قواى. كنت أفكر فى "شهاب". أين كان؟ غالباً ما التقى بأصدقاء المقهى هؤلاء الذين يتعثر فيهم بالصدفة البحتة. صدفة لا تحمل أى شبهة قصدية فى الاختيار.

لم يغادرنى الوعى بموقعى كمتفرجة، لم أستطع الفصل بين البصر والبصيرة. كان الإدراك يقبع بحمله الثقيل على رأسى، ضوء قوى يكاد يعمينى، جلبة لا يمكن تجاهلها، كصوت المنبه الذى ينطلق فى الصباح وتتجاهله لنسرق بضع دقائق أخرى فيوقظنا المنبه الداخلى. والسؤال يلح

حتى الصباح التالى: هل كنت داخل المشهد أم خارجه؟ لكن المتفرج يحتل الموقعين بمنتهى الفجاجة. محظوظ هو ذاك المتفرج الذى يغادر القاعة وضميره مغسول كندى الصباح على زجاج سيارة نقف وحيدة أسفل منزل أنيق به بعض اللوحات الثمينة ومجلدات يكسوها الغبار وأرواح نقية، وبمجرد إدارة محرك السيارة تجف قطرات الندى ويبقى الضمير مغسولاً لا يؤرقه شىء. من أين كل هذا الحظ؟ ولأن حظى عثر دائما حتى فى الأشياء الهامشية التى لا يرغبها أحد فقد ظل الحمل فوق رأسى والضوء أمامى والجلبة فى سمعى.

استيقظت فى العاشرة صباحاً، نمت ثلاث ساعات فقط. لا ملاذ سوى الهاتف اللعين. أطرح نفس السؤال "إيه رأيك فى امبارح؟" كنت أبحث عن أى وسيلة لإسكات الطنين، الإجابة متكررة "حلوة قوى، اتبسطنا قوى... قوى...قوى، كانت ليلة تحفة". أما "مصطفى" - وبعد نفس عميق من السيجارة - فكانت إجابته مختلفة قليلاً نظرا لكونه صاحب البيت: "أعتقد إن الناس اتبسطت"، أكبر متفرج وأنقى ضمير مغسول. لا تهمه التفاصيل كثيراً، ربما لا تهمه مطلقاً، يتصرف فى تلك الليالى وكأنه مخرج يريد للفيلم أن يخرج فى أحسن صورة ليحقق أعلى إيرادات، كل ما يأتى بعد ذلك أو قبله لا يهم. المهم هو الصورة الجيدة من كل الزوايا، كانت الألوان نقية والصوت واضحاً والأداء محترفاً. استخف "مصطفى" بنظريتى عن

التنافر البشرى وعن التواطؤ ولم يبد أى سبب لدعوته كل من كرههم وكل من "تآمروا" عليه، لم يهتم كثيرا بكل هذه التفاصيل التى أصررت عليها. لم أدرك حسابات "مصطفى" إلا فيما بعد. حسابات تسعى لتحويل الاكتئاب إلى انتهازية على سبيل الاستفادة من كل ما هو متاح. أمقت المتفرجين. أمقت مشاهدى الأفلام الذين يبدأون فوراً فى كتابة سيناريو جديد من وجهة نظرهم العارفة لكل الأمور، هم أنفسهم هؤلاء المشاهدون الذين يتطوعون بإعطاء التفسيرات التفصيلية لكل مظاهرة تحدث فى القاهرة ولكل جريدة جديدة تصدر ولكل زواج جديد، والقاهرة تموج بالمظاهرات والصحف والزواج والحب المجهض دائماً وأبدا. الفرجة فن أتقنه أهل القاهرة فى قدرتهم على غسل ضمائرهم ونفض أيديهم من كل شىء. المتفرج يقف مع كل الأطراف ويتفوق فى مادة الحساب ويضع رأسه على الوسادة ليلا وهو مقتنع أنه تشبث بالفضيلة فى مواجهة كل الأشرار وأنه تعالى على كل الصغائر وأنه لم يتغير رغم سقوط كل ضعفاء النفوس أمامه. المتفرج هو الذى ينسج عداوات بالأمس وينساها فى الصباح. المتفرج هو الذى يؤمن أن الحياة تسير بدون اشتباكات. المتفرج. كم هو صفيق. لم يبق سوى أمل أخير. أهاتف "سميرة" وأسألها عن السفر تجيب بسلاسة "الأسبوع الجاى هأقدم على أجازة بدون مرتب". لعنة السفر، لعنة تلك الآلة المسماة طائرة التى تحمل أرواح إلى أماكن بعيدة.

أيام قليلة بقيت لى فى القاهرة ولم يعد هناك الكثير من الفرص لنفض شبهة الفرجة،(والقاهرة مجنونة إن لم تشارك بكل قوتك تنفضك بكل قوة) علينا أن نثبت دائما أننا أقوى من القاهرة وأقوى من حكاياتها المليئة بالدروب والمفتقدة لكل بوصلة، البوصلة هى القرار.. أن تأخذ قرارا فى القاهرة فهذا يعنى انتحار مدوى، ولم لا؟ على مر السنوات نسجت القاهرة قرارات كل حواراتنا وألوان ملابسنا وأماكن جلوسنا ومساحة ابتساماتنا، كانت تنسج القرار وتسربه عبر المتفرج، صاحب الفضيلة، الذكى البارع فى الحسابات، اللطيف بدون أى تورط، الظريف، حكاء القفشات الجنسية، العارف بكل حكاياتنا، وما لا نعرفه منها يقوم هو بتفصيله ليلائم مساراتنا، صاحب اللاشىء الذى يبقى بنفسه فى كل شىء ليدعى فى النهاية معرفة كل شىء وهو لا شىء. أستطيع الآن بكل هذه الجلبة التى تطن فى أذنى أن أنسج قرارا أقوى من قرارات القاهرة، سأبدو كذبابة تصارع "شمشون" ولكن لا مفر، الاختيارات محدودة إن لم تكن معدومة. أنا أو حكايات القاهرة. من كل الغضب الذى اختزنته سأنسج قرارا أقوى من قرار القاهرة المنسوج من حكايات واهية غير مكتملة، حكايات المتفرج الصفيق، حكايات تحولت إلى قطعة قماش ممزقة مليئة ببقع الروح. حكايات تدفعنى للبحث عن "شهاب" الذى لم ينج من حكايات القاهرة فكان أحيانا ينسجها ثم يتفرج عليها أو يهملها ليذهب فى عالم آخر. وفى لحظة اشتعال الحكايات القديمة التى نسيها ينظر للسقف أو ينغمس فى حكى بدون بداية أو نهاية،

حكى ملىء بالشروحات والتفسيرات والمرادفات والوقفات والوصلات، حكى يحاول أن يكون حكياً. يعيد "شهاب" صياغة الجملة الواحدة عشر مرات وكأنه يحاول صياغة فكرة تبقى دائماً غير مكتملة.

ذاكرة إفلاس

بدأت بقع الغضب تنشع على روحى، تبدأ صغيرة ثم تتسرب إلى النسيج فيزداد اتساع قطرها. فى هذه اللحظات دائما يحدث أن أتعثر فى أحد هؤلاء الرجال الذين يطرحون أنفسهم كمخلصى نساء البشرية من الأحزان، كفاتحى مغارة الدفء والحنان. وسريعاً أدركت أن المغارة لا تحوى سوى أكواماً من اليأس والضعف والازدواجية التى تعذب صاحبها. كانت المغارة خاوية يكاد يختنق من يدخلها من غبار الإفلاس العاطفى - ناهيك عن الفكرى - كان جسداً بلا روح، جسدا ينتظر عودة الروح التى خرجت تقتات فضلت طريقها ولم تعد حتى اليوم. جسد يعمل ويأكل ويتكلم ويضحك ويجمع المال وهو يبحث بعينيه عن الروح الهائمة، جسد إن لم يجد مبتغاه عند المرأة التى يتعثر فيها يوصمها بأنها "شخصية صعبة قوى". ولم أسقط فى هذا الفخ، فقد كنت أعرف تماماً أننى صعبة المراس ولا يرضينى إلا ما هو غير متوقع. ودائماً ما انتهت حواراتى مع معظم الرجال بكم لا بأس به من السخف. فكل رجل يقترب من المرأة على أساس صورة فى خياله. ليس ذنبى إذن، بل ذنب الصور المصنوعة. نموذج مكرر لا يستدعى حتى التعليق، غريب أن نتعثر فى هذه النماذج رغم أننا لا نشبهها.(هى الازدواجية التى تجعلهم يربطون بين صدفة وجودنا فى أماكنهم وبين إمكانية التمتع بنا قليلاً) وعندما نسأل عن

أى ضمان نسمع أقوالاً من قبيل "حبى ليك هو الضمان" وتكون هذه آخر محاولة للحصول على تلك المرأة بأى ثمن، أما صاحب المغارة الخاوية فقد قرر أن يتمسح فى الفلسفة ويقول "الحياة ما فيهاش ضمانات". صحيح، الحياة بها نساء بلهاء فقط ينتظرن هذه الفلسفة بشوق. وعندما سقطت عنه الورقة الأخيرة قال "إنت شخصية صعبة قوى" وكدت أنفجر من الضحك، لأن السيناريو المرسوم كان يفترض أن أجزع وأرتبك من هول الصراحة وأنبهر من قدرته على فهمى. أجبته بهدوء "عندك حق، بس عايزة أقول لك إن إنت أكبر ساذج قابلته فى حياتى، لأنك حافظ مش فاهم، وعلشان كده بتنسى كل الإسطوانات اللى بتقولها عن الأخلاقيات والحياة". واستمررت هكذا حوالى نصف ساعة، أقول له رأيى فيه وودعته بمنتهى البشاشة، وفى المصعد قلت لنفسى "دارت عجلة الغضب". نمت نوما عميقا فى تلك الليلة.

ذاكرة أمك

والعجلة عندما تبدأ فى دورانها لا تتوقف. أصبحت فى صراع محموم مع الزمن وكشف الحساب طويل، والغضب متشعب ومتلون، ينتظر أن أفك محبسه منذ زمن. تأتمنى أمك عليك يا "روضة" لكنها كانت غاضبة وكنت أنا غاضبة من غضبها. كان غضبها مرتبط بعدم فهمها لما يحدث. لم تفهم لماذا تركت كل هؤلاء النساء المرشحات أن يكن أمهات لك واخترت واحدة ليست منهن. هى لا تعرفنى ولم تعرف كيف تعرفنى. وكأن الأمر كان يستدعى التجاهل مثلاً. لمدة عامين ظللنا أنا وهى ندور فى صولات غضب حذر محاذر وترقب يوشك طوال الوقت أن ينفجر ولكنه يصمد وكأنه يبتلع نفسه، وكنت أنت يا "روضة" مركز الحلبة. كان اقترابك المفاجئ منى سبباً لنسج العديد من الحكايات التى لم تخضع لها، ربما لم تكن على دراية بوجودها. ربما قامت هى بطرح الأسئلة الخاطئة، ربما كانت تخشى أن تغادرها خلسة فى ظلام القاهرة، لماذا ترتعد الأم عندما تتكلم طفلتها رغم أنها انتظرت سنوات هذه اللحظة، لماذا ارتعدت عندما بدأت الحبو - الذى تحول إلى مشى - فى الحياة ومزقت من حولك جدران الغرفة وأغلفة الكتب اللامعة المصقولة. قلت لك لم أكن أبدا أما ولم أعرف كيف تشعر الأم. كل ما أقدمه ليس سوى ارتجال عشوائى. بالتأكيد كان لديها حكايات الأم،

حكايات تجعلها تقترب منى مسافة ثم تتراجع فوراً. اشتد المد والجزر وأنا باقية فى مكانى أحاول أن أهدئ من روعها غير المعلن فكنت أيضا أقترب ثم أتراجع. حتى الآن لا أفهم لماذا كنت تمرضين يوما بعد يوم، تصيبك أعراض نادرة لا تليق بفتاة فى العشرين وهو ما كان يغضبنى بشدة. بعد مرور الكثير من الوقت أدركت أن لديك مواهب درامية مختبئة خلف وجه بريء.

فى إحدى الليالى التى كان ميعاد رحيلى قد اقترب معها أصابتك إحدى تلك الأعراض وهرب الهواء منك فكان المشهد مناسباً لفيلم أبيض وأسود حيث تموت البطلة فى النهاية وهى تنظر بحب لكل من حولها. هنا تغيرت النهاية وانتهى بنا الأمر فى دهاليز مستشفى القصر العينى. كان والداك غاضبين، الاثنان معاً... هى وهو. ربما الغضب من غدر الحياة الذى صنع هذا المشهد. فى تلك الليلة خرج الغضب، كان غضب والدك مكتوماً ومخنوقاً وكان غضبها صريحاً وعنيفاً. تمالكت أعصابى بقدر وكان السر فى هذا القدر، فلم أحاول مثلا أن أهدئ الغضب أو أن أبث رسائلاً مطمئنة... كنت أنا بقدر أيضاً. كانت المرة الوحيدة التى اتفقنا فيها أنا و"مصطفى" على رأى. وفى اليوم التالى ازداد صمتى وفى اليوم الرابع لم أعر اهتماماً لأى حكايات قد يثيرها ذهابى إلى المطبخ لأطهو لك. قررت أن أواجهها بكل حكايات القاهرة التى سقطت هى فى شباكها، أما أنا فلن أكون متفرجة، أنا

مشاركة بكل وجودى المزعج، كان هذا هو قرارى، هدم مخابئ الغضب والمغادرة. تعرفين؟ لا يسأل عنى أحد الآن سوى هى.

قطعنا رحلة طويلة من الشكوك ثم الحذر المستند على بعض التنظير حتى وصلنا إلى كم من المجاملات المكشوفة. كنت أسمع جملاً من قبيل "مرسى قوى ياعيشة. والله تعبناك معانا". كان الأمر بالنسبة لى مزعجاً وكان بالنسبة لها مخيفاً. لم أفهم سبب كل هذا ولم تفهم هى أيضاً. وكما كان متوقعاً قمت أنت بتعقيد الأمر أكثر، أعلنت ملكيتك المطلقة لمنطقة غير مسموح للآخرين بدخولها. لم تكونى لطيفة بالمرة، وامتزج سخفك الطفولى بكل هواجسك اللامعقولة ودراميتك الزائدة، وكان على أن أتساءل أحياناً عن جدوى كل هذا. لم يحل كل هذه التشابكات التى كانت موشكة على الانفجار سوى هى، فلقننا درساً ضمنياً صامتاً. كنت أنا متشبثة بتفاصيل لا معنى لها وكانت هى خارجها. معها بدأت أرى مساحات جديدة قابعة فى روحى، مساحات كانت معطلة بفعل النظر القصير. تتعطل نفوسنا أحياناً بسبب أوهام خوف وريبة، بسبب قصص لا تتوافر سوى فى عقولنا فقط، ويساهم الآخرون بكرم فى تغذيتها. نسيء الفهم لأننا فقدنا الأمل فى ذرة تفهم واحدة، يتملكنا اليقين أن الدنيا ليس بها سوى أشرار ونحن فقط الأخيار. ينهار اليقين عندما ندرك حجم سخفنا المزعج بدون مقدمات. معها واجهت كل غبائى الذى دفعنى لإهدار مدى اتساع روحها... لديها مساحات رحبة لا

يمكن للآخرين مواجهتها، وكنت أنا أول الفاشلين فى إدراكها. يبدو أننى انجرفت فى دراميتك كثيراً وصدقت روايتك.

ذاكرة الأربعين

بكل ذاك الاتساع المكتشف عدت لأجد برلين صحراء متسعة من جليد، مساحة من الأبيض ليس سواها. اختفت كل المعالم تحت الجليد وتلاشت كل الأصوات، كأن حاجزا من الصوت يمنع عنى العالم بأسره... اللون الأبيض يخنق سقف الاختلاف ويوحده ويصنع منه شيئا واحداً متجانساً مملاً. هبطت درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر بكثير وهبط معها قلبى، كما نسمع طرقة قوية عندما نبدأ الدخول فى النوم فيهبط القلب دون إنذار، كهطب هوائى شديد فى طائرة مازال أمامها عدة ساعات فلا يمكن التكهن بالنهاية... مما يخاف القلب وقد تجلت له لحظة إدراك - مؤلمة - وشظية معرفة - قاسية -؟ مما يخاف القلب وقد وصل إلى أعتاب المكاشفة؟. ربما يخاف من الفقد، الفقد الذى سيخلف فراغاً، سيخلف ساعات لن نقضيها كما قضيناها من قبل، أسئلة لن نحاول التملص منها كما كنا نفعل، وبشر لن نتغاضى عن وجودهم الآثم كما تواطأنا دائماً، كلمات لن نمررها ومعرفة لن نوئدها. الخوف كل الخوف أننا لن نعود كما ذهبنا، وكيف نتعامل مع العتبة الجديدة؟ ماذا نعرف عنها؟ عتبة جديدة تشبه شارع فى القاهرة لا يمكن أن تتشابه بدايته مع نهايته وأحياناً ما تغيب نهايته، فقط يقرر أن يفضى لشارع آخر بدون أية مقدمات. ما الذى يقع خلف العتبة،

ما شكل الابتسامة وكيف هو ملح الدمعة؟ كنا نعرف القديم ونتحمل ملوحة دموعه وقهره وقمعه لكل ما فينا. تعلمنا المشي بجوع أبدى وغصة دائمة. ماذا نفعل الآن في عتبة جديدة أتاها مختلف لم تعتده العين ولم يفهمه القلب... كيف وصلنا إلى تلك اللحظة التي وقفنا فيها خارج أنفسنا لنتفرج على نفس جديدة، مازالت تقف متلعثمة على عتبة تحجب وتكشف؟ عتبة مختفية مثل ما يسمونه في البدايات "الطابق المسحور"، أقف على عتبة بين عالمين، بين مدينتين، بين طبقتين، بين لغتين، بين بينين. تفلت مني دائما أدلة تثبت لا انتمائي، أدلة تشهد على تورطي في جرائم لم أخطط لها، فأطلب شوكة لأكل الأرز بدلا من الملاعق المتاحة، وأقول "مايكرو باس" بدلا من "مكروباص" وأستخدم كلمة "أصغر" بدلا من "أقل"، و"مرسى" بدل "شكراً" و"دوريان" بدل "عفواً"، وأفكر في شراء دراجة لأستخدمها في شوارع القاهرة ولا أتفوه بلفظة بذيئة رغم الغيظ الذي يملكني ساعات طويلة ولا ألحظ أي شيء مما يدور حولي فأدرك الأشياء عندما تكون قد انتهت تماماً. أقول لسائق التاكسي "صباح الخير" وأنا أظهر العجلة لكي أختصر بعض الحروف فلا تبدو الصاد وكأنها سين، وأقول لجارتي التي دائماً ما أقابلها في المصعد بصحبة كلبها "بونجور" وأنا أضغط على كل حرف، تتأرجح لغتي في القاهرة بين الانكماش والتمدد، حتى وقعت أول كارثة ووقفت أمام شباك التذاكر في محطة مترو الأنفاق وقلت للرجل الجالس خلف الزجاج "عايزة تيكتايا من فضلك". أدركت من ابتسامته فورا

أنني ارتكبت خطأ ما، دفعت بجنيه من تحت الزجاج واختطفت التذكرة وجريت وهو ينادي "يا آنسة" وتطوع كل الطابور أن ينادي "يا آنسة". والآنسة تجري نحو رصيف القطار الذي تراه يدخل المحطة ويهدئ من سرعته فتشعر بالأمان وإذا بشاب يلهث ويقول "ليكي ربع جنيه، ده أنا جريت وراكي من هناك"، في هذه اللحظة بالتحديد فكرت في الهروب مرة أخرى ولم أجد أي مخرج فقلت "متشكرة خالص". ابتسم لي نفس ابتسامة بائع التذاكر. هل كان يقصد؟

أربعون يوماً والجليد يتساقط من السماء، كأن ماكينة قطن محولة لا تتوقف عن العمل، أصحو على الأبيض وأنام على الأبيض، لا أسمع صوتا إلا صوت زفيري الذي لا يعلن عن نفسه إلا في الشارع، كل يوم أخرج إلى الشارع أملاً أن يضفي لون الأسفلت الأسود تغييرا على بصري الذي بدأ يتماهى مع الأبيض، حتى الأسفلت أبيض، أسمع زفيري بوضوح ولا أسمع دقة كعب حذائي الذي أدب به بقوة على الأرض... فقط الزفير الذي يطرد كل المخلفات، كل الرطانة والعطن والتكدس الذي بدأ من سنوات، من قبل مجيئي... (وبأي حال جئت؟) اشتد الطرد ولم أحاول إيقافه، أقف في وسط الجليد وأنظر إلى أعلى وأفتح فمي وأقول في قلبي "انصرف... انصرف... انصرف" هناك سر في رقم ثلاثة، نستغفر ثلاث مرات والعيد ثلاثة أيام والطلاق ثلاث مرات والتالتة تابتة. لكن الأربعين أيضاً لا تقل

سحراً، ولذلك ترتدى الأسود حداداً أربعين يوماً (أو أربعين سنة) والحامل تبقى فى النفاس أربعين يوماً، والطفل يبقى لينا أربعين يوماً، و"موسى" ضل طريقه فى الصحراء أربعين سنة، وأنا سأكمل الأربعين، والروح تبقى هائمة فى الدنيا أربعين يوماً حتى تعتاد على مكانها الجديد وتسأم أهل الدنيا وتمل بكاءهم ونواحهم فتتمتع بعتبة جديدة وتترك كل ما لها وكل ما عليها، تتحول إلى ذكرى، موجعة أو مدهشة أو مبهمة، الكثيرون يغادرون لندرك أنه لم يكن هناك وقت لنعرفهم... لم يكن هناك وقت للكثير من الأشياء، لم يكن أبداً هناك وقت... مطلقاً كل مانملكه هو أن نثبت الروح ونمنعها من المغادرة فلا نكف عن تذكر ما قالته قبل أن تغادر وجرعة الماء التى شربتها والنكتة التى أضحكتنا بها، نتحدث عنها كالجمال المطلق ونتفانى فى إثبات علاقتنا الوثيقة بها ومعرفتنا لها وشعورنا بغيابها، رغم أننا عندما نكون بمفردنا قد لا نتذكر حرفا واحداً، شحن الذاكرة لا يبدأ إلا كطقس جماعى اجتماعى يحاول إثبات وجود عبر الكلام عن الغياب. الكل يتصارع لتملك الغياب والبلاذة تتوهج مع النحيب والعديد، هل تحزن الروح عندما تغادر؟

عندما غادر فجأة (هكذا تمرد وغادر) توجهت للمشايخ أطلب منهم أن يعلمونى الاتصال بالأرواح، تقلبت على العديد من الدجالين حتى قابلت مسناً قال لى "سيبى الأرواح تستريح يا بنتى... ما تزعجيش عيشتهم هناك"، إلى هذا الحد كنت متمسكة بالروح التى غادرت. فى أول يوم كنت أنوح

وأصرخ ثم أبكي، لأعيد الكرة من جديد. كنت أراهن أننى لو قتلت نفسى بكاء وصراخاً سأغادر هذا العالم وألحق به. ثم بدأت أتوجه للجالسين وأسألهم "هو مات ليه؟" اختلفت ردود الأفعال. البعض كان يضطرب أو ربما كان الخجل من السؤال، البعض قابلنى بعاصفة استغفار، والبعض كان ينفجر فى البكاء، والبعض غضب من السؤال بشدة وكأنها إهانة موجهة له بالتحديد. لا فائدة أعود لمكانى على الكرسى وأقرر أن أتجاهل الجميع لأنهم عاجزين عن فعل أى شىء. كانت تغضبنى محاولات وضع الأكل فى فمى خلسة. وكان يغضبنى كلام أمى التى كانت تنتحب من أجلى وكان يغضبنى الصدق الذى تملك البعض فجأة "خدى بالك الموضوع مش سهل. الحزن اللى بجد لسة جاى". تمر الأيام وأحتفظ بكلمة "أرملة" فى خانة الحالة الاجتماعية بالبطاقة. كل موظفة أتقدم لها تظهر التحفز والتمعر والترقب وحالما يقع نظرها على تلك الكلمة تتغير تماماً وتظهر تعاطفاً وتشعر بالاطمئنان أننى لم أستول على نصيب من السعادة أكثر من ذاك الذى حصلت هى عليه. إلى هذا الحد كنت متشبثة بالتفاصيل، وحتى الآن أشعر أن أى تغيير فى خانة الحالة الاجتماعية هو بمثابة خيانة. لست متمسكة الآن بروحى الهائمة لكننى خائفة أن أتركها تذهب فلا أعود أعرف كيف كنت قبلها، أو أفقد طريقى فى القاهرة فلا يعرفنى أحد أو أسأل فلا أجد إجابة أو أبكى فلا أجد ملحاً فى دموعى أو أضحك فلا أجد صدى.

ما شكل الابتسامة وكيف هو ملح الدمعة؟ كنا نعرف القديم ونتحمل ملوحة دموعه وقهره وقمعه لكل ما فينا. تعلمنا المشى بجوع أبدى وغصة دائمة. ماذا نفعل الآن فى عتبة جديدة أثاثها مختلف لم تعتده العين ولم يفهمه القلب... كيف وصلنا إلى تلك اللحظة التى وقفنا فيها خارج أنفسنا لنتفرج على نفس جديدة، مازالت تقف متلعثمة على عتبة تحجب وتكشف؟ عتبة مختفية مثل ما يسمونه فى البنايات "الطابق المسحور"، أقف على عتبة بين عالمين، بين مدينتين، بين طبقتين، بين لغتين، بين بيتين. تنفلت منى دائما أدلة تثبت لا انتمائى، أدلة تشهد على تورطى فى جرائم لم أخطط لها، فأطلب شوكة لأكل الأرز بدلا من الملاعق المتاحة، وأقول "مايكرو باس" بدلا من "مكروباص" وأستخدم كلمة "أصغر" بدلا من "أقل"، و"مرسى" بدل "شكراً" و"دوريان" بدل "عفواً"، وأفكر فى شراء دراجة لأستخدمها فى شوارع القاهرة ولا أتفوه بلفظة بذيئة رغم الغيظ الذى يتملكنى ساعات طويلة ولا ألحظ أى شىء مما يدور حولى فأدرك الأشياء عندما تكون قد انتهت تماماً. أقول لسائق التاكسى "صباح الخير" وأنا أظهر العجلة لكى أختصر بعض الحروف فلا تبدو الصاد وكأنها سين، وأقول لجارتى التى دائماً ما أقابلها فى المصعد بصحبة كلبها "بونجور" وأنا أضغط على كل حرف. تتأرجح لغتى فى القاهرة بين الانكماش والتمدد، حتى وقعت أول كارثة ووقفت أمام شباك التذاكر فى محطة مترو الأنفاق وقلت للرجل الجالس خلف الزجاج "عايزة تيكتايا من فضلك". أدركت من ابتسامته فورا

أننى ارتكبت خطأ ما، دفعت بجنيه من تحت الزجاج واختطفت التذكرة وجريت وهو ينادى "يا آنسة" وتطوع كل الطابور أن ينادى "يا آنسة". والآنسة تجرى نحو رصيف القطار الذى تراه يدخل المحطة ويهدئ من سرعته فتشعر بالأمان وإذا بشاب يلهث ويقول "ليكى ربع جنيه، ده أنا جريت وراكى من هناك"، فى هذه اللحظة بالتحديد فكرت فى الهروب مرة أخرى ولم أجد أى مخرج فقلت "متشكرة خالص". ابتسم لى نفس ابتسامة بائع التذاكر. هل كان يقصد؟

أربعون يوماً والجليد يتساقط من السماء، كأن ماكينة قطن معولة لا تتوقف عن العمل، أصحو على الأبيض وأنام على الأبيض، لا أسمع صوتا إلا صوت زفيرى الذى لا يعلن عن نفسه إلا فى الشارع، كل يوم أخرج إلى الشارع أملاً أن يضفى لون الأسفلت الأسود تغييرا على بصرى الذى بدأ يتماهى مع الأبيض، حتى الأسفلت أبيض، أسمع زفيرى بوضوح ولا أسمع دقة كعب حذائى الذى أدب به بقوة على الأرض... فقط الزفير الذى يطرد كل المخلفات، كل الرطانة والعطن والتكدس الذى بدأ من سنوات، من قبل مجيئى... (وبأى حال جئت؟) اشتد الطرد ولم أحاول إيقافه، أقف فى وسط الجليد وأنظر إلى أعلى وأفتح فمى وأقول فى قلبى "انصرف... انصرف... انصرف" هناك سر فى رقم ثلاثة، نستغفر ثلاث مرات والعيد ثلاثة أيام والطلاق ثلاث مرات والتالتة تابتة. لكن الأربعين أيضاً لا تقل

سحراً، ولذلك ترتدى الأسود حداداً **أربعين يوماً (أو أربعين سنة)** والحامل تبقى فى النفاس أربعين يوماً، والطفل يبقى لينا **أربعين يوماً**، و"موسى" ضل طريقه فى الصحراء أربعين سنة، وأنا سأكمل **الأربعين، والروح** تبقى هائمة فى الدنيا أربعين يوماً حتى تعتاد على مكانها الجديد وتسأم **أهل الدنيا** وتمل بكاءهم ونواحهم فتقنع بعتبة جديدة وتترك كل ما لها وكل ما عليها، تتحول إلى ذكرى، موجعة أو مدهشة أو مبهمة، الكثيرون يغادرون لندرك أنه لم يكن هناك وقت لنعرفهم... لم يكن هناك وقت للكثير من الأشياء، لم يكن أبداً هناك وقت... مطلقاً كل مانملكه هو أن نثبت الروح ونمنعها من المغادرة فلا نكف عن تذكر ما قالته قبل أن تغادر وجرعة الماء التى شربتها والنكتة التى **أضحكتنا** بها، نتحدث عنها كالجمال المطلق ونتفانى فى إثبات علاقتنا الوثيقة بها ومعرفتنا لها وشعورنا بغيابها، رغم أننا عندما نكون بمفردنا قد لا نتذكر حرفا واحداً، شحن الذاكرة لا يبدأ إلا كطقس جماعى اجتماعى يحاول إثبات وجود عبر الكلام عن الغياب. الكل يتصارع لتملك الغياب والبلاذة تتوهج مع النحيب والعديد، هل تحزن الروح عندما تغادر؟

عندما غادر فجأة **(هكذا تمرد وغادر) توجهت للمشايخ** أطلب منهم أن **يعلمونني الاتصال بالأرواح، تغلبت على العديد من الدجالين** حتى قابلت مسناً قال لى "سيبى الأرواح تستريح يا بنتى... ما **تزعجيش** عيشتهم هناك"، إلى هذا الحد كنت متمسكة بالروح التى غادرت. **فى أول يوم** كنت أنوح

وأصرخ ثم أبكي، لأعيد الكرة من جديد. كنت أراهن أننى لو قتلت نفسى بكاءً وصراخاً سأغادر هذا العالم وألحق به. ثم بدأت أتوجه للجالسين وأسألهم "هو مات ليه؟" اختلفت ردود الأفعال. البعض كان يضطرب أو ربما كان الخجل من السؤال، البعض قابلنى بعاصفة استغفار، والبعض كان ينفجر فى البكاء، والبعض غضب من السؤال بشدة وكأنها إهانة موجهة له بالتحديد. لا فائدة أعود لمكانى على الكرسى وأقرر أن أتجاهل الجميع لأنهم عاجزين عن فعل أى شىء. كانت تغضبنى محاولات وضع الأكل فى فمى خلسة. وكان يغضبنى كلام أمى التى كانت تنتحب من أجلى وكان يغضبنى الصدق الذى تملك البعض فجأة "خدى بالك الموضوع مش سهل. الحزن اللى بجد لسة جاى". تمر الأيام وأحتفظ بكلمة "أرملة" فى خانة الحالة الاجتماعية بالبطاقة. كل موظفة أتقدم لها تظهر التحفز والتنمر والترقب وحالما يقع نظرها على تلك الكلمة تتغير تماماً وتظهر تعاطفاً وتشعر بالاطمئنان أننى لم أستول على نصيب من السعادة أكثر من ذاك الذى حصلت هى عليه. إلى هذا الحد كنت متشبثة بالتفاصيل، وحتى الآن أشعر أن أى تغيير فى خانة الحالة الاجتماعية هو بمثابة خيانة. لست متمسكة الآن بروحى الهائمة لكننى خائفة أن أتركها تذهب فلا أعود أعرف كيف كنت قبلها، أو أفقد طريقى فى القاهرة فلا يعرفنى أحد أو أسأل فلا أجد إجابة أو أبكى فلا أجد ملحاً فى دموعى أو أضحك فلا أجد صدى.

يتساقط الجليد ويهبط بطيئاً إلى الأرض وكأنه يتحاشى إزعاج أو مباغتة، أتتبع قطعة الجليد فى هبوطها حتى تحط على الأرض فلا أميزها من المساحات البيضاء الشاسعة، أبحث عن تلك الروح الهائمة أملاً أن تكون قد أعادت النظر فى قرار المغادرة وتكون راقدة هناك لتصنع لى مفاجأة وأوهم نفسى أن هذا كابوس، كل شىء على ما يرام، لم يحدث شىء، لا شىء تغير، الشتاء القارص يسبب انكماشا للقلب... ولا فائدة. أوهام تعذب الروح التى تتوسل أن أطلق سراحها. بعد أربعين يوما أدعها تنطلق وأطلق زفرة قوية يخرج معها دخان أبيض كثيف يصل حتى القاهرة ومازال صداها مسموعا حتى الآن. أنغمس فى العمل وفى شوارع برلين البيضاء لأحول عقلى إلى صفحة بيضاء.

لكن الصور لا تغادر، الصور أصلها ثابت وفرعها فى العقل والقلب. صورة أمى التى تحاول أن تضع الإبرة فى مكانها فى كم الفستان لتثبت أنها قادرة، صورة أختى التى تحاول استرجاع يوم واحد من الزمن الراحل، صورة "غادة" التى لا تمل من التعلق بالأوهام ولا تتخلص من هواجسها، صورة "نهى" التى تصر على مواصلة الحياة بنزيف لا يتوقف، وصورة "جميلة" التى تسعى للإمساك بفراشة فى خلية نحل. صورة أصدقاء ينعتون أصدقاء آخرين بكل ما لذ وطاب، صورة سنوات أخلصنا فيها لنتساءل الآن هل كان الإخلاص لقضية أم لبشر، صورة رجال صالوا وجالوا فى

مفردات اللغة ليبقى كذبهم المفضوح تهمة لا نعرف كيف نعتذر عنها، صور نساء لم تتلاش ابتسامتهن وهن لا يحملن سوى موت القلب، صور قصص كانت حباً رائعاً ربما لم يخلدها سوى أنها كانت مستحيلة، صور إسقاط الرذيلة عليهم لنحظى بالفضيلة، صور الفرجة والمراوغة، صور الهروب من كلمة "أكرهك" أو "أنا أرفض"، صور محاولات أن نكون محبوبين دائما، دبلوماسيين إلى الأبد، ونحن لا نعرف أننا منافقون، صور الحقد الذى نحمله عبثا لنكتشف أن قانون الطبيعة أقوى من كل حقد، أسير فى الشوارع بصور لأضيف إليها مزيدا من الصور، الحياة هنا والآن صورة كبيرة. صورة تنحشر فى برواز عند الأربعين، فقط عند الأربعين الذى يسبقه فقد كبير يماثل حجم البرواز.

لماذا يفترض أن نعرف بالتحديد فى اللحظة التى لا نعرف فيها أننا لا نعرف. ولماذا يتعامل معنا الآخر دائما وكأننا نعرف، هذا اليقين يجعلنا نتوهم أننا نعرف... نتوهم أننا نميز الصدق من الكذب، أننا نرى الطريق الذى لم يبدأ بعد، أننا نتقن المراوغة والكلمة بكلمة والهمزة بلمزة، أننا نفهم التحالفات وبالتالى نراعى الحسابات... كيف يمكن أن نعرف دون أن نشعر بنار النظرات اللائمة تتوجه نحونا، والوجوه السوداء تحوم حول حكاية، والسنة منطلقة فى القسم تنكر أنها قالت... كيف نعرف. حتى الاعتراف بعدم المعرفة خطيئة لا تقبلها القاهرة:

ما كنتش عارفة

معقولة يا عيشة؟ كل الخبرة دى وما كنتيش تعرفى.

ما كنتش فاهمة.

ازاى؟ ده كان واضح زى الشمس، كلنا كنا فاهمين!

ما كنتش أعرف.

واحدة زيك برضه ما تبقاش عارفة.

والله ما كنت أعرف.

ده كل الناس عارفة.

تجبرنا القاهرة أن نحول إثبات مصداقية جهلنا إلى جهاد أصغر، ويبقى الجهاد الأكبر مع النفس لا ينتهى، أليس هو الأصعب؟ فى لحظة غير معلومة تفقد القاهرة اهتمامها بجهلنا فلسنا الجهلة الوحيدين وهى لا تكترث أيضاً بتصديقنا أو تكذيبنا، كنا سحابة عابرة فى سمائها الملوثة، والسحب كثيرة. أما نحن فنتشبث بكل صور جهلنا لنثبتها فى الذاكرة، تأبى أن تغادر، وفى تلك اللحظات التى تغضب فيها القاهرة تتجسد الصور وتتراص على جدران الغرف الخالية لتحاصرنا وتذكرنا فى حال النسيان. ولإكمال الجهل كنت أعتقد أن الصور ترتبط بالمكان، كنت أجهل أن الصور تسافر إلى آخر الدنيا وتتجول فى شوارع برلين البيضاء.

فى اليوم الأربعين غادرت الروح وبقيت الصور. ما الذى سيغادر عندما أكمل الأربعين؟

بالرغم من...

صراع مستميت بين الصور، تحاول كل واحدة منها أن توجد لنفسها مساحة معترف بها، لكن الروح التى كانت تربت على كل هذه الصور غادرت ولم يبق سوى عقل شرس لا يفهم من اللغات سوى المنطق كلمة سخيفة لابد من حذفها. منطق من؟ من الذى يضع قواعده؟ وأين كانت الدنيا قبل المنطق؟ يبدو أن "الناس كلها عارفة" دائما، متى عرفوا؟ كيف كان حالهم قبل أن يعرفوا؟ والعقل لا يرضى بكل هذه الأعذار، يشن حملاته فى الأحلام وفى الكلمات المفاجئة التى أفوه بها دون قصد وفى الشراسة التى تراكمت داخلي. فقدت كل "الطيبة" التى كنت أبديها، أو ألقيت بها فى شوارع برلين، حيث لا يكترث أحد بما نلقيه، حتى لو ألقيت نفسى تحت عجلات مترو الأنفاق، لن يتحرك أحد مطلقاً. لن يبدى ركاب المترو الذين يحملون آلة موسيقية أو ينغمسون فى كتاب أى اهتمام بطيبة يتم التخلص منها بمنتهى القسوة أو بصور تلقى أمام القطار الذى لا يكترث هو الآخر، لن يهتم أى راكب إن كنت أكلم نفسى أحيانا، أو أذرف كماً لا بأس به من الدموع، أو أبدو كمن سقطت على رأسها بداية كاملة... لن يكترث أحد، ربما يكمن سحر برلين بالتحديد فى شدة عدم الاكتراث، فى أنها تدير ظهرها للقاهرة وتتصرف عكسها تماما... كل مدينة تتوق للاختلاف.

لكن برلين تختلف ليس لأنها تكرس الوحدة بل لأنها بعد أن تكرسها تتوق لكسرها.

يصيبنى الملل من الأكل الإيطالى الذى تموج به شوارع برلين، أما رائحة الشاورما التركى فهى كافية أن تجعلنى أسير فى الاتجاه المعاكس. لست متأكدة إن كانت رائحة اللحم أو نوع من البهار الذى يضاف لها هو الذى ينفرنى. أشاهد الألمان يأكلون تلك السندوتشات الضخمة بشهية فأجرب حظى مرة أخرى ولا أنجح. أقرر أن أتوجه للأكل الآسيوى، مطعم صينى يقبع بهدوء على الطريق. أسير فى ممر صغير مزين بالورود والمراوح الحمراء على الجانبين، تقابلنى النادلة الصينية وتخاطبنى بالألمانية، أتجاهل ما قالته وأتبع إشارة يدها وأجلس على الطاولة لأشارك رجلاً كان يجلس إلى نفس الطاولة. تقليد متبع فى برلين، أن يتشارك البشر فى الجلوس إلى نفس الطاولات فى حالات الزحام الشديد، ورغم هذا التشارك تبقى الخصوصية. فى القاهرة لا نفعل ذلك ولكننا لا نؤمن بالخصوصية، لأننا نعتبرها تعاليا وانعزالا وجفاء. أطلب من النادلة ما فهمته ويأتينى الأكل بعد بضعة دقائق. نتشارك أنا وجارى فى نفس مطفأة السجائر. أقربها منه فيعود بعد قليل ويقربها منى. أنتهى من الأكل والتدخين وأخرج كتابى وأبدأ فى القراءة. كان جارى قد بدأ فى القراءة أيضاً. بعد ثلث ساعة تجىء النادلة وتفهمنى أن هناك طاولة شاغرة يمكننى أن أنتقل إليها. نتبادل النظرات أنا والألمانى وكأننا

أدركنا أن الوحدة التى كسرناها بإيهام الصحبة قد انقضت. بمجرد انتقالى يطلب الرجل حسابه ويستعد للمغادرة، أهم بفعل نفس الشىء. تواطأت بصمت مع رجل لا أعرفه، حصلت منه على بعض الونس بمجرد الجلوس فى نفس المكان. هل كان هذا مقصده أيضاً؟

حتى الروح غادرت وبقيت بلا صحبة، كانت تلك الروح تجذبنى بعنف إلى القاهرة بأسرها متغاضية عن كل سخافاتها وحاضنة لكل عشوائيتها. الآن أنا وحيدة تماماً بالمعنى الحرفى.. رغم كل الصور التى بقيت تمكنت منى الوحدة... يزيدها تلك الصور التى حاولت فيها مرارا أن أكون صحبة، صور كانت تشبه فى البداية صور كتب الأطفال: أم وأب وطفل تلفهم سعادة كاملة ومفاجئة، مجتمعين حول طبق يتصاعد منه البخار، ونظرات الحب والامتنان تفيض على جوانب الصورة، صورة أثينا التى خرجت كاملة من رأس زيوس، سعادة أسطورية، صورة... أستعيرها من طبقات زمن تراكمت وتأديب مستمر ومواضيع إنشاء كتبتها فى المدرسة... صورة استعرتها من مكان ما... من أفلام... من أغانى... من روايات... صورة تتحول فى النهاية إلى كابوس... صورة كانت تتوقع الكثير فخابت كل التوقعات. صور صنعها العقل ولا يغفرها الآن.

بالرغم من وهم رحيل الشتاء الذى يعيش فيه أهل برلين والاحتفالات التى يقيمونها للإعلان عن بقعة صغيرة غير مرئية من الشمس تبقى لسعة البرد باردة.. قاسية.. موجعة. وعندما أنسى أن أرتدى البلوفر الصوف الرابع أقول لنفسى إن هذا عقاب أناله وأستحقه. وكلما يتوغل البرد فى جسدى كلما ازداد شعورى بالاطمئنان، ها هو العقاب ينهال على وهذا يعنى قرب الفرج.. الانفراج... القبول... المحبة... المغادرة... رحيل الصور. يلفنى الإحساس بالوحدة كإبرة تتغرز فى الجلد بدون مخدر... تمزق الخلايا فى رحلتها، أقول ربما ترحل الصور هربا من الألم.

ضجيج الصور يزداد والصراع يشتد والقاهرة تنذر بمخاض جديد.. قاهرة تولد من القاهرة، القاهرة تغير جلدها، القاهرة يعلو صوتها، القاهرة بدأت تنفض الغبار وتعلن عن مجيء مولود جديد، أخبار القاهرة لا تنقطع... تغيير ما يتولد، اختلفت لغة القاهرة، اختلفت ألوانها من على البعد، وبالرغم من كل غضبى أعود إلى القاهرة التى مازالت أمى تجذبنى إليها مهما انقطعت عنها. عائدة إلى أمى أملاً أن أجد الشجاعة الكافية لألقى بنفسى فى حضنها، كنت خائفة أن يظهر ضعفى أمامها لكى لا تبدأ فى البكاء. عندما تتضامن معى أمى تؤكد لى دائماً أنها حزينة من أجلى وأن قلبها ينقطع حزناً علىّ. ولا تصيبنى هذه الجمل إلا بمزيد من الحيرة، - والأهم - بمزيد من الإحساس بالذنب أننى

خيبت كل توقعاتها. ذاك الحضن إذن الذى أتوق إليه. حضن أمى التى تسكن القاهرة.

عود على بدء

وكأنني لم أغادر، ولو للحظة واحدة. القاهرة كما هي تحاول جاهدة أن تنفض الشيب من شعرها. أهل اللغة الإنجليزية لديهم استعارة أراها سخيفة، "نبيذ قديم في زجاجات جديدة". استعارة اكتسبت سخافتها عندما ترجمت إلى العربية، تبدو كصوتي النشاز عندما أغني لـ"أم كلثوم" أو أسخف قليلاً. ولكن ماذا عن "نبيذ جديد في زجاجات قديمة" من باب التمويه؟

جنين معارض يحبو وعملاق متمترس يخبو في أنظارنا.. "صحيفة الفيجارو تشيد بسياسة مصر الحكيمة"، "كوريا تشيد بعلاقتها مع مصر"، توفير ٤٥٠ ألف فرصة عمل للشباب"، "اتفاقية الكويز تنعش السوق المصرية"، "تعديل دستوري في المادة ٧٦"... يتملكني الملل من الصحف وشاشة التليفزيون. اعتدت على متابعة كل هذه الأخبار على شاشة الإنترنت، فلم أعد أعرف كيف أتعامل مع صحيفة في يدي! أحاول أن أقرأ حرفا واحدا وأفشل، أحاول أن أنام كثيرا لأفشل ببراعة، أحاول أن ألتقي بـ"غادة" فأجدها قد عادت إلى طبيعتها وتحكي لي عن شخص جديد تريدني أن أقابله. أهاتف "سمر" فتخبرني أنها مرتبطة بميعاد برنامج في فضائية ما، برنامج يتحدث عن الأمهات الوحيدات. أغضب من "جميلة" لسبب تافه

فيفشل غضبي ولا تصل رسالتي، أحاول أن أعيد وصل العلاقة مع "مصطفى" ليفشل هو من باب التغيير وأقطعه من الصفحة تماماً بعد مقابلة واحدة كنت قد مارست فيها ما تعلمته من القسوة... قسوة عدم البوح، أن تأخذ القرار دون أن تبوح به، أن تفهم دون أن تعلن فهمك كالساذج، أن تكشف الآخر دون أن تخبره. هذا هو أقسى عقاب جاد به عقلي. وما الجدوى أن نخبر الآخرين أنهم سقطوا؟ ربما أكون قد سقطت لدى البعض ولم يخبروني. ربما.. ربما.. كل الاحتمالات مفتوحة وكل الخيارات ممكنة.

تفتح أمي الباب وتتقلص كل معالم وجهها استعدادا للبكاء الذي هو إعلان عن السعادة (هكذا نحن أهل القاهرة، نبكي عندما نفرح)، أحتضنها وأربت عليها كثيرا، أتحسس كتفيها وظهرها وأتشمم رائحتها، لم تتغير، لم تزرها رائحة الشيخوخة بعد، تفوح منها رائحة البصل المقلي والثوم ومزيل العرق الذي تضعه في الصباح المختلطة رائحته بالعطر الفرنسي الذي تأتي به أختي من أسواق الخليج، لم تتغير. أردت لكل شيء في القاهرة أن يتغير - بما في ذلك أنت يا روضة - إلا أمي. أمي ورائحتها. تغيرت فقط أشياء بسيطة، تقلص حجم كتفيها فأصبحت المسافة الفاصلة بينهما ضيقة للغاية، خف وزنها بشكل غير عادي، أما الأغرب فقد كان قصر قامتها بشكل مفزع. أمي التي كانت دائما في طولي أصبحت أقصر مني لدرجة أنه يجب أن أنحني لأطبع قبلة على وجهها. تلقى أمي نفسها بين ذراعي كطفل صغير

اطمئن أخيرا على سلامة لعبته، أقبل كل ما أطوله: شعرها، جبهتها، أحتضنها بقوة لأؤكد لها وجودي، وأردد لأمي - الأقصر مني - "وحشتيني... وحشتيني... وحشتيني قوي...." أدرك انكماش أمي ليتأكد إحساس الوحدة.

يصيبني الفزع أن أستيقظ في أي لحظة على غياب أمي، كيف يمكن أن أعيش بلا أم ولو من على بعد؟ نتحايل دائما على غياب الأب ولكن الأم...؟ أعرف أنها موجودة دائما ولذلك أؤجل الكثير من الأشياء، الكثير من الأسئلة، والعديد من الأحضان، ربما يكون غيابها هو الفطام الحقيقي، ربما يكون هذا إعلان الخروج إلى الحياة عارية تماما من كل حماية، ربما تكون بداية الحياة. كانت كلما تغضب مني بشدة تقول "اللي من غير أم حاله يغم". أعرف هذا أو لا أعرف. لا أعرف إن كنت أعرف أو لا أعرف. كل ما أعرفه هو أنني لم أرسم مساحة غيابها أبداً، أتصرف دائما وكأنها ستعيش أبدا. الآن أعرف أنها ستغادر في أية لحظة دون إلحم ولا دستور. لماذا نحبهم عندما يكون الوقت متأخرا، عندما نكون قد أحبطنا كل آمالهم فينا، عندما تكون قوتهم قد ذهبت تماما. كأننا نعيش حياتين واحدة حالية والأخرى مؤجلة دائماً. أين كنا عندما كانوا في أشد الاحتياج لنا؟

وعند ذلك...

قابلت "مصطفى" المقابلة القاضية والتامة والكاملة. المرة التى لا بعدها أية مرة. "مصطفى" لا يغلى مع القاهرة، كما هو، لا يغير حتى موقع جلسته، لا يغير حتى بداية كلامه: "إيه الأخبار؟" "مصطفى" الغارق فى الاعتيادية والاكتئاب. علاقتى بـ"مصطفى" لا تختلف عن علاقتى باللغة الفرنسية. قررت عائلتى البورجوازية قلبا وقالبا أن تضعنى فى مدرسة الليسيه الفرنسيه بالزمالك، فكنت أخرج من بوابة العمارة التى نسكن فيها لأدلف من بوابة المدرسة إلى فناء واسع! (إحدى أسباب التمرد فيما بعد)، مدرسة كل ما فيها صارم، وجوه المدرسات، حتى الفسحة عبء على القلب، المناهج صعبة، أصارع لأصل (صراع مبكر؟). كنت فى الخامسة من عمرى أصارع لألتزم بالكتابة على السطر لأفشل بالطبع، ويلازمنى الإحساس بالفشل، كان من المستحيل أن أكتب على أفقية السطر. لأننى كنت صغيرة أم لأن التمرد كان مزروعا؟ بذور التمرد تزداد ولا أعرف كيف أسيطر عليها، وحتى أنتى لا أتذكر كيف تنفجر هذه البذور لتورق طريق ضبابى طويل من عدم الفهم.

لماذا عاقبتنى مدرسة العلوم؟ أجاهد لأتذكر وعبثاً. كل ما أذكره أنها قررت أن تعاقبنى، أمرتنى أن أجلس القرفصاء ووجهى مقابل الجدارين اللذين يشكلا إحدى أركان الفصل، استمر العقاب لمدة حصتين متتاليتين كان يليهما ما نسميه "المرواح" الذى أجبرت فيه أن آخذ نفس الوضع إمعانا فى المذلة، والعقاب والمهانة والتأديب... بالفعل تأدبت، بطريقتى، لم أنس الألم فى ساق ولم أنس الشعور بالإهانة ولكننى نسيت اللغة الفرنسية تماماً إلى الأبد. بعد سنوات طويلة تجرى الفرنسية على لسانى مرة أخرى فى باريس. تظهر اللغة وتختفى تبعا لمركزية الشعور بالإهانة. فجأة تبدو الإهانة وكأنها كانت بالأمس وفى سياق آخر تبدو الإهانة بعيدة فى أزمنة ماتت. ويتراوح الإحساس بها كما صعود وخفوت النغمات فى مقطوعة طائر النار لـ"سترافينسكى"، تصعد فجأة عالياً وتهبط لتكاد تكون غير مسموعة. عند هذا الخفوت الشديد أتوجه تلقائياً لأزيد درجة الصوت فى جهاز التسجيل، ليرتفع فجأة صارخاً فى وجهى، حتى أدرك أنه من الحكمة عدم الاقتراب منه مطلقاً، ليعلو ويخفت كما يشاء. وظل "مصطفى" يعلو حتى السماء ويأخذنى معه ثم يهبط فجأة على الأرض ويقول "أنا كده". حتى جاء اليوم الذى قلت فيه بملء فمى "وأنا بقى كده". هدوئى وابتسامتى الدائمة لا توحى لمن أمامى مطلقاً بأى انفجار وشيك، كل انفجاراتى كانت كاملة ونهائية ومفرغة من أى إمكانية هدوء، تماماً مثل كيس البن المفرغ من الهواء. ورغم إحكام غلقه تفوح رائحته فى السيارة فكل من يدخل يقول "الله ريحة البن حلوة قوى"

ولا يشاهدون آثارا لأى بن. وهكذا تبقى آثار انفجاراتى صادمة على الوجوه.

كيف تمرد فجأة على سنوات من الاعتياد؟ لماذا تهاجمنا كلمة "لا" ونحن الذين كنا نقول "نعم"، من أى بئر فى تلك النفس العجيبة ينطلق التمرد والرفض واللاعودة؟ كيف تنبت الوداعة ومحاولات الحصول على صكوك الرضا من الآخرين كل هذه العدوانية الكاشفة الواضحة التى تتباهى بتقديم نفسها لعلاقة طالما كانت خافتة وبطيئة لم تختر لنفسها أى لون؟ ما الذى يحدث ليقلب شكلها ويضفى عليها ألوانا نارية؟ ربما عدة أشياء وليس شيئا واحدا. ربما عدة أيام، أو عدة سنوات، أو عدة حكايات، أو عدة حفلات، أو عدة جمل، أو عدة مكالمات، أو عدة ضحكات، أو عدة نظريات، أو حفنة من الإدعاءات.

لا يمكننى أن أحدد، كل ما أستطع أن أفعله هو أن أصف لنفسى كيف انقلبت الأمور، كيف كان شكل الألوان بعد الرؤية الأولى. معرفة "مصطفى" كانت دائما كالعيش بنظارة نظر، قصر النظر هو ما كنت أعانى منه لإلتصاقى بشاشة التليفزيون ولاستماعى بالقراءة وأنا مستلقية على ظهرى. قصر النظر الذى نعانى منه فى البصر ينتقل بشكل ما إلى كل علاقاتنا لتكون حياتنا بأكملها قصيرة النظر وقصيرة الأمد، فيتحول عذر "ما

كنتش أعرف" إلى "ما كنتش شايفة". والقاهرة لا تصدق كليهما. يخترع الطب ما يسمى عدسات لاصقة فكأنى أرى القاهرة عبر شاشة، ومع السنوات تتمادى العداوة بين العدسات وبين غبار القاهرة، تعود النظارة بزجاجها الثقيل فرضا تقيلا سخيفا لمن لم ينجز الفرض من الصغر. أشعة ليزر تعيد النظر كما كان، حقا؟ لا أذكر كيف كان. لم أعرف كيف كان، لم أر القاهرة مطلقا دون وسيط، لم أرها أبدا وجها لوجه، لم نتواجه قط. هل أنا مستعدة لهذا اللقاء المفاجئ؟

وهل هناك معنى لجملة قديمة مثل "زمن قديم متراكم"؟ لغة كيتش، إعادة إنتاج للكيتش، للسخف، لبورجوازية متعفنة متراكمة متوطنة منذ زمن فى نظر قصير، نظر دأب على قبول الآخر لمجرد بضعة إدعاءات أمام الذات، من أجل حفنة فضائل أملتها كتيبات ممترئة تشجعنا على ضمان رضاهم عنا، من أجل هياكل فارغة أدركنا أهمية شكلها ولم نهتم كثيراً بمضمونها، من أجل مقولات رددنا مفرداتها مع صحافة تطنطن وتكرر ولم نع معناها لأنه بعيد عنا، من أجل كلام... كلام... كلام. من أجل جمل منمقة. صديق يعرفنى عن قرب يقول "إنت لسة خايفة لازم تقطعى كل الحاجات اللى بتشدك لورا". الأمر أبسط: القاهرة واضحة بدون نظارة.

بكل هذه المباغتة والمفاجأة رأيت "مصطفى" أيضاً، دون أدنى استعداد. من المستحيل أن نستعد لرؤية الآخر، خاصة إذا كان هذا الآخر كامناً فى كل أركان حياتنا كاللغة تماما. لم يكن غريباً إذن أن أدرك بصفاء نظر أن "مصطفى" لا يعيش إلا فى قلب اللغة. اللغة تشكله فيعيد تشكيلها فلا يمكن أن نميز "مصطفى" من الحروف والسجع والصور والتشبيهات والممنوع من الصرف. يدور بك "مصطفى" فى متاهات اللغة ليشكل الفكرة ويشككك معها، فيتشكل الموقف كله ويتحول إلى مجرد كلمات. لا شىء يحدث. لا أحد يمر، فقط اللغة تدفعك ثم تجذبك صعوداً وهبوطاً، فقط اللغة. بعد سنوات ننسى اللغة وبالتالى ننسى "مصطفى" لأن كلماته كلها مستعارة من قاموس "زمن قديم متراكم". كلنا عند "مصطفى" صور وتشبيهات يحرص أن يضع نفسه خارج حدودها، يتيقظ لئلا يصيبه حرف متحرك أو حرف جر. فى لحظة ما أدركت أن "مصطفى" ليس سوى مضاف، أما المضاف إليه فهو المكان بكل صخبه، لابد أن يضاف "مصطفى" إلى المكان فيتحول إلى جزء من الانتهازية اليومية الصارخة التى تتحالف مع الشيطان فى سبيل الحصول على أشياء، مجرد أشياء، لا ندركها إلا حين نجد تاريخاً للمكان القاهري. هو "مصطفى" الذى يريد أن يفعل كل شىء ليحافظ على كل شىء دون أن يفعل شيئاً، استهوته دائما فكرة صنع تاريخ البشر وهو خارجه) لذلك كنت أرتعد كلما ألاحظ غرقك التام فى اللغة يا "روضة". لغة دواوين "درويش" التى تحفظينها عن ظهر قلب وحكايات

"إيزابيلا الليندي" التى عشت فيها زمناً. كنت أرتعد لمجرد التفكير أنك لن تكسرين قشرة اللغة لتخرجين إلى العالم بكل جمله المفككة. كنت على وشك الاستغناء عن الحياة والاستعاضة عنها بحياة الآخرين حتى لو كانت شخصيات فى كتب. "مصطفى" استهوته اللغة فكانت كالنداهة التى استدرجته ولم يعد، مضاف فى أعقد خريطة لغوية لا يمكن فك شفرتها إلا بإلقائها فى سلة مهملات ضخمة امتلأت بالكثير من مفردات القاهرة.

وعند ذلك كسرت أول حلقة فى قيد القاهرة: المضاف ليس سوى مزيد من الطنطنة.

عند ذلك... عند ذلك رأيت "مصطفى" بوضوح بسيط وغير مؤلم، "مصطفى" الذى جاء من قرية صغيرة فى يوم ما أصبح ابنا بارا للقاهرة بكل وحشيتها التى ترتدى قفازات حريرية. الوحشية التى تنقض ثم تتراجع تاركة للضحية فرصة لا تعنى أى شىء لتنقض مرة أخرى وقد نسيت ماضيها، وحشية تبدأ من فراغ مهول ليس له بداية فى زمان أو مكان، وحشية محايدة تزأر فى وجه العالمى وتسخف بالعالم كله لتنفرد بالضحية. وحشية تمتلك لغة، ولا شىء سوى اللغة.

ذاكرة عودة ثانية

الطقس معتدل كثيراً مع العديد من بقاع الشمس، بقاع كانت تدفع أهل برلين للتهليل وربما كادت أن تدفع بهم إلى البسملة والحوقلة... الشمس التى تصنع المعجزات فى أوروبا، لم يروا شمسنا من قبل، ولم يلمسهم لهيبها. برلين هادئة تموج تحت بقاع الشمس المتوهمة، تموج بأحلام المستقبل وتحاول التخلص من ماض يؤرقها، ماض لن يمحى أبداً. قوة المحو لن تضاهى أبداً قوة ذاكرتى!!

ساعات النوم كثيرة بل وتتكاثر. النوم والأحلام، كيف أتخلص منها؟ لا هروب من هذه القاهرة سوى فى النوم فقط لتأتى مرة أخرى بمنتهى السلاسة واليسر وكأن لم يكن شيئا بيننا، لا عكارة، لا رواسب، أستيقظ لنبدأ معاً صفحة جديدة.

برلين وشمسها وحفلاتها. أو ما يسمونه حفلات. الكل مشغول بالكلام، الكلام، الكلام، كلما أجد كتلة تتكلم أبتعد، أصبحت أخشى الكلام، وهل هناك بعد كلام القاهرة كلام؟ يتكلمون عن الأبحاث وعن آرائهم فى شكل برلين بعد أن توحدت، وعن عصر النهضة والحداثة، يتكلمون عن حداثة

القاهرة وحداثة دمشق وحداثة بيروت، يتكلمون عن الحداثات، وينظرون لى. هل لأؤكد أم أنفى؟ غالبا ما أصمت وأنظر لهم بإعجاب، تبهرنى هذه الثقة التى تقدم نفسها فى شكل جمل مترابطة محكمة لم أنجح مطلقا أن أشكل واحدة تشبهها. ربما كانت جملى مفككة منذ كنت أخشى تفكك جسدى، جسدى الذى حاولت أن أجعله متوافقاً مع متطلبات نظرة ما، نظرة أختى وأمى وزملائى، نظرة قاهريين لم يمنعهم الحياء أن يقولوا "تخانة شوية مش كده؟" أو "إيه ده! برافو عليك خسيتِ". فى كل الأحوال كانت جملى مفككة ومازلت على يقين أننى محتفظة بهذا التفكك حتى اليوم، رغم أنه تحسن قليلاً وتحول إلى جمل قصيرة مبتورة. الكل مغرم بالكلام عن الحداثة، وتوفرهم دائما الحداثات الأخرى. أية حداثات والشوارع تغلى ولا قطرة ماء تنقذها؟ أية حداثة والكلام الجارح لا يتورع عن الخدش والتشويه فى شوارع القاهرة، أية حداثة تلك التى تجعل الشك والتشكيك هما مصدر الحياة، أية حداثة فى بلاد تضرب فيها الحمير والبشر بشكل متساوى، أى حداثة فى بلاد احترفت حكومتها الكذب المستمر تكلمت بالنيابة عنا وأبدت خوفها من "السماح" لنا بالديموقراطية جرعة واحدة... لدى دائما مشكلة مع هؤلاء الذين ينظرون لأماكن بعيدة، لأماكن لم يعيشوا فيها، لم يتنفسوا هواءها، أماكن لم يعرفوا لهجتها ونكاتها وشعورها بالمرارة، أماكن لم يقرأوا كتبها ولم يتهجوا نميمتها، أماكن أرادتهم دائما ولم يريدوها، أماكن انتظرت دائماً أن تحصل على الشرعية من مكان ما، أماكن شكلت صوراً

عن نفسها وصدرتها ولم يستقبلها الآخر، أماكن تحولت إلى أماكن لأننا موجودون فيها. هذا هو كل شيء.

فى حفلات القاهرة مسموح لنا أن نصمت قليلاً، أن نظهر بعض الحزن، وكثيراً من الشجن، مسموح لنا أن نغيب فى عوالم أخرى. نتشاغل أحياناً بالمحمول أو باختيار الموسيقى الملائمة لمزاجنا أو قد نقضى الوقت كله فى تنظيف طفايات السجائر كما تفعل "سمر". فى حفلات برلين الصمت غير مسموح، الصمت يستدعى العديد من التعليقات والتفسيرات والتأويلات. الحفلة فى برلين تقام من أجل الكلام. فى برلين يتكلمون، يلتقون من أجل النقاش، من أجل المعرفة، فى القاهرة نقيم حفلة لنتخلص من توترنا وأحزاننا المتراكمة. فى برلين ينخفض صوت الموسيقى تماماً وفى القاهرة نستأذن الجيران لأن الموسيقى ستصدح عالياً. يقيم البرلينيون الحفلات لأسباب تختلف عن القاهريين. حياتهم تسير على وتيرة منتظمة قاسية، عمل من الصباح حتى السادسة أو السابعة، عشاء ثم نوم، ليبدأ اليوم التالى. الكلام قليل والإنجاز كبير. الحفلات للبرلينيين فرصة للتواصل، ليعرفوا كيف يفكر الآخر، ماذا يفعل، يناقشون كل شيء حتى آخر قطرة، يناقشون ولا يغضبون مثلنا من النقاش، يناقشون وفى اليوم التالى لا ينسون ما قيل، فيعيدون توظيف كل ما سمعوه فى أفكارهم. فى القاهرة يغضبنا النقاش إذا طال عن الأمد المقرر له، نشعر بالتوتر والقلق ونتساءل

عما يعنيه. تغضبنا الصراحة المباشرة ونبنى مواقفنا على آرائنا فى آراء الآخر. رأى على الرأى لننتهى بأكبر شبكة علاقات معقدة. فى حفلات القاهرة تنقذنا دائماً الموسيقى بصوتها العالى من النقاش، فينتهى الأمر أننا بعد سنوات ندرك أننا لم نستمع كما يجب.

فى إحدى الحفلات البرلينية المنمقة أتعرف على "سوزانا" الألمانية التى تهرف بشاشة لم أعهدها لدى الألمان. تتكلم "سوزانا" العربية بطلاقة ولا يمكن ملاحظة اللكنة إلا فى بعض الضمائر وحرف الكاف. تبادرنى بالتعليق المعتاد "يقولون إنك مصرية"، أجيب بالعربية "الحمد لله". تطلق ضحكة مجلجلة فأدرك أنها تفهم العربية بحق. أبادر أنا بسؤالها "أين تعلمت العربية؟" وكأنها كانت تنتظر السؤال "زوجى مصرى، رجل رائع، تزوجنا منذ سبع سنوات لكن أهله يعاملوننى بجفاء لأننى لا أنجب، لذلك توقفت عن الذهاب معه إلى مصر". يبدو أن ملامح التعاطف ظهرت على وجهى مما شجعها أن تكمل "هذا الأمر متغلغل فى ثقافتكم، المرأة لديكم ليست سوى بقرة". أسحب كل التعاطف، أنظر إلى عينيها مباشرة وأتخيل الاختيارات المطروحة أمامى. إما أن أنطلق فى محاضرة طويلة مكررة، أو أضع أعصابى فى ثلاجة وأبدأ نقاشاً عقيماً، أو أغادرها فى التو واللحظة. اخترت الحل الأخير. سئمت من الدفاع عن صور ومحاولة خلق صور بديلة. فكان أن قلت لها بمنتهى الهدوء "وكيف أحببت رجلاً ينتمى لثقافة البقر، اطلبى

الطلاق". ملت بجسدى قليلاً خارج المركز الذى كنا نقف به ثم أدرت رأسى لأعلن نهاية الحوار وغادرتها بالفعل.

بعض الحفلات فى برلين تحاول الإبقاء على آخر قطرة عربية، آخر نفس عربى، لا يقدر على صعود سلم التاريخ الذهبى ولا يسمع خشخشة المفاتيح فى ذاك الباب. "شهرزاد" العراقية تحاول أن تعيد البعث للمقام العراق، ويا ليييييل، ويا عين، ولا فائدة، "شهرزاد" منغمسة كلها فى المقام والكل يجلس فى البسط، تحاول استعادة عراقها، تبعث الحياة فى صور فقدت منذ زمن. ويبقى الأمل الوحيد لديها هو تنشيط الذاكرة بالموسيقى، بالمقام، باستبدال المكان بموسيقاه. وتردد "الصهاينة يسرقون موسيقانا". عندما تخوننا الذاكرة غالبا ما تنشط حاسة السمع ونختار أن نستمع لأصواتنا المألوفة فى أماكن غير مألوفة، لنكتشف بعد كثير من الزمن المراوغ أننا بدون أمكنة، هكذا أصبحت القاهرة صورة فى ذاكرتى تنشط بموسيقى وألحان.

وأصبحت أنا عدة صور بالتبعية. صور تتشكل فى لغات فلا أعرف أيها أكون. أتحدث العربية فأضحك ثم أغوص فى بحار هائلة من الحزن مليئة بصور مهترئة، صور متقطعة لا أعرف كيف أضعها فى تراتب زمنى. وتلح على تلك الذاكرة المناضلة جملة واحدة "مش هنسألك اطلقتِ ليه، الغريبة إنك ازاى أتجوزتيه". يهرب كل من يقدمون للحياة مذكراتهم، كيف

ينجحون فى إيجاد هذا الترتيب الواضح المتسلسل بنعومة ومهارة مدعمة بأسماء وتواريخ. أحاول أن أتذكر سبباً واحداً دفعنى حينها إلى الزواج من ذاك الرجل وأفشل فى إيجاد حتى ربع سبب. فى الندوات والمؤتمرات أنتقل إلى الإنجليزية فأناضل مرة أخرى لأنقل "حداقتى" العربية إلى ثوب آخر، لكن الحديث بلغة أخرى يجعلنا بالتالى آخرين، لا نكون نفس الشخص كما اللغة الأولى. حتى النكات والقفشات تختلف، نبرة الضحكة تنخفض، ويزداد الاهتمام والتركيز ويظهر الجانب العملى فى حياتنا. كل كلمة فى الإنجليزية تحمل خطوة فى المعنى أما عربيتنا فقد أصبحت شبيهة لتصريحات الحكومة، خاوية وصاخبة دون معنى. ألهذا يتكلم أهل القاهرة كثيرا؟ ألهذا لم أعد أجد الكثير لأقوله؟ ألهذا أصبحت مقتضبة بعض الشىء؟ أخرج إلى الشارع فتحيطنى الألمانية من كل جانب، لغة لا أفهمها لكننى حفظت أصواتها وألفت إيقاعها على أذنى. كدت أتعلم الألمانية ثم تراجعت لكى لا تزداد الأنا وتتكاثر فأضل طريقى بينها. فقد بدأت فعليا أضل الطريق إلى لغة قاهرتى. لا يشدنى لها الآن إلا "حنان" وعشقها لكل ما هو شعبى، تحب "شعبان عبد الرحيم" وتغرينى بمشاهدة فيلم اللمبى وتبحث فى أرشيف الأدب الذى يشبه روايات عبير والألغاز، وتلهث بلغتها العربية فى وسط القفشات والمصطلحات. لغة "حنان" العربية تشبه القهوة السادة بدون "وش"، أتخيل "حنان" بلغتها فى مواجهة "مصطفى" بلغته. تحول "حنان" الإنجليزية إلى عربية، ولذلك فهى ككل الذين يتعلمون لغة جديدة

تستخدم الألفاظ البذيئة بسهولة ولا تحاول مثلنا أن توحى بها أو تدور حولها أو تصفها أو تقولها بالإنجليزية مثلاً كما نفعل دائما، فنشير إلى الحذاء بكلمة "شوز" وإلى المومس (التى لم نرها قط، لكنها صفة نطلقها على كل من لا يعجبنا سلوكها) بكلمة "بروستيتيوت"، ونتجنب وصف الرجال بالصفة المقابلة لمومس فنقول "زبالة". نحتاج إلى الكثير والكثير لنصل إلى الهدف، غالباً ما نفقد نصف عمرنا فى محاولة قول أشياء نخفيها أو شرح قصة غير مفهومة أو حتى فى التعبير عن أنفسنا كما نحن دون مواربة أو محاولة قول آراء لا تزعج الآخرين - وهو مستحيل -. ولأننا نفشل دائماً نلجأ إلى أسهل وأقصر الطرق التى نستطيع فيها الكلام كما نشاء: بدلاً من أن نتكلم عنا نتكلم عن الآخر بمنتهى الطلاقة والسلاسة والوضوح!

أتأرجح بين الإنجليزية والعربية، بين عربيتى وعربية "حنان"، بين إنجليزية الألمان وألمانيتهم، ولا أعود أركز كثيرا فى تثبيت المكان. كان المكان معتما سميكا كالشراب المركز فعملت اللغات على تخفيفه حتى شف لونه وخف حضوره. إحساس مماثل لكسر شبكة "مصطفى" اللغوية.

أين ذهب الحنين والاشتياق؟ التعلق بكل التفاصيل؟ متابعة كل الأمور الصغيرة؟ حتى لغة القاهرة انزاحت مفسحة مكانها لأخرى لا أعرف مصدرها. عدت من القاهرة إلى برلين بفقدان ذاكرة تام. أتذكر عودتى الأولى

إلى برلين حين وجدتنى قد نسيت كيف تعمل غسالة الملابس وإن كان يجب أن أضع الصابون فى اليمين أم اليسار. وعندها استعنت بجارى الروسى وأخذت أعتذر فطمأننى قائلا: "لا عليك، عاد أصدقائى من روسيا وقد نسوا تماماً مكان محطة الأوتوبيس". الكل إذن يعود مشبعاً وممتلئاً بالمكان. هذه المرة عدت خاوية من المكان، احتجت عدة أيام لأعيد رمى هلب الحواس فى برلين، عدة أيام لم أفعل فيها شيئا سوى النوم حتى استيقظت بفقدان ذاكرة تام. كلما أحكى حكاية تعاتبنى "حنان" "ازاى ما قلتليش على الحكاية دى قبل كده؟" "نسيت والله ياحنان، ما إنت عارفة، أنا بانسى بشكل فظيع"، وكنت أقول الحقيقة فأنا من أشهر فاقدى ذاكرة العصر، حتى أن رقم تليفونى المحمول مسجل فى شكل رسالة على التليفون نفسه، وهو ما لا يمنعنى من إعطاء الرقم الخاطئ لمن يطلبه لأننى أنسى أنه مسجل. لكن لم أنس مطلقا نبض القاهرة، فقد كان زادى الأوحد فى الستة أشهر الأولى فى برلين. كيف تمكن هذا النبض من الإفلات؟ وكأننى معلقة بين سماء بعيدة وأرض أبعد، وكأن الحدود أصبحت حقيقة، ليست مجرد خطوط وهمية.

تقل اتصالاتى بالقاهرة وتبقى مكالمة يوم الجمعة لأمى ميعاد مقدس، مكالمة لا أجد ما أقوله فيها سوى "كله تمام"، "الحمدلله"، "كويسة والله"، "لأ، مافيش أخبار خالص"، "آه، كويسين معايا قوى".... ثم اخترعت صيغة

أخرى لبرلين، فبعد إلحاح الأسئلة أقول "مافيش أى أخبار فى برلين، مافيش حاجة بتحصل هنا خالص". وبشكل ما لم أقل سوى الحقيقة، فبرلين ليس بها قصص أو حكايات سوى تلك التى نصنعها فتخرج كطفل الولادة القيسرية. ليس لدى فى برلين سوى إعادة صياغة لأخرج بمسودة أولى، ثم إعادة صياغة لأخرج بمسودة ثانية، فتتحول الحياة إلى مجموعة من المسودات التى لا يعرف عنها أهل القاهرة شيئا، فى إحدى المسودات كنت خارج نفسى أتفرج عليها، وفى مسودة أخرى كنت فى أمستردام تئن أعصابى تحت ضغط صور الحرب العالمية الثانية فى المتحف اليهودى، وفى مسودة أخرى كنت أسير مع "حنان" ليلاً بعد خروجنا من المسرح وكل منا تمسك بكيس فشار بيدها وأقول لها "دى لحظة رائعة، مش هتتكرر أبدا"، فى تلك المسودة كنت قد أدركت سحر اللحظات التى تفلت ولا تعود، وفى نفس المسودة أجد مقهى على ناصية الشارع اسمه "تابيولا رازا"، أتساءل هل لو دخلت ذاك المكان سأنجح أن أحول عقلى إلى صفحة بيضاء أخط عليها مسودات جديدة؟ مسودات كثيرة والصياغات تتكاثر ولا أحد يسألنى فى القاهرة عنها، لا أحد يهتم أن يعرف مسوداتى ولا إعادة الصياغة، تقل مكالماتى للقاهرة وتتعلثم الحوارات. فهم لا يسألوننى ولم أنجح فى إعطائهم صيغة السؤال. لكن "حنان" أيضا لا تعرف ما الذى صاغنى ولا تعرف كم حقارة مارستها وكم بطولة افتعلتها وكم مرارة اختزلتها، ربما أنا أيضاً لا أعرف مسوداتها. كأننا نعيش زمناً مقتطعاً من الزمان، وضعناه فى مكان وتظاهرنا

أنه البداية. ابتسرنا كل ما مضى ونحاول عيش اللحظة لتتكفئ كل واحدة ليلاً فى بيتها وتعيد الصياغة. تحاول "حنان" أن تعالج هذا الابتسار فتهاتفنى فى الصباح وتسألنى تفصيلياً عما فعلته وهكذا يصبح لدينا ماض معاً، وعندما تنفلت منا النكات وأقول لها "فاكرة لما الراجل المتخلف ده قال لنا..." أدرك أننا نجاهد لنحفر مستقبل فى لحظة آنية مقطوعة عما قبلها وعما بعدها. أما الألمان فلا هم لهم سوى أن يتأكدوا أننا لا ننوى البقاء فى بلادهم، وعندما يدركون أننى لا أتكلم الألمانية يطمئنون قليلاً فلابد أننى عائدة من حيث أتيت. مؤخراً بدأت أصرح للألمان أن المعيشة فى بلادهم "از ديفيكلت اند ديفرانت". دائما ما يبدون رد فعل يوحى بالصدمة رغم تفهى من ارتياحهم لقرارى.

أجاهد البتر وأتحامل على العرج الروحى لأهاتف "سميرة" :

- أيوه يا "سميرة"، وحشتينى.

- "عيشة"، ازيك يا حبيبتى، عاملة إيه؟

- الحمدلله.

- طيب ثانية واحدة والنبى يا "عيشة"، أرد على الخط التانى.

تتكلم "سميرة" مع إحدى صديقاتها وتعدها أن تتصل بها فور إنهاء "مكالمة من بره". نغادر المكان فنتحول إلى مكالمات من بره! تعود "سميرة"

- معاكى يا عيشة.

- أخبار السفر إيه يا "سميرة"؟

- خلاص جوز أختى هيبعت لى الدعوة قريب.

أنهى المكالمة وتسرى فى أطرافى رعشة.

سألنى "مصطفى" ذات مرة فى إحدى رسائله (ليسوا سوى ثلاث): "إذن هل نمت قليلا؟ وهل كان الرحيل بلا وداع أجمل؟ وهل كانت الرحلة بالترانزيت أجمل من الرحلة المباشرة؟ وماذا عنك بين الوصول والرحيل؟"

ربما لابد أن أسأل مرة أخرى، الآن حان ميعاد السؤال. ماذا عنى بين الوصول والرحيل؟

أستمتع ببرلين حتى الثمالة لكننى واثقة أننى مازلت خارجها. أحفظ الطقس وأرقام الأوتوبيس وأشعر بالأمان فى شوارعها المتأخرة وأستخدم بثقة فكاهية ألمانيتى المتلعثمة القاصرة على بضع كلمات، وتبقى برلين خارج القلب والروح، تملك جسدى فقط. تقترب منى برلين فى تلك اللحظات التى أنغمس فيها فى صور الحرب العالمية الثانية، أو أقترب أنا منها. تثير هذه الصور الرعب فى وتستنفر كل أعصابى وتحتل اهتمامى، حتى أننى أتابع صور وأفلام تلك الفترة البائسة بولع شديد. تعظم برلين من بشاعة تلك الصور وتقدم نفسها كضحية مغلوبة على أمرها، وهو ما يفسر تجهم برلين فى وجه أى زائر

جديد. تكاد شوارعها تكون رمادية اللون رغم كل الأشجار والزهور، التاريخ هنا يؤرخ له بقبل الحرب وبعد الحرب. ويطلق أهل برلين على حرصهم الشديد فى الشراء "ثقافة حرب" ونسميها نحن "بخل"، فيتناولون كميات طعام هائلة وكأنه آخر يوم دائما ولا يتركون لقمة واحدة فى الطبق. ولذلك عندما أترك الكثير فى طبقى ينظر لى النادل بدهشة ولوم وعتاب. وعندما توجه أية مؤسسة ثقافية دعوة لحضور ندوة يكتبون فى أسفل الدعوة ما سيتم تقديمه وهو غالبا "بريتزل". ضحكت كثيرا عندما قدموه لى فلم يكن سوى السميط الذى يدور به البائع على كورنيش النيل! كل ما فى الأمر أنه مرصوص فى صينية بدلا من السلة التى يحملها البائع بفخر. الإحساس بالخجل من ماضى أسود والرغبة فى النسيان والمحو يدفعان برلين إلى التظاهر أنها ولدت بعد الحرب وأنها لم تكن موجودة من قبل. وأتظاهر أننى لم أذهب إلى القاهرة قط. أتظاهر أن الحكى كان دائما بارداً.

إلا أن...

أخبار القاهرة تتوالى فجأة، تتلاحق، تتسارع... الغضبة الكبرى بدأت من تحت الأرض وبدون سابق إنذار وبدون أى إعلان، نبتت الشرارة دفعة واحدة، هكذا من تحت طبقات صمت لم يشك أى منا أنها ستئن تحت وطأة الإفراط، الإفراط فى كل شىء، فى تعليق أجساد وإطفاء السجائر فى ثناياها، فى تجاهل وجود بشر يقطنون هذه القطعة من العالم، فى سرقة أراض ليست لهم، فى تحويل الجامعة إلى ملزمة، فى تحويل المدارس إلى زفة مستمرة، فى حشو العقول باللغو عبر الأزيز المستمر للتليفزيون، فى غلاء الأسعار وفساد السلع، فى مياه الشرب المختلطة بمياه الصرف الصحى، فى الوسائط والمحسوبيات، فى تجاهل الكفاءات لحساب رجالهم ونسائهم، فى التصارع على مؤتمرات الفنادق، فى قسمة البلد إلى نصفين، نصف لهم نطالعه فى مجلات سياحية براقة وعلى قناة السى. إن. إن ونصف لنا نتصارع فيه جميعاً على سنتيمتر واحد فننهش فى بعضنا أو حتى أنفسنا. الإفراط المستفز الذى لا يمل التكرار، لنسقط فى فخ أخذهم على محمل الجدية! أتوق أن أعرف كيف يفكرون الآن، أنها "هوجة" وستنتهى، أم أزمة وستمر، أم أننا مازلنا نصدقهم، كيف يفسرون هذه الغضبة بعيون زجاجية، ما عادت ترى ولا تسمع منذ زمن. كيف يصنفوننا فى تاريخهم، فى وعيهم، مجموعة من

المجانين أم مجموعة من الإرهابيين؟ وماذا عن الذين يهللون لنظام سرت المعفونة فى أوصاله حتى شلت حركته؟ أين سيكون هؤلاء حين الغضبة الكبرى؟ وأى مبرر سيقدمون؟ ولماذا ينسون المثل الدارج "آخر خدمة الغز علقة".

كأن القاهرة تمشى بالمقلوب، كأنها تمشى وهى نائمة، كأنها تسلخ جلدها نهاراً وترتدى جلة أخرى ليلاً. الكل يريد أن يحصل على شرف قلب القاهرة، الكل يقول إنه هو من حرض وهو من دفع، و"كمال" يؤكد لى "لأ، أنا مش معاهم، بس بياخدوا رأيى وباعملهم اللى هم عايزينه". أواصل دون يأس:

- ليه يا "كمال"؟ يعنى اللى هم عايزينه مش برضه اللى إنت عايزه؟

- أصل أنا مش واحد عادى، لازم يتعاملوا معايا بشكل مختلف.

ينتابنى الغضب من كل الذين يعتقدون أنهم مختلفون ويعبرون عن هذا صراحة:

- كلنا مختلفين يا "كمال"، ولا أنت على راسك ريشة. أنا كمان مختلفة يا أخى.

- لأ مش قصدى، فهمتينى غلط .

- أمال قصدك إيه؟

- يعنى مثلا لما باروح مظاهرة أبص الاقيهم بيقولوا لى "متشكرين قوى إنك جيت". طيب يا "كمال" إنت اللى وصلت لهم الإحساس ده. كأنك بتتفضل عليهم. برضه ليه مش راضى تمضى على البيان، وفيها إيه يعنى لما يقولوا متشكرين، على الأقل أحسن من الستات المتوحشين بتوعك اللى فاكرين إنهم عاملين تنظيم سرى.

أفهم فى النهاية أن "كمال" أراد معاملة خاصة فعلياً، وكل أسبابه وجدتها غير مقنعة رغم تعاطفى التام مع الغليان الذى يعيش فيه، لكنه رغم هذا يفعل الكثير فى أماكن أخرى. يحب "كمال" أن يكون موجوداً وغير موجود. يجلس بجانب مريض يحتضر حتى يموت ثم يقول "مش عارف، أنا عملت كده وخلاص، أنا ما كنتش أعرفه"، يحمل زهور تهنئة لعروس ثم يقول "مش عارف، الصراحة أنا ما اعرفهاش كويس"، يقضى ليالى ساهرا مع بشر ويؤكد "أنا ما اعرفهمش كويس، باقعد معاهم بس كده". "كمال" المضحى دائماً يسافر بسيارته الصغيرة حتى دسوق ليلتقط صوراً للأطفال فى مولد إبراهيم الدسوقى، لا تتوقف صوره عند الأطفال بل تمتد لتسجل بائعى حلويات غامضة ملونة، بائعى ألعاب نارية، بائعى أشياء غير مفهومة.. يعود وينفق كل ما لديه لتحميض الصور ثم يكبرها ثم يعيد تأملها كلها مع الآخرين. أسأله: "نفسك تبقى مصور يا كمال مش كده؟" يجيب "لأ،

خالص، دى هواية بس". هل كان يعرف أن حلمه السرى سيتحقق يوماً ما.

أما "غادة" فقد كانت تتصرف كالمراقب طوال الوقت، حاولت أن تقوم بدور ولم تجد سوى إحباط فبدأت تخرج كل غضبها، وتقول بحنق "هم فاكرين إنهم أخدوا الحكم ولا إيه، ده بس عربيتين أمن مركزى يلموا الليلة دى كلها. الواحد أحسن يتجوز ويقعد فى البيت"... هل كانت تعرف أنها تعنى ما تقوله؟ تقول ذلك فيهمس لى "شهاب" "تتجوز؟ تفى على قبرى!".

لكن القاهرة كانت تعرف، وعندما بدأت تحقق لنا ما كنا نحلم به أراد كل واحد فينا أن يلجمها، أن يسيطر على أنفاسها، أن يجعلها تتبع خطواته فقط، كل ما يخرج عن السيطرة مشكوك فيه وغير معترف به، علمتنا القاهرة أن ننبذ كل ما يقع خارجه، أن نشوه كل ما ليس فى أيدينا، علمتنا القاهرة كيف ننسج حكايات نلوكها عن الآخرين لنصنع لهم مساحة مماثلة، أن نكذب لنجمل ما نملكه ونقبح ما لدى الآخرين. علمتنا القاهرة كل هذا ولم تعلمنا الاحتفاظ بذاكرة حقيقية فانتهى بنا الأمر إلى طبع عدة نسخ من القاهرة نوزعها طبقا للسياق ولمزاجنا العام والخاص. لم تعلمنا القاهرة كيف نتعامل معها عندما تقرر فجأة أن تغلى. القاهرة تغلى وتغلى حتى أن قوانين الطبيعة تغيرت فلم تعد درجة مائة هى درجة الغليان بل وصلت إلى الألف

أو ما يزيد. أطل على القاهرة بعين ثابتة عبر شاشة الإنترنت، فى هذه اللحظة تحديداً كان يجب أن أكون هناك، فى قلبها بكل صخبها، لكن يبدو أن الأماكن لم تعد مهمة بقدر الزمن ودقائقه، فتغير الزمان يعنى بالضرورة تغير المكان. متجاوران ومتلازمان، لا يعنينى سوى أن أمسك بواحد منهم فقط، وإذا كان المكان يتسرب بالضرورة من يدى فلأحاول التشبث بصيرورة الزمن الآن وهنا. لأحاول أن أشهد ولادة قاهرة هادرة جديدة. هل ستولد حقاً؟

ذاكرة الليمون

المقارنة بين تحولات الذات وتغيرات المكان قديمة ومكررة وتعيد ثقافة الأفلام العربية حين كانت الريح تشتد والمطر ينهمر والعواصف تشتد لنرى "شادية" تبكى بحرقة وهى تضع إيشارباً على رأسها لتعلن عودتها إلى الفضيلة، لتعلن ندمها أو ألمها أو عجزها. هذا هو الدرس المستفاد من الفيلم بالإضافة إلى الدراما المهولة التى يبعثها فى نفوسنا والفرصة التى يوفرها لأمهاتنا كى يقلن "شايفين، اتعلموا بقى وخدوا بالكم". المفارقة أن هذه الأفلام هى التى نشأنا عليها والتى غالبا ما ذرفنا أمامها الفائض من الدموع والعواطف المخزونة التى لا تعرف لها مكانا أكثر أمنا من الشاشة. لكنها كانت المتنفس الوحيد لكل ما هو مختبئ وغير معلن، لكل رغبة ليس معروفا ميعاد ولادتها، لكل فكرة تبدو مستحيلة، لكل نزوة تبدو بعيدة. ومن منا لم يبك أمام فيلم. عندما كنت فى سن المراهقة كانت ابنة خالتى تهمس سرا عن فيلم "قصة حب"، تتحدث عنه ثم تسرح بنظرها بعيداً - متعمدة قليلاً - وتقول "آه". وعلينا أن نفهم. ولأننى كنت أصغر منها بكثير فقد كنت أفهم أنه يتوجب على فى تلك اللحظة أن أبدى عدم الفهم وأقاطع قائلة بارتباك "مش هنروح نجيب لب بقى؟".... مضت السنوات وشاهدت الفيلم فوجدته مملا

وكتيبا لكن ملائما بالطبع للمزاج المصرى الذى يعرف أنه هالك ولا محالة فى أية قصة حب. فالفتاة التى تحب "ترخص نفسها" والشاب الذى يقيم علاقة "راجل ما يعبوش حاجة" أو "طيش شباب" أو "عيل مش فاهم". ثم يتزوج ويحلل بنبرة الواثق حدود العلاقة بين "الولد والبنت". ويقول "ده كان زمان بقى، شقاوة قبل الجواز". كل النساء مباحات قبل الزواج وكلهن أدوات بعد الزواج. فى تلك الأزمنة كانت خالتى تتباهى بالخلاط الكهربائى الذى أحضرته معها من ليبيا (عبر الطريق البرى) والذى يخلط الليمون البنزهير بالماء بالسكر فننظر له فى انبهار وكأنه معجزة القرن العشرين. فى القرن الواحد والعشرين أحضر عم "أحمد" فراش القسم فى الكلية خلاط من مكان ما وانتشرت الجملة ذاتها فى القسم "واحد ليمون والنبى يا عم أحمد، خلى السكر قليل علشان الريجيم". حل الليمون محل القهوة السادة فى القسم (لكن الوقار دائماً ما يستدعى ذاك الفنجان المر، وخاصة عندما تنشب المشاجرات فى الاجتماعات الساخنة) التى كنت أصر دائماً أنها مصنوعة من بن مخلوط بالبسلة والفول السودانى، حتى أننى أقنعت "سمر" فى إحدى زياراتها الخاطفة لى بهذا فأخذت تضحك وتقول "بسلة إيه بس يا عيشة، ده إنت عاملة دماغ، ياختى احنا لاقيين. أهى قهوة وخلاص". تنهى فنجان القهوة فى رشفتين وتغادر مبتسمة "هاكلمك فى اليومين اللى جايين علشان نعمل حاجة، نتلم شوية على بعض". أومئ موافقة وأكمل الليمون.

(فى كل أفلام الأبيض والأسود كان الحبيبان يطلبان "اتنين ليمون من فضلك" وبشكل سحرى تحل المشكلة بعدها فورا. يتزوجان أو يتصارحان أو نكتشف أنهما أخوة فى الرضاعة)هكذا نشأت على فكرة الليمون السحرى، وفى أول ميعاد غرامى لى طلبت كوبا من الليمون عله يدفع الحبيب المرتقب – آنذاك - أن يعترف بحبه لى ويؤكد أنه لا يستطيع العيش بدونى. لا أذكر من هذا المشهد سوى الليمون، لا أذكر ما الذى حدث بعدها أو قبلها، هل أحبنى أم هجرنى أم هجرته، الليمون فقط يسيطر على الذاكرة ويحتل المشهد بأكمله. كان طلب الليمون قراراً مسبقاً ليس وليد اللحظة، هكذا يجب أن تسير الأمور.

تطورت وظائف الليمون وأصبح أهل القاهرة يستخدمونه لتهدئة الأعصاب. فى أى سوء تفاهم أو صوت عال يتطوع أحدهم قائلا "خلاص يا جماعة، صلوا عالنبى ووحدوا الله، ليمون بقى يروق دمك"، "لأ، مش عايزة حاجة والنبى"، "ده ليمون خلاط!" وكأن الليمون اكتسب أهمية جديرة بالاحترام مع ظهور الخلاط، الخلاط، الخلاط... جهاز كهربائى تحول إلى إحدى أشكال المباهاة والتفاخر ولا تخلو منه قائمة جهاز العروس. حتى أن السؤال فى السبعينات كان "عنده شقة؟" "عنده خلاط؟"، ثم بالطبع أهدرت مكانة الخلاط بظهور المكنسة الكهربائية والغسالة الفول أوتوماتيك والكيتشن ماشين التى لم أفهم قط فيما تستخدم، كل ما تمكنت من الوصول

إليه هو أنها ماكينة محولة بها كل أشكال السكاكين التى تدل على الثراء الخليجى. ولفترة طويلة ظللت مقتنعة أن خضروات الخليج لا يمكن تقطيعها بالسكاكين العادية التى نستخدمها.

مع التقطع المهول للذاكرة فقد الخلاط مكانته وبقى الليمون فى مكانه. ربما كان له مكان دائماً منذ أن جعل "أحمد عبد المعطى حجازى" الولد ينادى عليه "بالصوت المحزون". حتى اليوم مازال الصوت المحزون ينادى على الليمون فى كل إشارات القاهرة "تحت شعاع الشمس المسنون" ولكن بدلاً من "بالقرش الواحد عشرون" يقول الصبى الصغير "الشبكتين بجنيه" ويبقى الكثير مما لم يقله حبيس عينيه، وحبيس صدورنا.

(كل الكلام المحبوس يتحول إلى أشكال، تختفى الحروف المنطوقة وتظهر العلل والأوجاع. وعندما أصابت قرحة المعدة كل أهل القاهرة تراجع الليمون إلى الخلفية تماما ولم يبق منه سوى الذاكرة، "مسكين، لا أحد يشمك يا ليمون والشمس تجفف ظلك يا ليمون".)

ذاكرة اتجاهات

وكأن البرد يشتد كلما نتجه غرباً. برودة الطقس والوجوه تشتد فى أقصى غرب برلين. تتغير الشوارع، تزداد اتساعاً، تتراقص الأضواء على الأسفلت، حتى المطر يهطل بشكل أكثر انتظاماً، كله فى اتجاه واحد، خطوات السائرين سريعة، وجوههم تحاول اللحاق بفكرة تدور فى عقولهم، فكرة حقيقية أو وهمية، يجرون ورائها من التاسعة صباحاً وحتى السادسة مساء، يتحدثون وهم يلهثون، يضحكون وهم متوترون، يتوقفون لابتياع بطاطس يأكلونها وهم سائرون، كل الحياة تدور بأسرع إيقاع، حتى سيطر على هاجس أننى لو تباطأت لحظة لن يترددوا فى إزاحتى بقوة الدفع. حتى تلك الشعلة فى وسط الميدان التى لا تنطفئ أبداً تتصاعد نيرانها وتتراقص سريعاً فى الهواء. شعلة "تيودور هويس"، أول رئيس لألمانيا، والميدان مسمى على اسمه، والشارع باسمه، ومحطة المترو أيضاً باسمه. كنت أسميه دائماً الميدان "البرد". لكى أعبر الناحية المقابلة من الشارع لابد أن أمشى بممر حديقة كبيرة لونها أبيض فى الشتاء وبها ألوان كثيرة فى الصيف. أخترق مساحات بيضاء لأجد نفسى أخيراً فى الناحية المقابلة، أتجاوز محل الآيس كريم، ومحل البن، ومحل السجائر والمجلات والبانصيب، وأدلف إلى سوبر ماركت كايزر، أى قيصر. أبتاع أشياء قليلة بأموال كثيرة وأثناء استعدادى

للرحيل أرى الجليد يتساقط بهمة ونشاط، وأجد الأسفلت وقد اكتسى تماماً باللون الأبيض. لا أخفى استيائى وأخرج إلى الشارع ليصطدم نظرى بمشهد سمرنى مكانى. شخص رث الثياب، بنطلونه مقطع، ونصف واقف، يحمل لافتة مكتوب عليها جمل كثيرة، وهو بالتأكيد ليس ألمانياً، أوشكت ركبتيه أن تختفيا تحت الجليد، ألمح عملات معدنية متناثرة فى القبعة أمامه لأرمى بكل ما معى وأنظر له كثيراً ليعرف أننى أدرك وجوده. ما العلاقة بين هذا الرجل الراكع وبين الميدان البارد. ما الذى دعاه إلى ترك برلين كلها والمجىء هنا، لماذا اتجه غرباً بدلا من الاتجاه شرقاً؟

ذاكرة تحاول

متقطعة ومتشرذمة أصبحت ذاكرتى، لا أستطيع الإمساك بالأفكار. كلما أقبض على الفكرة تتوه منى. بدأت بتعاطف المكان مع المذات وانتهيت إلى الليمون. ما هى تقاطعات الروح والليمون؟ ربما كانت محاولة أخيرة لا واعية للإمساك بالقاهرة، محاولة لتثبيتها فى الذاكرة عبر استعادة رائحة ليمونها. أو محاولة الإمساك بخيط يلضم صور متفرقة لا معنى لها دون سياق. ربما كان الليمون إحدى الأفكار الهاربة التى تطير منى فى ربيع برلين، أفكار تتطاير وتطير وتهرب كالزئبق. كأننى أسير على قطع زجاج ثم أغوص فى تلال من الرمال لأجد نفسى فى عرض البحر. ليال من الأرق، وقلة ساعات النوم تدفعنى إلى الجنون، فهمت الآن كيف يعذبون المعتقلين بحرمانهم من النوم. أنام أو يغشى على ساعتين أو ثلاث لأستيقظ وكأننى لم أنم. ساعتان أعيد فيها تصوير أحداث اليوم وصوره وسخافاته. هناك تواطؤ دائم بين الأرق والسخافة. أستيقظ وأتحسس رأسى لأتأكد من وجودها. إحساس خرافى بالخفة، رأسى ليست هنا بل هناك، ولكن أين بالتحديد؟ أسبوع كامل بدون نوم، فقط شىء يشبه النوم. مع قلة النوم أو انعدامه يكون الإحساس بالخفة ثم يبدأ الحصار. تضيق دائرة الأفكار تدريجياً حتى تتحول إلى ثقب إبرة فى حجرة معتمة. وتتركز نهاية العالم فى محاولة إيجاد كارت به رقم

تليفون صديق فى هولندا لم أراسله منذ سنتين. والحقيقة أن المراسلة لم تكن مطلبا ملحا فى تلك اللحظة، لكن عقلى لم يرد أن يتزحزح بعيداً عن هذه النقطة. أقلب الحجرة رأساً على عقب والصداع يدق فى رأسى كالمطارق، أمنح نفسى استراحة أدخن فيها سيجارة ثم أعاود البحث الهيستيرى، أتخلص من أوراق وأنظف الكتب من التراب المتراكم وأنظر فى قصاصات ورق ببلاهة محاولة التعرف على الخط ثم أتذكر فجأة أنه خطى. لا يهم. أين الكارت؟ محاولة يائسة لإعادة ترتيب الأفكار أو ربما الحياة.

أسبوع كامل أسقط بعده من الإرهاق والتعب بفعل حبوب عشبية منومة. وعندما أستيقظ أبقى فى السرير وأنظر حولى بتعجب، كأننى عائدة من أطول رحلة مشيا على الأقدام. أسقط نائمة مرة أخرى ولا يوقظنى سوى الشعور بالجوع. أتناول بشراهة كل ما أجده أمامى فى الثلاجة، قطعة لحم تحيطها الدهون، كوب زبادى بالفراولة، قطعة جبن يتيمة ألتهمها ثم ألقى علبتها الكرتونية فى سلة النفايات، بضعة حبات لوز متبقية من شىء ما.

أتوجه إلى جهاز الكمبيوتر الراقد بوداعة على المكتب، جهاز صغير يفتح على العالم بأكمله. حتى الآن لم أستوعب هذه القدرة التكنولوجية المذهلة، الاعتياد فقط يجعلنى أغض البصر. أضغط على أيقونة البريد وأستمع بتلذذ إلى الصوت الذى يعلن وجود رسائل، أغمض عينى، من يا ترى؟ "سمر"

و"كمال" و"سارة"، وكم هائل من البيانات وإعلانات التضامن والشجب والاستنكار والرفض. أوقع على كل البيانات وأعلن التضامن التام (هل هناك خيار آخر؟). أقرأ رسالة "سمر" التى تعبر فيها عن قلقها من اختفائى لفترة، أبدأ فى الرد عليها، بعد السلامات والتحيات التى اختصرناها كثيراً على مدار السنوات، أؤكد أننى بخير (كنت أكذب): "إلا أن شيئاً ما هنالك فى البعيد فى الداخل، يحاول أن يخرج ولا فائدة. شىء... مجرد شىء، لا أعرفه ولا يمكن أن أحدده. كأننى على وشك ولادة، لا أعرف إحساس الولادة لكنها بالتأكيد تشبه شيئاً كهذا، كأننى أرى الماء فى قاع البئر السحيق، كأننى أسمع صوت عاصفة قادمة من مكان ما، كأن شيئاً ما يحدث أو يتأهب للحدوث أو ربما هذا هو الشىء نفسه"، تجيب "سمر" فوراً "لا تقلقى ما سيحدث سيحدث حتما، دعيه يحدث". إذن، ليحدث ما يحدث. فإن الانتظار يعود بكل قوة. تغيرت الجملة بعد ذلك وأصبحت "استرخى وسوف يأتى ما لابدّ أن يأتى". لم ولن أسترخى إلا فى القاهرة. تتعجب منى "سمر" "معقولة يا عيشة سايبة الهدوء بتاع برلين ورامية نفسك كده فى القاهرة. ده أنا نفسى فى أسبوع واحد من هدوء برلين". أضحك وأقول "يلا تعالى نبدل حالا".

يقفز اسم "غادة" فجأة فى صندوق صغير أسفل اليمين على الشاشة. أضحك كثراً من الاسم الذى اختارته لنفسها "الحلوة اتكلمت". أنقر على

اسمها وأكتب بشكل سريع "ازيك يا حلوة؟ إيه الأخبار؟" أنتظر بفارغ الصبر رد "غادة"، تحتاج حوالى ثلاث دقائق لترد. أقضى نصف ساعة مع "غادة" دائماً فيما لا يزيد عن عشر جمل. بعد تحيات "غادة" البطيئة والمكررة تكتب "كان نفسى نقابلى "أحمد" وإنت فى القاهرة. معلش الوقت كان ضيق شوية". أسألها فوراً "أحمد مين؟" بعد طول انتظار أعددت فيه كوباً من الشاى الأخضر كتبت: "أحمد الدكتور اللى اتعرفت عليه". إلى ماذا ترمى "غادة" لم تكن أبداً مهتمة أن أقابل من تعرفهم. أسألها مباشرة "هو فيه إيه؟" بعد طول انتظار آخر تكتب "يعنى كده". أرسل لها على الشاشة أيقونة وجهة يزمجر، فتكتب "أصله عرض على الجواز وأنا وافقت". أتسمر أمام الشاشة كالمذهولة. القاهرة المجنونة، ماذا فعلت بـ"غادة" التى كانت تبكى حتى آخر لحظة والفقد كاد أن يفتك بها؟ أين ذهبت هواجسها؟ تناديني "غادة" على الشاشة "عيشة، إنت رحتِ فين؟" أكتب "ألف مبروك يا حبيبتى. بكره أكلمك علشان تحكى لى بالتفصيل."

توجهت مباشرة إلى المعطف وارتديته ثم تلثمت بالكوفية الصوف ووضعت القبعة على رأسى وتوجهت إلى باب الشقة فأدركت أننى لم أنتعل الحذاء. خلعت كل ما كنت قد ارتديته وجلست أرتدى الحذاء المخصص للمشى فى الثلج. ارتديت كل تلك الأشياء مرة أخرى وكنت فى الشارع فى ثوان. حجبت الكوفية فمى وجزءا كبيرا من وجهى فلم يتخيل الألمان أننى أكلم

نفسى بصوت عال وأخذت أردد "يا غادة يا مجنونة، يا مجنونة، إنت والقاهرة واحد، يا مجنونة، يا مجنونة". لم أعرف الاتجاه الذى سرت فيه حتى تنبهت فجأة أننى محاطة بخضروات. أنا فى السوبر ماركت التركى. ليس هناك ما يجب أن أشتريه، فقررت أن ألعب. اخترت امرأة ألمانية مسنة وقررت أن أسير خلفها وأبتاع ما تبتاعه. لكن كلنا مجانين. التقطت المرأة من قسم الخضروات شيئاً لم أفهمه قط، يتهافت عليه الألمان ولا أعرف فيما يستخدمونه. جزرتان وقطعة كرافس ضخمة ونصف درنة تشبة القلقاس، جميعهم محزومون فى أستك. التقط حزمة مثلها. موزتين. مثلها. علبة قشدة صغيرة. مثلها. كوب زبادى واحد. مثلها. نوع لحم مجفف فى كيس مفرغ من الهواء. ترددت، فى هذه اللحظة وقعت عينى على علبة بلوبيف ماركة "بيفى". لم أصدق، التقطها فوجدتها قادمة من القاهرة رأساً. القاهرة المجنونة تلاحقنى فى كل مكان.

ذاكرة الحاضر

انتظر كثيراً، لكننى لم أفكر ولو للحظة واحدة أن الحدث سيمتد خارجى بكل قوة وعنفوان وشراسة، كل اللامتوقع، بقذارته وانحطاطه هبط على القاهرة بخطة مرسومة بكل الخبرة الفاشية، التى تختلط وتمتزج بكل لزوجة الغياب. الغياب التام لأدنى شبهة شعور أو إحساس، غياب الخجل من المشاركة فى التواطؤ والكذب والخداع، غياب... غياب... غياب الوجود، هناك تواجد فقط. تواجد لأجساد بهيمية كان درسها الأول فى الحياة هو قهر الجسد الآخر. أنتسمر ثلاث ليال أمام شاشة الإنترنت وأجرى مكالمات للقاهرة بحوالى نصف راتبى الشهرى، وتنتابنى فى ليلة نوبة بكاء عنيف رغم أننى كنت أحاول جاهدة أن أفك طلاسم كتاب عن الحداثة، أبكى وأواصل القراءة فى الكتاب، أقوم لألتقط منديلا ورقيا وأعود فتنهمر دموعى مرة أخرى فأقوم لألتقط منديلا آخر. لم أشأ أن أضع علبة المناديل بجانبى لكى لا يكون ذلك اعترافاً أننى أبكى ولكى لا أستجيب لشبهة الاستمرار فى البكاء. كنت أبكى على ما حدث وعلى القادم، كنت أبكى خجلاً وغضباً وقهراً، كنت أبكى لأننى لم أملك شيئاً سوى البكاء.

"ما حدث لا يوصف، أكثر من مائة شاب ضربوا حوالى عشر حلقات متتالية من سبعة إلى تسعة شباب حول فتاة من متظاهرى حركة كفاية. بعدها أشار إليها أحد الضباط وقال "هاتوا بنت الشرموطة دى". وأخذوا يمدون أيديهم عليها فمزقوا لها ملابسها حتى صارت أشبه بالعارية، لا يسترها إلا القليل جداً. ثم رماها أحدهم على الأرض والقى بنفسه عليها، وبعض من داخل الحلقة يمسك برجليها ويديها والآخر يتعامل معها ويهتك عرضها وهى تصرخ بأعلى صوتها. أنا شاهدت الواقعة لأنى كنت فى دور علوى بالنقابة. من تحت مستحيل تشوف لأنهم غطوها كاملة ورأيتها تزحف على الأرض داخل الدائرة تحاول أن تتخلص من هذا الحيوان فيقع عليها آخر وهكذا حتى كادت أن تموت، وعندما رفعها بعض رجال الأمن خوفاً أن تموت وجدناها عارية، ولا يسترها إلا الحقيبة التى فى يدها. تستر عورتها بيدها وحقيبتها، منظر فظيع. وبعدها بساعة ونصف تكرر المشهد وكأنه متفق عليه مع واحدة ثانية، نفس المشهد، شىء مرعب. تخيلتها أختى أو زوجتى ووجدتنى مشلولاً غير قادر على نصرتها، أحسست بالعجز... شعور مدمر."

"أمام ضريح سعد زغلول بحى السيدة زينب وأثناء محاولة أعضاء حركة كفاية التظاهر السلمى للتعبير عن رأيهم، يقوم بعض البلطجية التابعين

للحزب الوطنى بحماية قوات الشرطة، باختطاف فتاة وتجريدها من ملابسها ثم التحرش بها جنسيا ثم إلقائها عارية ضمن المتظاهرين."

"أمام نقابة الصحفيين بوسط القاهرة، صحفية تحاول اللحاق بدورة اللغة الإنجليزية التى تتم بداخل النقابة فيعترضها بعض الضباط الذين يسلمونها بدورهم لبعض البلطجية التابعين للحزب الوطنى، فيقومون بتجريدها من ملابسها تماما وضربها والتحرش بها جنسيا، ثم إلقائها بالشارع عارية تماما."

"أمام ضريح سعد غلول بحى السيدة زينب، أثناء ضرب المتظاهرين من قبل الشرطة وبلطجية الحزب الوطنى، يتوجه أحد الضباط لمجموعة من البلطجية للاستفسار عن أسباب ضرب أحد المواطنين فيبلغه البلطجية بأنه كان يحاول الدفاع عن فتاة جردوها من ملابسها فيشير لهم بأن يكملوا ضربه."

"أثناء حصار نقابة المحامين بوسط القاهرة قام بلطجية الحزب الوطنى بمهاجمة المحامين داخل النقابة بالحجارة، وحينما حاولت فتاة الهرب وركوب تاكسى قام البلطجية بايقاف التاكسى وجذبها من داخله وضربها وتجريدها من ملابسها والتحرش بها جنسياً وتركها عارية مغشيا عليها أمام النقابة."

لابد أن أثبت هذه اللحظة وكل تلك المشاهد. لابد أن أسيجها فى ذاكرة تصونها لأحكى يوما ما حين تغادرنى كل الحكايات العجائبية، حين لا يبقى لدى أية أقصوصة، حين ألقى برأسى المنهك إلى الخلف وأقول "ياه، ده احنا شفنا حاجات كتير قوى". فى تلك اللحظة المستقبلية ستكون كل الفاشيات قد انهارت وحلت مكانها إمبراطوريات جديدة "غير شكل" كما يقول الشوام. المهم أن أثبت اللحظة، أجترها، ألوكها، أعيد حكيها، أعيد إنتاجها فى شكل صور، أضيف عليها أصوات، صراخ، شتائم، أبقيها حية. أحافظ عليها فى مجال البصر والتذكر، تماما كما أجلس فى الأوتوبيس فى المقعد المعاكس لإتجاه السير. المقعد الذى لا يحب أحد أن يجلس فيه، ولذلك فهو ينتظرنى دائماً. ينطلق الأوتوبيس فأتمكن من رؤية كل ما غادره وكل ما هو مقبل عليه. أجمع المشهدين معا. ما مضى وما هو آت، وهى لحظة فريدة باعتبار أننا لا يمكن أن نعرف ما هو آت فى القاهرة مطلقاً. ومن الذى يعرف؟ ربما القاهرة أيضاً لا تعرف. لم تحسب القاهرة حساب اليوم الذى ستكون فيه البلطجة هى القانون. لم نتخيل أن نعيش أيامنا ولياليناً في الاستماع لقصص البلطجة ومشاهدة كليبات التعذيب.

ذاكرة ممتلئة

ذاكرة مكدسة تكاد أن تفيض، والخجل من التقاء عينى بعيون القاهرة يتملكنى فأضع وجهى فى الأرض، لا أملك سوى التليفون، "كمال" فاقد الثقة فى كل ما حوله وممتز تماما وكأن "سارة" قد غادرته للتو، أقول له كلاماً كثيراً لم أكن مقتنعة به. "غادة" بخير ولكنها غاضبة ومذهولة، لم تخفف عنها فكرة الزواج الغضب، وعندما ذكرت اسم "شهاب" شعرت ببعض الارتياح، أهاتف "سارة" على تليفونها المحمول فأجده مغلقاً، أحاول على رقمها المباشر بالعمل، لا تجيب. "سارة" اللعينة التى لا يمكنها الجلوس مكانها أكثر من نصف ساعة. ثم.. أواصل بكائى السخيف ولم يعد هناك مكان لأية إضافات أو مكالمات أو أخبار أو حكايات... رأسى ثقيل وكأننى أحمل سطلاً مليئاً بالمياه سينسكب فى أية لحظة لأفيق وتعود ذاكرتى ناصعة البياض وخالية من الصور. أتحرك فى شوارع برلين كالأشباح التى تهيم على وجهها بدون هدف، أخلط الاتجاهات وأستقل المترو فى الاتجاه المعاكس. أنكمش بداخلى تماماً وأترك جرس التليفون يصرخ دون أن أتحرك لالتقاط السماعة، حتى قدرتى على الكلام تراجعت خجلاً أمام صور القاهرة. أعبر الشارع أثناء الإشارة الحمراء للمشاه ليصرخ فى وجهى سائق إحدى السيارات وعندما لا يرى أى ملمح للانفعال على وجهى ينطلق وهو يبرطم

بلغة لا أفهم منها سوى "شكراً" و"غداً". شكراً" أستخدمها للحاضر أما "غداً" فأعبر بها عن حياة مؤجلة، مؤجلة للعام القادم، أو "لما الدنيا تهدى فى مصر شوية" أو "لما أخلص بس البحث ده" أو "لما أرتاح شوية" أو "لما ألاقى الحب اللى بجد بقى" أو "بعدين، بعدين، مش وقته دلوقت". الوقت يقف لى دائماً بالمرصاد وأترك له الكثير من المساحات التى يهزمنى فيها.

ازداد تسلط الوقت مع الوقت على الذاكرة، فقررت أن أفسخ الارتباط الأبدى بينهما. كان شيئا أشبه بجهاد النفس، فقد كان الطبيعى أن أتصل بـ"حنان" وأعتذر لها عن تلبية دعوتها لى فى مرسيليا بجنوب فرنسا. كنت شبه مخدرة وغير قادرة على الكلام فكانت الفرصة مواتية أن أقهرنى من باب التغيير.

فى الطائرة المتجهة من برلين إلى نيس ألقيت برأسى إلى الخلف وأقفلت على ألم فى أذنى اليسرى، علامة الهبوط التى أتلقاها دائماً فى الطائرات. فى الحافلة التى أقلتنى من المطار إلى محطة القطار جلست أيضا فى المقعد المعاكس للسير لأمسك بما مضى وألحق بما هو آت. بضعة ساعات أخرى فى القطار المتوجه من نيس إلى مرسيليا، بضعة ساعات كنت فيها كأننى اثنتان، واحدة تحلق بعيداً وأخرى تجلس بلامبالاة فى المقعد تجول ببصرها

فيمن حولها وتحاول أن تسترد لغة أخرى ضائعة. أتجول فى القطار لأبحث عن مكان التدخين، وعندما تصلنى رائحة الدخان أدرك أننى قريبة. أدلف إلى المقصورة التى كان يجلس بها شاب وفتاتان وأجلس فى المكان الشاغر. يتبادلون النظرات فيما بينهم ويقول الشاب باللغة الفرنسية "يبدو أنها تركية"، تملكنى الغيظ وأجبت بالفرنسية "هل تتحدث عنى؟" "نو... نو.. باردون". عادت اللغة فجأة. عبر النافذة تطالعنى أشجار النخيل المجاورة لمبان مكتوب عليها "كوت دازور"، أنتيب ثم كان ثم طولوز ومرسيليا تقترب. هنا إذن تتباهى البورجوازية المصرية، من هنا يحصلون على الختم "آه فى الصيف هنروح مارينا وبعدين نطلع على الكوت دازور". تختفى أشجار النخيل والمبانى رويداً وتحل محلها سهول وتلال تعلوها بيوت أنيقة صغيرة من ناحية والبحر من الناحية الأخرى، منطقة تسمى نفسها الريف الفرنسى! أضحك فجأة فى القطار فيطالعنى بدهشة كل من معى فى العربة ثم يحولون نظرهم عنى سريعا. لا يعرفون أننى أفكر الآن فى الريف المصرى وجمعيات تنمية المجتمع البائسة المنتشرة فيه وتوسلات الدعاية من أجل تحديد النسل وفتاوى الشيوخ أنها مؤامرة صهيونية.

بعد يوم طويل استخدمت فيه كل وسائل المواصلات، المترو والطائرة والأوتوبيس والقطار كانت "حنان" بانتظارى لتحملنى فى السيارة إلى أعلى مكان فى مرسيليا. "حنان" مرسيليا لا تختلف عن "حنان" برلين، كل ما

فى الأمر أن بوصلة مشاعرها تتغير قليلا. ففى مرسيليا يخف جسدها ويحلق عقلها بعيدا وكأنه فى برلين أو القاهرة أو ربما يستريح، تخفت ابتسامتها قليلاً وتنزوى أكثر... لا تحتاج أكثر من هذا فى مكانها، فى منزلها، فى مركزها. فى برلين "حنان" تفكر فى تأثير الاستعمار على العالم العربى وفى مرسيليا تفكر فى سلطة البطاطس والمكرونة التى لابد أن تعدها من أجل الاحتفال بعيد ميلاد زوجها. كم قبعة ارتدتها "حنان" فى عبورها الدائم للحدود الفاصلة بين برلين ومرسيليا؟

فى يوم الاحتفال كانت "حنان" بالفعل متوترة طوال اليوم، وتوتر "حنان" صامت دائما مما يزيد من حدته. تقلق "حنان" على تفاصيل صغيرة وتغادرها كوارث كبيرة، ولكن فى كل الأحوال لا تغادرها هواجسها التى تعبر عنها بكل وضوح وبساطة لابد من الاعتياد عليها مع الوقت. توغل الاحتفال فى ظلمة الليل فجلست على الأرض فى مواجهة صديقها المغربى - تذكرت الآن فقط أننى جلست فى الاتجاه المعاكس أيضا - وسألته مما يخاف، تلقى سؤالى ببساطة وقال "البنى آدم". صديق "حنان" مفتوح على العالم بقوة وبلكنة مغربية حادة تعلن عن نفسها بوضوح فى فرنسيته. يومه حركة دائمة دائبة لا يرهقها سوى وعيها بالإرهاق، حركة توشك أن تصطدم بنفسها لتشل حركتها فتباغتها بالهرب ببراعة، حركة يسبب تتبعها بعض التوتر فكان أن قررت التزام الهدوء واللامبالاة التامة حتى لا أصطدم بها. فأى حركة

منى فى هذا المدار المشتعل قد تسبب أكبر انفجار. يدخل ويخرج وينسى إلقاء التحية، يبرطم ويضحك، يأكل ويدخن، يجرح نفسه ويتعجب ثم ينسى نقاط الدم وينشغل بشىء آخر. كيف إذن يخاف من البشر وحركته تستمد اندفاعها من البشر؟ ربما يختبئ خلف تلك الحركة السريعة، خلف عشق البحر، خلف السمرة الداكنة، خلف الشعر المسترسل بلا ضابط ولا رابط، خلف ملاحظته للتفاصيل وإظهار عدم اهتمامه بها، خلف مزج الفرنسية بالعربية، خلف ممارسة العربية الشديدة بفرنسية محترفة، خلف إيمان لا يرى غضاضة فى سيجارة حشيش وكأس نبيذ، خلف هوس بابنته، خلف ابتسامة عريضة، خلف حياة محتملة فى مكان ما فى زمن ما وأخرى يعيشها بعنفوان هنا والآن. لابد أن يخاف البشر ولكن لابد أن يحتمى بهم منهم كما أفعل دائما.

ذاكرة مسلوبة

أعود إلى برلين لأجدها غارقة فى المطر والرمادى. تمتلكنى حالة من الانقباض، لا يمكن أن أتحمل مزيدا من الرعد الذى يخلع قلبى والبرق الذى يجعلنى أهب مذعورة من النوم. البرد يأكل روحى وينخر فى رأسى، كنت مستعدة أن أتنازل عن أى شىء مقابل قطعة شمس أصغر من كف يدى. أدور فى الحجرة حول نفسى حين يفارقنى النوم وعندما يأتى يصطحب معه عدداً لا بأس به من الكوابيس. أستيقظ فى اليوم التالى وكأننى خارجة للتو من مشاجرة بالأيدى والأقدام، أنظر فى المرآة فأتعرف على نفسى بالكاد وأنفجر فى البكاء وأردد بصوت عال "أنا خلاص هاموت بجد". لن ينقذنى سوى القاهرة التى أبحث عن روحها بلهفة فلا أجدها. أتوق إلى الكلام بمصريتى، أريد أن أسمعنى أنطقها. كل شىء يمكن تهريبه من القاهرة، كل شىء يمكن حمله، إلا الروح. روح القاهرة فى القاهرة. لماذا غادرت القاهرة؟ ربما لأعيد غزل هذه الروح من على بعد، ولأتعجب من كل هؤلاء الذين يقولون "البلد دى بقت خنقة خالص، الواحد عايز يهج فى أى حتة، خلاص بقى أنا مش طايق القرف ده". أو مثلا "إيه اللى يرجعك يا بنتى خليكى هناك أحسن".

عندما حان ميعاد سفرى للقاهرة كنت قد تعذبت بها حتى خفت ألا تعرفنى، أحببتها حتى كدت أقتلها. فى طريقى للقاهرة أتنقل بين المطارات بخفة ولا أشعر بتعب الرحلة. أتعامل مع الطائرة وكأنها حجرتى الخاصة وأنظر للأشياء حولى وكأننى أحفظها عن ظهر قلب. أعشق كل المطارات التى تساعدنى على الوصول للقاهرة. بمكالمة تليفونية استدعى تاكسى ليقلنى لمطار تيجل ببرلين، حاول صديقى الألمانى أن يقنعنى أن أستقل خط المترو مباشرة من أمام منزلى لمسافة خمس محطات ثم أستقل الأوتوبيس لمحطتين حتى المطار لكننى رفضت الفكرة وقررت أن أدفع اثنى عشر يورو مقابل اختصار الزمن والمسافة. أصل المطار وأنا شبه مبتسمة، أبحث سريعاً عن الطائرة المجرية، أجدها على الشاشة، مازالت البوابة مغلقة. أبدأ التجول فى المطار الدائرى الذى أحفظه عن ظهر قلب، وينتهى بى الأمر فى الكافيتريا التى أجلس بها دائماً، زجاجة مياه وفنجان قهوة. ثمانية يورو. المطارات دائماً غالية لأنها تحملنا لعزيز. أدخن وأتصفح جريدة اشتريتها من المكتبة ثم أتجه للبوابة التى فتحت. يجىء دورى وتطلب منى السيدة الجالسة خلف الكاونتر جواز سفرى. لم أستعد به. أخلع الحقيبة من على ظهرى وأفتحها وأبدأ البحث فيها، لا يتذمر الألمان مطلقاً من ذلك. فى السوبر ماركت تنتظر الموظفة الجالسة على الكاشير أن يعد لها الزبون يورو كاملاً من السنتات. كنت أرتبك فى البداية كلما أصل للكاشير فأناول السيدة أوراقاً مالية، وأترك كل السنتات بالمنزل، وقبل أن أسافر أحصيتهم فوجدت أن

خمسة وعشرون يورو. وجدت جواز السفر وناولته لها فأمسكته لقلوب، قمت بإشارة تعنى أنه مقلوب، فصححت وضعه ثم فتحته من طرف الأخير فقمت بإشارة أخرى لأساعدها. نظرت إلى اسمى واحتارت. فى أوروبا يستخدمون لقب العائلة وفى مصر نستخدم اسمنا ثم اسم الأب ثم والد الأب ثم الجد الكبير. سألتنى "أين اسمك؟" أشرت لاسمى، فعاودت السؤال "آشا هو اللقب؟" أحببت اسمى مع الألمان الذين لا يمكنهم نطق حرف العين، وهكذا اكتسبت اسماً جديداً، حتى أننى بعد فترة فى برلين كنت أقدم نفسى "آشا" بدلاً من "عائشة". بدأت أشرح لها حتى فقدت الأمل وقالت "جناو" وناولتنى التذكرة وجواز السفر وتمنت لى رحلة سعيدة. حتى أسماؤنا لابد أن نشرحها. أحاول أن أتنبه لما حولى فى الطائرة ثم أبدأ فى قراءة مجلة الطائرة وبعد خمس دقائق أغط فى نوم عميق، أفيق على ألم فى أذنى اليسرى، علامة بدء الهبوط. تبدأ أنوار بودابست فى اللمعان، مررت بمطار هذه المدينة حوالى عشر مرات ولم أزرها مطلقاً. أعرف طريقى فى مطار بودابست، أتبع العلامات كالمغيبة وأدلف لصالة الترانزيت. صالة صغيرة ودائماً تكون بوابة الطائرة المتجهة للقاهرة قبالة الكافيتريا مباشرة. لا أحتاج للتحرك كثيراً. أجلس على منضدة وحيدة وتبدأ اللهجة القاهرية تغزو مسامعى. يستأذننى شخص بالألمانية فى الجلوس معى على نفس المنضدة، كنت قد اعتدت هذا فى برلين، مشاركة الغرباء فى المناضد، فلم يعد الأمر يدهشنى. أجيب بثقة "يا.. يا.. بتة". وأضحك فى

سرى على هذه الثقة فى استخدام لغة لا أعرفها. بمجرد أن يجلس يلمح جواز سفرى فينفلت منه سؤال مصحوب بنبرة تهليل:

- حضرتك عربية؟

- لأ مصرية.

- معنتو عربية. أنا من سوريا.

- أهلاً أهلاً.

- وكيف حال مصر وأهل مصر؟

- كويسين. بيسلموا عليك.

- الله يسلمهم يا رب. عم نسمع الأحوال متخربطة شوى.

- كله يتصلح، ده معناه إن فيه أمل فى حاجة كويسة.

- أمل؟ شو أمل بهيدا العالم العربى؟ ما فى منه أمل والله. كلياتهم حرامية عم ينهبونا نهب.

- وبعدين بقى. إنت ما تعرفش المثل اللى عندكم اللى بيقول "اللى ما شاف مصر يموت حسر"؟

ذاكرة شرهة

هى القاهرة... هى رائحتها، هم ناسها، هو غبارها، هو ضجيجها. فى الطريق إلى المنزل أبحث عن روح القاهرة، أستدعيها، أغويها، أفسح لها الطريق... تقترب وتبتعد. لتأخذ وقتها. وحتى يحدث هذا أحدق فى وجوه البشر وأقدم لهم ابتسامات واسعة. بمجرد أن دخلت غرفتى كان هدفى محدداً. كنت فى ليالى برلين أحلم بسريرى القاهرى وكان "هشام" زميلى فى برلين يقول لى "ده شغل فلاحين. ما يعرفوش يناموا إلا فى سريرهم". نمت فى أحضان السرير الذى يدفعنى لعلاج آلام ظهرى فى الصباح التالى وعاودت البحث عن روح القاهرة... أحاول أن أتعرف على أصدقائى، أبحث فى عيونهم عن علامات الحميمية، أطرد عن فكرى الكثير من الهواجس، ثم أعود وأؤكد لنفسى أنهم بالتأكيد صنعوا العديد من الحكايات بدونى، وأنهم سوف يضحكون على قصص شهدوها معاً وسوف يستعيدون نكات ضحكوا لها معاً. أنظر فى عيونهم مباشرة علنى أجد علامة هجران أو جفاء، أنظر فى العمق لأمسك بروح القاهرة...

وروح القاهرة غاضبة، هادرة، ثائرة على سنوات النهب والقهر والغصب. ظللت أبحث عن روح القاهرة فى كل الأمكن الخاطئة حتى

وجدتها قد افترشت الميادين وأبت أن تغادر حتى تستعيد رونقها القديم وتألقها، لم يكن لدى أى اختيار سوى أن أبقى بجانبها فى كل ميدان انتفضت به وكل شارع صرخت فيه. التقيت بكل من اشتقت لهم فى شوارع وسط المدينة، فى ميدان طلعت حرب، فى ميدان الأوبرا، فى ميدان التحرير، فى ميدان مصطفى كامل. وقررت أن أتبع هذه الروح الهائمة أينما ذهبت ومهما فعلت، لن أتذمر فأنا مدينة لها، أنا التى غادرت وعلى أن أكفر عن هجرانى لها.

وبدأت رحلة التوبة والاستغفار حتى اهتزت الأرض فى نهاية قيظ يوليو، لست أدرى ما الذى حدث، فقد شاهدت "شهاب" يجرى من أمامى وسمعت "غادة" تقول لى "بيجروا ورا كمال عايزين ياخدوه!" حاولت أن أتبع "غادة" فوجدتنى أنا و"سمر" وآخرين محاصرين فى دائرة أمنية كثيفة. جلت بنظرى وصعدت سلالم لأرى ما يحدث فوجدت أن المظاهرة قد تمت محاصرتها فى ثلاث دوائر. من الدائرة المجاورة أسمع صراخ وكلمات مشوشة من قبيل "لأ.. لأ.. حاسبوا.. ابعد عنه.." وبقية الأصوات كلها مكتومة وكأنها تأتى من باطن الأرض. لم أر سوى مجموعة هائلة من العساكر وكأنهم يضربون رؤسهم فى الحائط، أدركت بعد ذلك أنهم كانوا يحاولون خنق المتظاهرين عبر دفعهم إلى الحائط جميعاً. بدأت "سمر" تصرخ فى واحد من الضباط الذى كان يراقب المشهد برضا تام، وفجأة سمعنا واحدا من ذوى

الصوت العالى فى المؤتمرات التى تمر على أنها جزء من النضال يصرخ فينا "الناس اللى هناك دول بيموتوا، لازم تعملوا حاجة". نظرت له ببلاهة وأدرت وجهى. جلست "سمر" والاكتئاب يملكها - ولم يغادرها من يومها - والصمت يلفها وكلما تنطق تقول "فعصونا فى دقايق كأننا صراصير". لا أذكر ما الذى قلته لها فقد كنت مشغولة بمحاولة الاتصال بـ"غادة" لأعرف ما الذى حدث لـ"كمال"، فلم أفهم حرفاً مما قالته، فقط ظلت تردد "كمال بيموت"، قررت الاتصال بـ"كمال" مباشرة، أجابنى وصوته ينتفض وكالمعتاد "لأ لأ مافيش حاجة". علمنا أن عددا كبيراً قد تم القبض عليه وتوالت الشائعات بكل الأسماء التى أعرفها وكلما أسمع اسما يهبط قلبى إلى الأسفل، ظللت أهبط مع كل اسم وبدأت أدور فى الشوارع، أتصل بأشخاص لم أكلمهم من قبل ولا أتصور فكرة العودة إلى المنزل. لا أعتقد أن أحداً عاد إلى منزله فى تلك الليلة حتى آمنت بما قالته لى "سميرة" "الناس عايزة تتدفى ببعض". لديها كل الحق، لم تنم القاهرة ولم ينم المخبرين المنتشرين فى الشوارع ولم أنم فى تلك الليلة إلا مع ظهور بشائر الفجر، الليل يخيفنى دائماً، ولا أعرف من الذى يختبئ فى نسيجه الداكن. وأبت ذاكرتى أن تنسى مشهد رجل لا أعرفه يئن تحت الصفعات والركلات، كانت كف الضابط تنهال على وجه ذلك الرجل الذى لم يكن له هم سوى حماية الكاميرا الخاصة به، كان يبكى ويقول "خلاص أنا ماشى، والله أنا ماشى". لا أعرف إن كانت أناته وصرخاته بسبب الشعور بالألم أم الإهانة أم القهر. الذهول تملك "سارة" فلم

تنطق وكانت تسير كالمغيبة تماماً. صرخت فيها "اعملى حاجة، مالك واقفة كده؟" بعد خمس دقائق تذكرت أن تجيب "أعمل إيه فى إيه؟ إنت هتقلدى المناضل اللى وقف يدينا درس فى الأخلاق."

والقاهرة لا تنسى من يفجر فى مواجهتها ولا من يغتصب حقها فى العيش، القاهرة خداعة، تبدو للناظرين لا مبالية والبعض ينعتها بالسلبية، لكنها ليست نائمة، بل تنسج من كل صفعة وكل إهانة سلاسل وجنازير تلف بها عنق العسكر والحرامية. كنا فى طفولتنا نتقمص دور العسكر وغالبا ما نعطى أصدقاءنا الأشرار دور الحرامية، نحن الآن ضد العسكر وضد الحرامية. خلعت القاهرة ثوب الصمت والخفة وارتدت عباءة القاضى وأمسكت بسيف الجلاد، والويل لمن يقترب ولمن يحاول منعها. قضى الأمر.

لكن العسكر قرروا أن يجعلونا الحرامية، هكذا ببساطة. عاملونا بمنطق "امسك حرامى"، ولم تهتم القاهرة، فالقاهرة تملك القاهرة، أما العسكر فلا يملكون سوى أحذية ثقيلة، وعصى مدببة، وقنابل مسيلة للدموع، وأجساد يلقون بها علينا. نحن للقاهرة والقاهرة لنا. نحن الأغنياء وهم معدمون حتى لو أعلنوا على الملأ أننا "الحرامية".

كنت أعرف كل هذا والمزيد، لم يكن لدى شك أن القاهرة فى النهاية لنا لكننى كنت أرتعد من الخسائر التى ستحدث فى الطريق والفقد والاتهامات

وأرواح الأموات ودعاء الأحياء. فى الانتفاضات الكبرى يحدث كل شىء نتمناه وكل ما لا نتمناه. كنت أمشى فى كل مظاهرة وأنا أضع وجها شمعياً لأخفى خوفى وفزعى من فعال العسكر، أتجنب النظر إليهم، لا أريد أن أتذكر وجهاً واحداً منهم. ماذا لو اعتقلوا "شهاب" وماذا لو اعتقلوا "كمال" وماذا لو وماذا لو. لم يكن الخوف من الاعتقال بل مما يحدث بعده، فهذا هو هدف الاعتقال، إلغاء وجود، مسح، بتر، إهانة، كسر. لا أضمن أن يعود أى واحد كما كان. لا أضمن عودتهم ذاتها. كلما تخرج "سارة" عن صمتها تقول "لازم كل ده يحصل، ولسه".

كاد أن يحدث هذا أمام نقابة الصحفيين، فى يوم جمعة شديد الحرارة، بدأ التجمع صغيراً ليزداد حجمه بمرور الوقت. كنت متحررة بعض الشىء من العبء النفسى لأن "كمال" مريض ولم يغادر الفراش، كانت المرة الوحيدة التى سعدت فيها "سارة" بمرضه. كان بالتأكيد سيسحل فى ذلك اليوم، كان سيفنى دون أى أثر. بتصاعد الهتافات والشعارات يتزايد العسكر وكأنهم يخرجون من بطون أمهاتهم حاملين العصى! يحتضنون العصى وكأنهم يحتمون بها، وبنظرة واحدة من الضابط ينهالون علينا بالعصى. كان نظرى يتابع "شهاب" أينما ذهب، دون أن يعرف أننى أتابعه. كل أصدقائى كالأطفال ما إن يدركوا أننى قلقة عليهم حتى يبدءوا رفس الأرض بأقدامهم، أما أنت يا "روضة" فأسلم شىء بالنسبة لى أن أتأكد من إحكام يدى على

يدك وأن أهددك بافتعال فضيحة إذا لم أجدك بجانبي. ظلت عيناى تروح وتجىء مع "شهاب"، وهو يتوغل فى الصفوف الأمامية للعسكر وأنا لا أفهم ما الذى يحاول أن يفعله، تختفى رأس "شهاب" ثم يظهر وأطمئن نفسى أن كل شىء على ما يرام وأن العلم الذى يحمله لايزال يرفرف عاليا، الجو هادئ والهتافات منتظمة. وأين "شهاب".. أراه، مازلت أراه، العلم واضح ولكنه يتوغل أكثر فى صفوف العسكر. هل أذهب وراءه وأصرخ فى وجهه أن يتوقف، فى تلك اللحظة كنت متأكدة أن "شهاب" اختفى وبدأ الصخب فى رأسى يعلو على صوت الهتافات، حتى العلم الذى كان يشكل مع رؤوس الجموع زاوية قائمة أصبح يشكل زاوية حادة، تزداد حدتها فأعرف أن "شهاب" يموت الآن، يتعالى هتاف الجموع "الصحافة فين الإرهاب أهه"، ثم تنفرج الزاوية قليلا فأقول سألقاه ليلا وعندما ازدادت حدة الزاوية كنت أفكر كم من الدموع ستكفى لأذرفها على غياب "شهاب"، ارتفع الهتاف حتى السماء وبدأت أتمتم بكل الأدعية التى أحفظها، تراجعت إلى الخلف لكى لا أكون شاهدة على لحظة غيابه، وفجأة ظهر العلم مرة أخرى، ووجدت "شهاب" أمامى يضحك "أما عملنا فيهم عمايل!" "شهاب" كان يفتح مكانا أوسع للجموع، وأنا كان قلبى يضيق من خوف الغياب. لا أرد بكلمة واحدة، أبدى لامبالاة تامة ثم ألتفت لأتحدث مع آخرين فى محاولة لتثبيت قلبى مكانه. أعاود الاتصال بـ"شهاب" فى المساء لأقول له أى شىء

ثم أتأكد أننى أراه كل يوم ثم أرتعد من حرصى هذا، لابد أن أستوعب فكرة الغياب.

يزداد خبط الأقدام على أسفلت القاهرة الذى تضامن معنا ولم ينصهر، كان يحملنا بخفة ويطلق أصواتنا لعنان السماء، ثم نجتمع فى المساء ونتلاصق لنحصل على دفء الطمأنينة. تتوالى الأيام وتتزايد الجموع وأتمنى ألا ينفض الهتاف أبدا، أتخيل نفسى وقد جئت بفراشى ونصبته فى وسط الحشود ونمت فى ميدان التحرير، أتمنى نوما هنيئا كهذا، نوما عميقا لا يقطعه كوابيس ولا تزوره أشباح. أو مثلا أن يعود الجمع كله معى إلى المنزل أو أن نبقى معا حتى نعبر هذه الحياة، كلنا فى وقت واحد، كى لا أحزن على من يغادر قبلى. ولأنها أمنيات فكان أن ملأت روحى بأصواتهم وحكاياتهم، وتشبع عقلى بصورهم ليكون زادا فى أيام الجفاف.

ازداد الغليان حتى وجدتنى أقول "باطل" والنشوة تملأنى وأنا أجوب معهم جميعاً شوارع وسط المدينة، بدأنا من ميدان طلعت حرب ثم انطلقنا فى قصر النيل حتى وصلنا ميدان مصطفى كامل وانحينا يسارا فى شارع محمد فريد ومررنا بشارع فؤاد وصلنا إلى نقابة الصحفيين. ويعلو الصوت ليؤكد البطلان و"باطل... باطل"، وتدق الطبول لتؤكد بطلان العسكر وفعالهم، اختزلت الحياة كلها فى أربعة أحرف. أربعة أحرف لم تكل من

تكرارها ثلاث ساعات، من السادسة وحتى التاسعة، أربعة أحرف تكررت مع دق الطبول "تم.. تتم.. تم.. باطل".

نتفرق بعد كل مظاهرة وأحصل على وعد أن أراهم جميعاً فى المساء فاكتشف أن المساء قد حل. فى واحدة من تلك الليالى جلسنا أنا و"كمال" و"غادة" و"شهاب" و"روضة"، كنت قد بدأت حواراً جانبياً مع "غادة" حول موضوع زواجهما، فالقاهرة لم تترك لى ثانية واحدة لأختلى بها. كنا نضحك وندخن ونأكل ونتبادل النكات حتى بدأت عاصفة "كمال". بدأت خافتة غير مسموعة، وكأنها تستجمع قواها وتفكر من أين تبدأ، و"شهاب" يحاول ألا يلتفت ويتشاغل بالأكل، و"غادة" تحتضن الشيشة وكأنها تحتمى بها وسؤال "مين اللى سرق العامود؟" يكاد يقفز من فمها. وأنتِ يا صغيرتى تراقبين الموقف بطرف عينيك وتهمسين لـ"غادة" بتعليقات ترسلها فى نوبات ضحك فتتلقى نظرات نارية من "كمال". كنت أقول لـ"شهاب" الذى يجلس بجانبى انطباعاتى عن إحدى تلك الاجتماعات التى حضرناها سوياً ولم يتمالك "كمال" أعصابه، فبدأ فى أطول وأقسى محاضرة سياسية، كان يقطعنا ثم يعيد وصل القطع المبعثرة ليقطعنا مرة أخرى، دخل "كمال" فى نوبة هستيرية، كان يحاول أن يفهمنا أن كل ما نفعله ليس ذا قيمة. ولم يجد معه "طيب بشويش يا كمال" أو "ليه بس كده". أدركت أن "كمال" محبط، محبط لدرجة الصفر، فقد قضى عمره كله يجهز نفسه ومن حوله لهذه

اللحظة، رسم لها عدة سيناريوهات وقضى من أجلها ليال فى شوارع القاهرة، قرأ لها كل الكتب، أفنى أعصابه فى اجتماعات نصفها سخيف فى محاولة لتشكيل اللحظة. وعندما جاءت أخيراً لم يجد أنه يمسك بطرفيها، أفلتت منه، لم يجد موضعاً لقدمه التى حفرت منذ البداية. لكن "كمال" لم يدرك أن معرفته لا يمكن الإلقاء بها فى وجه الجدد، مستحيل تداخل المسارات، مستحيل اختزال الطرق، لو كان هذا ممكناً ما كنت يوما ما سأقول "والله ما كنت أعرف". لم يكن هناك وسيلة أوقف بها انفجار "كمال" سوى أن أسمعه، قررت أن أرتدى ثوب الشجاعة وأسمع، لم أعرف كيف أرد على قسوة "كمال" سوى أن أقول لـ"شهاب" بصوت عال "هو احنا بنصلح الكون ولا بنجرح فى بعض؟" انصب كل إحباط وغضب "كمال" على فى تلك الفترة، رغم أنه كان غاضباً من "شهاب" لانضمامه لتيار سياسى مخالف لمعتقداته التى تنفر من التحالف مع أى جماعات دينية ورغم حنقه الدفين الدائم على "سارة". فى اليوم التالى هاتفت "سارة" وأقسمت لها أننى لا أريد أن أرى وجه "كمال" مرة أخرى. ضحكت وقالت "إنت أول يوم تعرفى كمال يا عيشة". بعد فترة اعتذر لى "كمال" لكنه نسى أن يعتذر لـ"شهاب". و"شهاب" لا يعلق ولا يتوقف، فقط تتغير نبرة صوته قليلاً ويأخذ خطوة إلى الخلف وعليك أن تفهم. وغالباً لا أحد يفهم. كم مرة اختلفت مع "كمال" فى تلك الفترة، قررت أن أدعه يهدأ ويعيد السيطرة

على أعصابه مرة أخرى. وكأن جسده قرر أن يعلن خيبة الأمل أيضاً، فقضى نصف الصيف راقداً فى السرير.

فى القاهرة كما برلين لم أكن أهنأ للنوم، لم تكن علاقتنا طيبة إطلاقاً مع فارق وحيد. فى القاهرة لم أستمتع حتى برفاهية التمدد على السرير وتثبيت نظرى على السقف أو الجدار المواجه أو حتى اصطحاب كتاب أحارب به الأرق. كانت شوارع القاهرة أجمل من النوم حتى عندما كانت جفونى تشدنى للأرض. كان الوقت الذى أنام فيه ليس إلا عمراً مسروقاً من حياة القاهرة الآن. وأنا لست سارقة. مع كل دقيقة فى أحضانها كنت أتلقى المزيد من حيوات الناس وأفراحهم وأحزانهم. هؤلاء ليسوا يتامى مثلى، فكل أحزانى غالباً ما تعلمت أن أبتلعها بمفردى فى برلين وكل أفراحى لم أجد من يشاركنى فيها. هو اليتم بعينه. يتلون اليتم فى حياتنا ويرتدى أثوابا مختلفة.

يبهرنى أهل القاهرة عندما يتحدثون عن أنفسهم، أصبحت أقابل "هاجر" كثيراً وأستمع لها أكثر. أنظر لها ويزداد إعجابى بها كلما تخرج من فمها جملاً مرتبة عن نفسها، جملاً مكونة من كلمات واضحة بدون أى لبس، كل كلمة لها معنى واحد فقط، معنى يأخذ شكله من حروف قوية وحادة، وبنفس القوة تنهى حديثها بخاتمة لا تشى بأى بدء محتمل ثم تقول "إنت جميلة قوى يا عيشة"، كنت فى البداية أرتبك وأجهد ذهنى فيما يجب أن أقوله،

وبعد أن توطدت علاقتنا كانت هذه الجملة تنتزع منى ابتسامة كبيرة. فى إحدى تلك النوبات من الوضوح قالت لى "هاجر" "والله العظيم يا عيشة أنا مش باحسد أى اتنين عندهم علاقة، الحاجات دى مش بتهمنى خالص. الحاجة الوحيدة اللى بتحسسنى بالغيرة هى إن أنا أشوف اتنين بقالهم مع بعض عشرة أو عشرين سنة. لأ، ما تفهمنيش غلط، أنا مش باكون غيرانة منهم، أنا ببقى غيرانة من التاريخ اللى بينهم. فاهمانى؟" بالطبع أفهمك تماماً يا "هاجر"، ومن منا هذه التى لا تفهم التاريخ، من منا لم تعش تاريخاً ممتزقاً يجاهد ليلحق بجزء قبله وقصة بعده، من منا لم تحاول أن تنسج تاريخا من مشاهد مبعثرة ما بين حدود الأماكن وحدود أزمنة وشوارع القاهرة، وحدود سياقات هذه المدينة الواضحة الغامضة، السياق... السياق كما أقول لك دائماً يا "روضة". تلونات وتقلبات سياقات القاهرة لا تقبل شريكا تاريخياً، القاهرة تنصب نفسها التاريخ بأكمله سواء كتبته هى أم كتبناه نحن، سواء كانت هى المنتصرة أم نحن. تحاول "غادة" جاهدة أن تقيم الآن تاريخا موازيا، تحاول أن تحفر لنفسها مكاناً وقصة.

وتحاول "هاجر" أن تعيد ترتيب التاريخ الذى تبعثر فى مشهد عبثى، لم تقتنع حتى اليوم أنه حدث لها وأنه عليها مواجهته. تزوجت "هاجر" من الشخص الذى كانت تحبه، وفى زواجها - الذى لم يدم كثيراً - كانت مثل كل امرأة تحاول أن تتعلم المشى على الحبل. تحاول أن ترضى زوجها وأن

تتواضع أمامه تماماً، فتلغى تميزها بمحض إرادتها لكى لا تستثيره بأى حال من الأحوال، تطهو وتنظف وترتب المنزل وتدلل وتناقش وتبدى انبهاراً مهولاً بعمله. امتنعت تقريباً عن مقابلة أصدقائها وكنت أراها صدفة فى الشارع بجانب منزلى حيث تضع سيارتها. كانت "هاجر" قد ارتبطت لمدة عام مع جمعية لتنظم ورش عمل فنية لأطفال الشوارع. ولأن تجميع هؤلاء الأطفال ليس بالأمر الهين فقد تأخرت "هاجر" فى واحدة من تلك الورش. كانت تحمل حقيبتها على كتفها وتستعجل إنهاء الورشة لكى لا يعود زوجها فلا يجدها. وهى على وشك الرحيل وجدته أمامها وعيناه ترسلان شراراً. انطلقت "هاجر" "أهلاً يا حبيبى، إيه المفاجأة...." ولم تكمل "هاجر" الجملة لأن الصفعة التى تلقتها على وجهها ألهبت أذنها وجرحت فمها. وقام هو بإتمام الكلام نيابة عنها "إيه الأهم، تحضرى الغدا لجوزك ولا تقعدى مع ناس من الشارع؟".. وكلما تحكى "هاجر" هذا الموقف تغطى كل وجهها بيديها وتردد "يا خرابى كل ما أفتكر، يا ريتنى كنت مت ساعتها".

فى ذات ليلة ازداد ثقل التاريخ المهترئ وكأنه قرر أن يجلس فوق رأسى دون أى إنذار، لم أستعد مطلقاً له. كنت أظن أننى لضمته فى جملة واحدة متصلة. وجهى لا يحمل أية تعبيرات، والصمت يغرقنى وكأننى مازلت أتعلم الكلام وأتهجى الحروف. "مالك؟" كنت أرغب بشدة فى الحكى، فى هذه اللحظات كنت أتمنى أن أكون "سارة"، أحول الحياة إلى حكايات صغيرة

تصنع حكاية كبيرة. كنت أتمنى أن أغمض عينى وأنسى البشر حولى وأقول جملاً ساذجة من قبيل "أنا تعبانة قوى" فقط. كنت أرغب أن أضع رأسى على أى كتف وأبكى كما أرى دائماً فى الأفلام، لم أتحرك ولم أنطق، "لأ بجد مالك؟" بكل الحيل اللغوية التى اكتسبت بعضاً منها قلت "أصل عندى أزمة وجودية". كنت مستعدة لأى شىء فى تلك اللحظة مقابل قليل أو كثير من الحب. وبالترتيب جاءت ردود الأفعال فسألتنى يا روضة "يعنى إيه وجودية؟" ثم نظر لى "كمال" وابتسم "احنا نحل أى أزمات يا باشا". حاولت "غادة" أن تخفف عنى فقالت "يووووه... ده أنا عندى مشاكل كونية". ولم ينطق "شهاب"، فقط نظر لى ثم تشاغل بالنظر إلى السقف ليدارى ارتباكه. يشعر دائماً أنه لابد أن يقول شيئاً وعندما لا يسعفه خياله يرتبك. جاءت "سارة" وبمجرد أن وقع نظرها على قالت "مالك ياعيشة، كأن فيه عمارة وقعت فوق دماغك". أجيبها بابتسامة مصطنعة: "أصلى مفتقدة حكاياتك الأيام دى". تضحك ثم تهمس "استنى لما أجنن "غادة" شوية". تلتفت لـ"غادة" وتبدأ:

- غادة، إنت عارفة إن ميعاد فرحك موافق يوم أربع؟

- وفيها إيه، ما أنا عارفة يا ذكية.

- لأ يا حلوة يا اللى شايلة البلاص، عروسة الأربع على بيت أبوها ترجع.

- يا سلام، خلاص اعتبريه تلات.

- فى بيت أبوها تبات.
- بيه.. خميس يا ستى خميس.
- أهو كده، سيدنا محمد عريس.

القاهرة كثيرة... "بحبك بحبك يا بنت الذين".

ذاكرة برتقالية

اختصرت نظرية "هاجر" الكثير من المسافات بينى وبينها، أميال من الأفكار والمفاوضات سقطت منا بأصغر اعتراف، و"هاجر" تمشى متوجهة نحو الهدف تماماً مثل جملها التى تلغى البعاد وتجيب عن الأسئلة. وضوح "هاجر" يلائمنى تماما ويريحنى حتى عندما تكون المعاناة من نصيبها، وهو ما يحدث دائماً مع كل ذاكرتى المورقة، لم أضبط نفسى فى مرة متلبسة بالحكى لهن عن جرح غائر أو ظاهر هنا أو هناك. تمكنت من فعل هذا ببراعة - فى بعض الأشياء - مع "هاجر"، كانت تسألنى وعيناها تسمعانى، كانت تسألنى وتقول بين جرح وآخر "أيوه أيوه، عارفة يا عيشة إنت بتتكلمى عن إيه بالضبط". تواصل الحكى بيننا حتى آخر النسيج، حتى آخر نفس، حتى قاع الأوجاع والأسرار والأفراح، تواصل نسيجى ونسيجها حتى لم يعد الهواء يجد لنفسه ممراً بيننا أحياناً، حتى لم أعد أميز إن كانت "هاجر" تحادثنى أم ترسم أم تجرب انتشال طفل من عدوانية شرسة إلى وداعة مطلقة.

جاءتنى فى يوم بكتاب "العلاج بالألوان" وقالت "بصى يا عيشة فى الكتاب ده ودايماً فكرى برتقانى وأصفر، اوعى تفكرى رمادى وبنى". أعجبتنى

اللعبة ومن يومها وأنا أحول كل مشهد من الذاكرة إلى برتقالى وأصفر، كلما يزورنى شبح ألونه برتقاليا وقبل أن أنام أغمض عينى وأحاول السباحة فى مساحات صفراء. وعندما عدت إلى برلين لم أخلع الكوفية البرتقالى. كان محتوما أن يلازمنى اللون البرتقالى حين اشتريت لى يا صغيرتى من برلين ما يسمى حجر الشمس. حجرا يميل إلى البرتقالى الداكن ويرسل أشعة لامعة. حينما قال لك البائع إنه حجر يجلب التفاؤل، ويستدعى كل ما هو متعلق بالشمس وبدأ يعدد كل تلك الصفات التى تذكرنى بلعبة مترادفات اللغة: الدفء، الحب، الود، الإقبال، البهجة، الفرح، الحياة. لم أخلع هذا الحجر أبداً فى برلين عله يحولها إلى بقعة من الحياة. دأبت "سارة" على إرسال رسالة لى على الموبايل كل يوم لتسأل "بمناسبة الألوان، إيش لونك يا حلوة؟"

مشكلتى مع "هاجر" أنها تدخل فى جزء من العالم وتظل حبيسة هناك، لا تخرج إلا عندما تتداعى أعصابها، وفى آخر أيامى فى القاهرة سألتها "هتخرجى امتى يا هاجر؟" تنهيدة ثم أنهت المكالمة "ما تقلقيش هابقى كويسة قبل ما تسافرى". وفى ليلة سفرى وفى وسط المدينة بالضبط وقبل الفجر بقليل التقت "هاجر" مع أختها بالصدفة وتعانقتا طويلاً. كنت الوحيدة التى ارتبكت فى هذا الموقف، وبقيت مسمرة مكانى لا أعرف ما الذى يتوجب على فعله الآن، فلم أجد سوى الحيلة التى كنت ألجأ لها وأنا

صغيرة، بدأت أعد أصابعى العشرة! بعد العناق لمحت الدموع فى عينى "هاجر" فعرفت أنها لن تخرج أبداً. سقط قلبى منى، سأفقد "هاجر" مدة طويلة، هل ستفقدنى هى أثناء انفصالها عن تفاصيلنا؟ حاولت فى تلك اللحظة أن أستعيد أطياف البرتقالى ولم أنجح، سألنى "كمال" "مالك؟ قفلت مرة واحدة كده ليه؟"

كنت أجاهد فى الاحتفاظ بذاكرتى برتقالية، أجاهد لطرد كل الحكى البارد لكن تحولات القاهرة لا تسمح كثيراً بهذه الرفاهية. الاحتفاظ بلون واحد رفاهية لا يقدر عليها القاهريون، واختيار الألوان مستحيل بالنسبة لهم. كل يوم له لونه، لكن إذا كان شرع الهوى الإنصاف فمن الظلم أن يعيش الكل فى الأسود والبنى والكحلى. "نهى" مكتئبة دائما، ومتذمرة وفاقدة لكل أمل بعد أن شاهدت عملية الانتخابات، صحتها متدهورة وعيناها تنظر فى شىء غير محدد. تختفى ثم تعاود الظهور وهى تؤنبنا جميعاً "ليه مش بتسألوا علىّ؟" ربما لمحت طيف قسوة فى عينيها ثم طردت الفكرة باعتبارها سخيفة. "جميلة" مختفية تماماً وعندما تظهر تقول كلاماً كثيراً لا أتمكن من متابعته، تقول إنها مكتئبة وإن السكر عال فى الدم وإنها تواجه خطر الترحيل. أهاتفها فى اليوم التالى فتؤكد أنها فى أحسن حال. تختفى وتعاود الظهور وبمجرد أن يقع بصرى عليها أدرك أنها تعرج بشكل ملحوظ، أتماسك وأحاول ألا أبدى جزعاً فأفتعل مواضيع لأتجنب ذكر العرج. "غادة" تبدو عليها

ملامح الاكتئاب ولم يظهر معها زوج المستقبل مرة واحدة. أسألها عنه فتقول "عنده عيادة، أصله بيشتغل كتير". لا أمالك أى شيء أقدمه لها وأى نقاش حول الفكرة كان معناه المزيد من السخف، وكأننا تواطأنا أنا و"غادة"، فلم نجلس مطلقاً بمفردنا، لم نرد أن نواجه الألوان الصريحة، خففنا حدتها بألوان أخرى. لم تكن لدينا رفاهية المواجهة ولا اختيار الألوان. "سمر" فاقت الجميع فى الاكتئاب، اختفت تماماً وأعلنت السبب. التقيتها ثلاث مرات، فى الأولى كانت تجاهد لتبتسم وفى الثانية كانت صدفة وفى الثالثة لم تكن معنا مطلقاً. قررت أن تغادر فبدأت تلملم حاجياتها وقالت "على فكرة أنا أخدت أجازة بدون مرتب من المركز، هأقدم برنامج فى الفضائية". لم تنج "سميرة" من اللون الموحد وإن كان لم يمنعها أن تستقل الميكروباص كل يوم من بيتها لتصل إلى مقر عملها بعد ساعة ونصف، وتحول الميكروباص لـ"سميرة" إلى صندوق تفريغ الأحزان. ألم يسألها أى من الركاب العابرين فى يوم عن سبب كل هذه الدموع، ربما ألهتهم دموعهم، ربما لم يرتابوا أن "سميرة" وبعد عشرين عاماً فى عملها خصم منها يومين لأنها تأخرت ربع ساعة، وبالتأكيد لم يعرفوا أن "سميرة" تستأنس برجل وتخاف الفقد ورغم ذلك لا تجد غير السفر بديلاً. اختفى "مصطفى" تماماً ولم يقلقنى أى شيء سوى عدد ساعات نومه التى ازدادت بشكل ملحوظ، أما "كمال" فقد أعلنت كل ملامح وجهه التجهم والقسوة وبدأ ينسى أنه يكرر الحكايات كثيراً. اختفت "هاجر" وقررت ضمنياً ألا تبذل أى مجهود من أجل

الآخرين. قابلتها مرتين، وفى كل مرة تبادر بسؤالى "مالك يا عيشة؟ متغيرة ليه؟" أرتبك ولا أجد ما أقوله سوى "لأ، مافيش حاجة. يمكن مرهقة شوية". أغلقت "هاجر" ممر البراح وأدركت أن هواجسها مثقلة عليها، وأن صورتها لدى الآخرين تشغلها بشدة هذه الأيام.

بعد عودة أولى وثانية لم أعرف أين يجب أن أكون، هل أنا هنا أم هناك، فى الليلة قبل الأخيرة لسفرى والكل يودعنى كنت ممسكة ببطاقة الطائرة أنظر لها ببلاهة. كأننى لم أر ورقة من قبل، ورقة واحدة تنقلنا من عالم لآخر. "مالك يا عيشة؟" سؤال سمعته فى تلك الليلة عشر مرات، حتى بدأت أبكى فعلياً. لا تعليق. فقط حاولوا جميعاً أن يكونوا أكثر رقة ولطفاً. ما عدا "سارة"، المتأخرة دائماً. ما إن دخلت حتى تحول الجميع عنى ليسألونها "مالك يا سارة؟" من نظرة واحدة لوجهها فهمت أن لديها حكاية تطبق على أنفاسها:

- الراجل اللى اسمه "حبظلم بظاظا" ده عايزة أخنقه بإيديا الاتنين.

أضحك رغماً عنى:

- مين "بظاظا" ده يا "سارة"؟

- مش عارفة "حبظلم بظاظا" يا متعلمة يا بتاعة الأدب. ده شخصية عند "نجيب محفوظ" فى رواية "ليالى ألف ليلة". كان راجل شرير وكرشه فظيع، طالع مترين قدامه، طول النهار يشرب بوظة ويأكل لحمة ويسرق فلوس

الناس ويوقع بينهم وينجح فيهم، ويعمل مؤامرات ويكذب ويعاكس الستات ويحاول يتجوزهم غصب عنهم. من الآخر حد زبالة.

- والأستاذ "بظاظا" ده بيعمل إيه فى عيشته؟ يعنى بيقوم الصبح يروح فين؟

- سى "بظاظا" تاجر عربيات، عنده محل فى شارع هدى شعراوى. من أربع سنين كان بيأجر عربيات، السنة دى ربنا فتح عليه - يارب خده يارب - وبيبيع ويشترى عربيات وبالمرة بنى آدمين.

تنطلق "غادة":

- بطلى بقى الشعارات السياسية دى. إنت فاكرة نفسك فى المحكمة، يا بنتى احنا الجمهور الغلط. احنا مفلسين وتعبانين وطلعان عينينا، يعنى مش لازم كمان على آخر الليل نسمع البتين دول.

- تصدق يا "غادة" إنت اللى لازم تبطلى الشعارات دى، أصل الجواز لحس مخلك، أمال عايزة تسمعى إيه؟ ما تزوقينى يا ماما؟

تتغير ملامح "غادة" وتصمت، وتقرر "سارة" أن تدارى حرجها وتكمل:

- المهم يا "عيشة"، سى "بظاظا" ده عمل افتتاح للمحل من أسبوعين. افتتاح من بتوع الأغانى الهابطة وميكروفونات وورد مدهون فضى ورز ولحمة وعليهم تورتة، وبعدين لقى إن ده مش كفاية للفشخرة فأجر فرقة من اللى لابسين شكل شخصيات من الكرتون، بيسموهم أراجوز أو بهلوان... مش عارفة. اللى هم زمان لما طلعوا كانوا زى شخصيات ديزنى لاند.

تنبرى "جميلة" لتشرح:

- أيوه أيوه باعرفهم. اللى كانوا فى.. باعرفهم.. بتعرفى شو يا عيشة.. اللى هم متل ال... موش بوجوههم الحقيقة بس عم يلبسوا ماسكات هيك بتضحك كتير كتير.

- بالضبط يا "جميلة". هما دول. نورت المحكمة. المهم طبعا هم سبع شباب مع بعض بيلقطوا رزقهم من هنا وهنا. وهدومهم دى صوف وريحتها معفنة وحالتهم ضنك على الآخر. كل واحد فيهم بيلبس هدوم شخصية شكل. الواد يا عينى اللى عليه المشكلة بيلبس شخصية واحدة ست ويطلع يرقص. الفرقة بتخليه آخر نمرة، ست بقى، رقاصة وبترقص. الواد، قصدى الست، طلعت من هنا، وتجار العربيات اتجننوا، صدقوا إن دى ست بصحيح. لأ وايه، نقوط كمان. الواد اتبسط وقال ده رزق الليلة. خلصت النمرة بتاعته وأبداً مش راضيين يسيبوه. معقولة هيسيبوا الرقاصة تمشى. فضلوا كل ما يجى يمشى يهللوا ويجعروا. الموضوع وصل لساعة ونص، وابتدى الولد يجرى منهم بجد فيشدوه بالعافية. اللبس اللى بيلبسوه ده أصله صوف والولد عنده حساسية فى مناخيره وصدره، وكان هيفطس على كباية ميه، وخايف يقلع الماسك من على وشه فيكتشفوا إنه راجل ويضربوه. بجد كانوا مصدقين لدرجة إن الولد خاف. من هنا لهنا، الواد أغمى عليه. زمايله طلعوه برە وشالوا الماسك من على وشه لقوا نفسه رايح خالص. نقلوه على مستشفى القصر العينى وفين تانى يوم لما جه الدكتور وطلع إن دى

مش حساسية، ربو والولد ما يعرفش. راحوا زمايله ياخدوا بقية فلوسهم من سى "حبظلم" ما رضاش يديهم حاجة وقال لهم "الليلة انقلبت عكننة، الله يعكنن عليكم. مالكوش عندى مليم". رحت له دلوقتى، حاولت معاه ودى، بص لى من فوق لتحت وقال لى "والست تبقى أخته ولا جماعته لا مؤاخذة؟"، قلت له الست تبقى المحامية. يقوم ابن الذين يقول لى "الأستاذة فاطنة يعنى. أعلى ما فى خيلكم اركبوه".

فى طريقى إلى المطار اليوم التالى كنت أبكى بصوت مسموع.

حكى سارة

ذاكرة محترقة

فتحت الباب لأجد "سارة" أمامى.. "افتحى التليفزيون. مصيبة، النار والعة فى الناس. ربنا يحرق قلوبهم". أفتح التليفزيون فأجد صلعة رأس تلمع وصاحبها يهدر بكلام عن نزاهة الانتخابات. أصرخ "فين، إنت بتخرفى؟" تجيب بنفس درجة الصراخ "هاتى القناة الأولى". فى نشوة المناداة ببطلان العسكر لم يخطر فى بالنا أن النار أقوى من كل شىء وأنها ستأتى على الأخضر منا وليس اليابس. هكذا هى النيران فى عصر العسكر، لا تقضى على كل ما يقابلها بل تنتقى الأصلح والأجمل والأرق. نيران ذكية، تعرف لحظة الهجوم، وتعرف عواقب الانقضاض على مجموعة اجتمعت فى مسرح بنى سويف، مسرح كان العسكر مسئولين عن صيانته وتأمينه. ومنذ متى اهتم العسكر بمسرحية أو لوحة أو قصيدة، العسكر لم يهتموا إلا ببطونهم التى ينقضى اليوم وهى مليئة حتى أصابتهم تخمة اللامبالاة، وربما كانوا يبتهلون فى صلواتهم المتوجهة إلى قبلة شاشات الفضائيات أن تأتى النيران علينا جميعاً ليرتاحوا من رائحتنا ومن أصواتنا وليتأكد لهم أن الرب يحب العسكر والحرامية ويكره أمثالنا ذوى الصوت النشاز الذين يجدون رفاهية فائض الوقت فيجوبون شوارع القاهرة ويهتفون "باطل". اشتعلت النيران ولم يردعها أحد، لم تلق مقاومة تذكر، وارتفع النحيب والعويل ثم انتظم رويدا

فى مقطوعة باطل، حتى التى شاهدت أباها يحترق على شاشة الفيديو انتحبت وانهارت ورددت "باطل"، باطل كل من لا يرانا، باطل كل من يريد محونا وباطل كل زيفهم ونفاقهم. العبث الذى لم يدركه أحد: كل هذا النفاق من أجل الحصول على رضاء شخص واحد! ليس من أجل الكرسى ولا من أجل الثروة، بل من أجل تأكيد صورة الذات عن نفسها فى عينى شخص وحيد أوحد. يا الله... كل هذه العبودية.

خمدت نيران المسرح ولم تخمد نيران القاهرة. اشتعلت نيران الإحساس بالقهر، بالعجز، بالموت أمام عسكر يتهموننا بالمبالغة... عسكر يعاملوننا كأننا دمى بلهاء، عسكر لا يصدقون أننا نرفض النعمة التى ألقوها لنا كى نصمت. عسكر لا يفهمون أن يفقد الأب طفله الوحيد فى نيران شرسة ولم يعرفوا من قبل الحب فلم يفهموا معنى أن تفقد امرأة رجلها الذى يؤنسها فى القاهرة الواسعة، عسكر لم يكن لهم من فائدة سوى مزيد من الوقود لنار القلوب والنفوس. آخر حيلة لجأ لها العسكر هى إقامة تأبين جماعى لكل المحترقين، هكذا فى خبطة واحدة، جماعة... وينصهر التميز غصباً وقهراً، الكل فى واحد. لينتهى الأمر سريعاً ولتفقده الذاكرة فى طرفة عين. لكن القاهرة حولت تأبينهم إلى اعتصام، إلى غضب فى الشارع... يومها أدلت القاهرة برأيها كاملاً دون حذف كلمة واحدة.

لم أرَ رجال القاهرة يبكون كما بكوا فى ذلك اليوم، لم أرَ دفئا فى الموت كما شاهدت يومها.. كنت قد نسيت مشاهد الموت، لم أسمع عن أحد مات فى برلين، لم أرَ بكاءً على عزيز ذهب، ربما الموت يزور بلادنا فقط. أهل برلين لا يموت لهم أحد. جلست أستريح على الرصيف أمام الجامع الذى أقيم فيه التأبين.. سرحت فى وجوه من حولى، الكل أسقط الأقنعة وتخلص من الحمولة اليومية التى تفرضها القاهرة، لو يعرفون أنهم أجمل لأنهم أصدق. كل ما أزعجنى بشدة كانت تلك المرأة التى كانت تراقب البشر، كلما توقفوا عن البكاء قليلا تعاود العديد: "يا حبايبى، أصلكم فقرا، كنتم بتعملوا المسرحية بميت جنيه، انحرقتم علشان فقرا ومالكوش قيمة". تصمت وتنهار بكل جسدها على الرصيف، تواسيها بائعة الكشك المجاور وتهمر الدموع ثم يبدأ الهدوء فى الإعلان عن نفسه فينطلق صوتها رفيعا مجلجلا مرة أخرى: "الفقرا مش مهمين، كلنا مش مهمين، يا حبايبى يالى مالكوش تمن". من بعيد رأيت "كمال" يجلس على الرصيف المقابل والبؤس يعلو وجهه، لم أقترب، بل تعمدت أن أختفى، تواطؤ آخر. لمحت "هاجر" وحاولت أن أجعل السلام سريعاً ومبتوراً، فتواطأت معى وعندما التقت عيناى بعينيها قلت لها: "نتقابل وقت تانى".. كلنا شاركنا فى أكبر مؤامرة تواطؤ. حتى أنت يا "روضة" لم أتمكن من مواجهتك فافتعلت معك مشاجرة صغيرة، كنت أشعر بالخجل والعجز، لم أرد أن يذكرنى أحد بهما. رأيت "سارة" تجلس على الرصيف المقابل للجمع فتظاهرت بعدم رؤيتها، ثم لمحت دموعها

فأدرت لها ظهرى، دموع "سارة" لا تتردد فى الإعلان عن نفسها مثل حكيها تماماً.

الوحيد الذى تمكنت من مواجهته هو "شهاب"، "شهاب" يشبهنى كثيراً فنفهم دون أن نتكلم، لا يتحدث عن كل الإحباط الذى بداخله ولا يقول إنه يرغب فى الاختفاء من على وجه هذا العالم ولا يقول إننا نشبه "سيزيف" الذى ظل يحمل الحجر حتى أعلى الجبل ليعاود نفس الفعل حتى تحول إلى أسطورة، لا يقول إننا كدنا نتحول إلى أساطير مجمدة، لا يقول إننا تعبنا، لا يطرح الأسئلة التى نخاف منها، لا يسأل مطلقاً، يكتفى بالفهم ويراهن على تواطؤ الآخر، لكن أهل القاهرة لا يفهمون التواطؤ دائماً. فكلما نصمت ولا نسأل، كلما نحدد إقامة دموعنا وكلما نعزل مشاعرنا عن واقعنا اليومى القاهرى، يعتقد أهل القاهرة أننا لا نفهم أو لا نشعر أو لا نبالى أو أننا مثلاً نتمتع بتفاؤل لا مبرر له. مساحات التشبه مكنتنى من مواجهة "شهاب". شكلنا مساحات محولة من الفهم الصامت. لكن فى اليوم التالى عندما انطلق "شهاب" خارجاً من المكان الذى تجمعنا به وعبر الشارع كالسهم واختفى فهمت أنه يطلب منى التواطؤ الآن، جاءت "غادة" سريعاً وجئت يا صغيرتى "شهاب" راح يعيط!!" أعرف أنه حانت اللحظة، وكرهت أن تقال هكذا فأصررت: "لأ، راح يشرب حجر شيشة".

ذاكرة محتشدة

وغرقت "سمر" فى الحريق وعواقبه، هل كانت تحول دفة حياتها بأكملها أم كانت تهرب؟ يوما ما سأسألها، بالتأكيد ليس الآن. ظل وجهها يطالعنى فى فضائيات مختلفة تحاول الثأر لمن احترقوا، تنفعل وتشير بيديها للشخص الجالس قبالتها، تتحول جملها إلى نار تكاد تنشب فيمن أمامها. أتذكرها كلما أحضر اجتماع وكلما أهرول بين اجتماع وآخر، ظللت أتذكر "سمر" طوال الصيف! كلام وكلام، نرتب لمظاهرة أو نرتب لاعتصام، وكل منا يقول لنفسه إن وجوده هو محرك الأشياء، والحقيقة أن وجودنا يساوى غيابنا تماماً، لا فارق بينها سوى وجودنا الفيزيقى والكرسى الشاغر الذى سوف نحتله. لسنا مهمين إلى هذه الدرجة، فقط يحلو لنا أن نتخيل هذا. أذهب إلى اجتماعات وأنا مرغمة، وأين الملجأ غير ذلك؟ مشكلتى أنهم عاشقون الكلام، كلام، كلام، كلام من الكلام، لكن كلنا لدينا كلام، وماذا إذا تكلمنا جميعاً؟ يتكلم واحد فيقاطعه الآخر ليغضب الأول من المقاطعة ثم يدخل ثالث ليهدئ الجميع ويعيد صياغة كلام الأول فيعترض رابع رغم أنه كان قد وافق من قبل وهكذا إلى ما لا نهاية. كأن كلنا مهدد بخطر الفناء الآن فلابد أن نترك بصمة وأثراً. وبصمتنا ليست سوى كلام.. ربما لا نملك

شيئاً آخر. لذلك نتوهم أحياناً أن الكتابة فرض علينا فينتهى الأمر أن نكتب أكثر الأشياء سذاجة. هل يعرفون وهم يتكلمون أننى أراهم جيداً؟ يبدأ الواحد منهم بالتأكيد أنه فوق الموضوع، وأتعجب فمن إذن تحت الموضوع؟ كلهم يقيمون المشكلة بشكل موضوعى، من إذن داخلها؟ كلهم فوق مستوى التفاصيل، فمن الذى يصنع التفاصيل؟ كلهم لا يسعون إلى شىء، فمن الذى يسعى؟ غالباً ما كنت أغادر الاجتماعات قبل أن تنتهى، ينتابنى الملل ولا أشعر بأدنى رغبة فى الرد. أهرول إلى الاجتماع التالى لأجده أسوأ من الذى سبقه. أصبحت مثل "سارة" التى لا يمكنها البقاء فى مكانها أكثر من ساعة، وتقول "الدبابيس اللى فى الكراسى بتشوكنى". وفى كل هذا أتذكر "سمر"، ماذا تفعل الآن وكيف تواجه أناسا مدربين على الكلام؟ تهاتفنى "سارة" ونتقابل على المقهى، وتقول "بتعملى زى ما كنت باعمل زمان يا "عيشة"، بكرة تعرفى إن كل ده حرق أعصاب". أغتاظ منها وأقول "بطلى تكسير مجاديف بقى". عندما لمحت فى تلك الليلة ملامح الإحباط على وجهى اكتسى وجهها بكل ملامح الاستعداد للحكى وانطلقت "اوعى تفتحى بقك يا "عيشة"، إنت اللى عملت فى نفسك كده. أنا كل الناس بتوع الاجتماعات دول بيفكرونى بشيخ الجامع اللى باصلى فيه العيد دايماً. أصل أنا باروح دايما قبل الصلاة وعمرى ما استنيت الخطبة. بس فى مرة الفضول خلانى أفضل قاعدة مكانى وكمان كنت خايفة من الست اللى جانبى كانت بتزعق لكل واحدة تقوم تقف. قعد الراجل يدعى فى آخر الخطبة ويقول:

اللهم انصرنا على اليهود، اللهم انصرنا على الصليبيين، مش عارفة الصراحة قصده مين بالضبط وكنت هاموت من الضحك. بس زى ما باقول لك كنت مرعوبة من الست دى. وآخرها راح قايل حتة دين حاجة، مش هتصدقى والله ما تختلف عن أفكار بتوع الاجتماعات، أخد نفس كده وبثقة راح قايل: "اللهم امحق الشيشان". تصورى ماكانش يا حرام فاهم الفرق بين الضرب والشيشان. ساعتها كأنى أخدت جرعة شجاعة ورحت قايمة من مكانى وأنا بضحك كمان وعلشان أزايد على الست المرعبة قعدت أقرل بصوت عالى "لا حول ولا قوة إلا بالله". بذمتك فيه فرق بينه وبينهم. بيروحوا الاجتماعات وهم مش عارفين الهدف وبيطلعوا المظاهرات يشتموا فى بعض بدل ما يشتموا فى السلطة! وبعدين ينتظروا كام أسبوع تكون الحكومة مررت لها قانون ولا اتنين. أهو شيخ الجامع على ما فهم كانت الحدوتة خلصت خلاص، يا عينى تلاقى لما الشيشان اتبهدلوا افتكر إن ربنا استجاب لدعوته"..

تنتشلنى دائماً حكايات "سارة" من إحباطى، وتنجح فى انتزاع بسمة من وجهى. أسرع الخطى إلى وسط المدينة. لدى ميعاد مع "معز" الصديق الذى تعرفت عليه عبر "مصطفى"، ذهب "مصطفى" وبقى "معز". جاء من الجزائر محملاً بكل الحب والكره لأوربا، وقع فى عشق مصر ولم يتركها منذ خمسة عشر عاماً. برع فى تدقيق مخطوطات التراث العربى وبنفس البراعة

فهمنا جميعاً. يستمع ويستمع ثم يشيح بيده جانباً عدة مرات وكأنما يزيح بقايا لا حاجة له بها على المنضدة. كانت كلها بقايانا، شروحاتنا، مبرراتنا، حججنا، كذبنا.. هو الفهم الذى جعله قاسياً إلى درجة غير محتملة، وهو الفهم الذى حوله إلى مركز ثقة لى ولـ"سارة". علمتنى "سارة" أن أستشف من ملامحه حالته المزاجية. نعرف ما إذا كانت ليلة قسوة وجلد أم ليلة هادئة. كان قد يسألنى عن "مصطفى، كما فعل الكثيرون. وكانت إجابتى حاسمة وواضحة: "مصطفى" لم يعد يحتاج لى الآن"، ماذا وكيف ومتى وأين، اسألوه وسيقول لكم. لكن عندما سألنى "معز" قلت له "عايزة أحكى لك كل اللى حصل". لدى دائماً هاجس طمس الحكايات وموتها وموت أصحابها وهو ما يسمح باختراع حكايات جديدة. و"معز" أهل للثقة، يكفى أنه الوحيد الذى اكتأب قبلنا جميعاً وربما كان يسخر منا فى نفسه لابتهاجنا غير المبرر، ولثقتنا الشديدة فى بعضنا البعض. كان "معز" مثل "تيريزياس" الذى رأى كل شىء قبل أن يقع. تسميه "سارة" "مدام زوزوستريس". رأى ما سيقع لـ"كمال" ورأى "مصطفى" ورأى "سمر" بوضوح شديد. رأى كل شىء ولم يتكلم. فقط انتظر أن تقع الأحداث. وعندما وقعت قال لى: "إنت شفتِ عملوا إيه فى سارة؟ اتعلمى، دى لعبة ومصالح، وكله بيلعب على كله". القاهرة فن الانتظار والتوقع...

حكيت لـ"معز" كل شىء بدون مواربة، كان كمن يحمل فى يده بطارية لا تنير الطريق، بل تؤكد أماكن عثراته وفخاخه. أجلس منتظرة ظهور "مصطفى" ومنتظرة رد فعله الذى سيأتى مطابقاً لأصوات لغته المتشابكة، اللغة التى لا تعبر إلا عن نفسها، اللغة التى لا تشير إلى أى شىء خارجها، لغة لا تعنى إلا نفسها. وعندما رأيت "مصطفى" كان رد فعلى أنا هو المفاجئ بالنسبة لى، لم أعرفنى، ولم أعرف هذا الـ"مصطفى"، كأننى لم آكل معه بامية من نفس الطبق على جريدة قديمة فرشناها على الأرض ذاك اليوم، كأننى لم أبكِ على كتفه عدة مرات، كأننا لم نتكلم فى كل شىء وعن كل شخص مر فى حياتنا، كأنه لم يحكِ لى عن متاعبه الصحية وأدق الأسرار العائلية، كأننا لم نمر معا بالعديد من المصائب. سرحت فى وجهه وأنا لست متأكدة أن هذا هو "مصطفى" الذى عرفته سنوات. أكملت كلامى وكأن "مصطفى" ليس موجوداً، وكأنه لم يكن أبداً موجوداً، لم يبشِ بالأمر سوى توتر "معز" الخفى. أكاد لا أصدق أن بعد كل ما حدث مازالت لديه القدرة على مواجهة نظرى، ولا أصدق حتى الآن أننى تمكنت من مواجهته.

ذاكرة مواجهة

خيانة علنية. خيانة فاضحة. مخالفة فجة لكل تعليمات القاهرة: المواجهة. لا تكره القاهرة شيئا بقدر ما تمقت المواجهة، وكل أهل القاهرة مخلصون حتى الثالثة، وأعداء اليوم أصدقاء الغد تتحول فى القاهرة فتكون أعداء اليوم هم أعداء كل يوم وأصدقاء كل يوم. العداوة القاهرية خفية، بارعة فى الاختباء، تراها ولا تمسكها، تعرفها ولا تفلت منها و..."ده حبيبى والله بس هاقول لك بقى عمل إيه. ده الأمريكان هم اللى بيصرفوا على الجرنان بتاعه ومايقدرش يقول لأ، أصله مابيفهمش حاجة، هو عاوز فلوس وخلاص، وأهه كل الناس بتكتب وبتاخد فلوس. أنا عرضوا على أكتب بس رفضت، أصل أنا مش زى الباقيين. آه ما هو حبيبى وصاحبى، كل يوم بنسهر مع بعض للصبح، بس هو باع نفسه خلاص". فى مرحلة "والله ما كنت عارفة" كان أى موقف مشابه يصيبنى بالرعب، تسخر منى "سارة" وتقول "يا سلام يا عيشة على هبلك، أمال لو قال لك إنه خط ايده فى بق الأسد، وبعدين وقف القطر برجله، هتعملى إيه؟" وفى مرحلة تالية فهمت أن هذه الأحاديث العنترية ليست سوى علامات خادعة لطرق القاهرة، علامات لابد أن نتظاهر أننا لا نراها. فى برلين أرى الرجل يقف فى مواجهة الجدار وذراعاه مرفوعان لأعلى والشرطى يرتدى بحرص قفازه الأسود ليبدأ

فى تفتيشه والاثنان يبدوان وكأنهما مقبلان على احتساء فنجان قهوة معاً. يقع نظرى عليها وأتظاهر أننى لم أرَ شيئاً، برلين لا تحب المواجهات أيضاً. (أفتح كتابى وأضع وجهى فيه وأتمنى أن تمتد أوراقه لتبتلعنى) أتشاغل بالنظر إلى اللوحة المعلقة لأحصى عدد الدقائق المتبقية على وصول القطار. أختلس النظر إلى وجه الرجل ولا أفهم شيئاً. أتجرأ فى النهاية وأسأل الرجل الواقف بجوارى "ما الذى يحدث؟" يجيبنى بوجه شمعى "أعتقد أنه بدون إقامة". أتحسس فورا جواز سفرى فى حقيبتى، بلاد قاسية لابد من الاستئذان قبل دخولها، بلاد لا ترحم ولا تغفر. وعندما يصل القطار أتردد فى الصعود. علمتنى القاهرة أن المواجهة تحولنا إلى أرداً "دون كيشوت"، "دون كيشوت" لا يجد حتى طاحونة واحدة ليصارعها، فقط يدرك فى وقت متأخر للغاية حينما يكون الجميع قد غادر أنه كان يصارع أفكاراً اتخذت من فكره سكناً.

أسير فى دروب القاهرة وأسقط الكثير من جغرافية بصرى، أسير ولا أنظر خلفى وأرتكب أخطاء بسيطة تتحول مع الزمن إلى فادحة.

ذاكرة عشق

خيانة القاهرة تهدر كل احتمالات العشق المحتملة. رجال القاهرة لا يحبون المواجهة، المواجهة هى الخيانة المجسدة.(الرفض فى جملة واحدة لا يعنى سوى أن هناك "امرأة" تمنع، أما القبول فلا يعنى سوى العديد من القصص المحتملة التى لا تتضمن سوى الفشل) ببساطة، بضعة آلام إضافية. أما إنهاء علاقة - لأنها انتهت، لأن العلاقات تنتهى - فلا يعنى سوى مواجهة كوارث قاهرية. عندما وقع "كمال" فى حب "سارة" التى لا تشبهه ولا يشبهها ثم غادرت "سارة" العلاقة انقلبت عليها القاهرة. لم يفعل "كمال" شيئاً سوى أنه انهار تماماً وفقد السيطرة على دموعه، وظل حتى اليوم يسأل "ليه؟" لم يفهم "كمال" – وآخرون - أن العلاقات تنتهى وأنه انتهاء لا يستدعى أى حكم على "سارة"، لكن القاهرة بأكملها لا تفهم كيف تنتهى علاقة بين رجل وامرأة دون فضائح ومصائب وجروح ظاهرة. ولأن "كمال" أطلق العنان لمشاعره فقد تحولت "سارة" فى يوم وليلة إلى شيطان تحاول القاهرة وأده بكل ما أوتيت من قوة. بدأ الوأد من أصدقاء "كمال"، فتكفلت واحدة بإسقاط اسم "سارة" من على قائمة مراسلات الإنترنت وتعهدت أخرى أن تدير وجهها حين تلمحها. ثم تحول الأمر إلى أصدقاء "سارة"، لم يبخل عليها

"مصطفى" بقدر لا بأس به من التوبيخ ولم يبخل على "كمال" بإعارته ساعات من الاستماع وتأكيد التضامن. أما "سمر" التى كانت قد تعرفت على "سارة" مؤخراً وكانت دائماً ما تقول لى: "روحها جميلة قوى يا عيشة" فقد توقفت عن دعوتها لسهراتها المنزلية وبالتدريج نسيت "سارة" وكأنها لم تعرفها يوماً، فقط تتذكرها عندما نجتمع كلنا. وترسخت القاعدة أن الحفاظ على مشاعر "كمال" يعنى إسقاط "سارة" من كل الحسابات. بهرتنى "سارة" بعدم اهتمامها، كانت تؤكد لى دائما "أصلهم ناس مش متعودين على الحقيقة، متعودين على اللف والدوران، عارفة الفكرة الخايبة بتاعة مالناش دعوة ومش عايزين نزعل حد. اللى غايظنى إن هم ماكانش عندهم مانع يزعلونى خالص. يلاّ مش مشكلة، الدنيا صغيرة ولهم يوم. إيه رأيك بقى فى شجاعتى يا عيشة؟"

لم يبق على "سارة" سوى أنا و"غادة" و"نهى" و"سميرة". واعتبرها "كمال" أقوى خيانة فتوترت علاقتى به أكثر من عام. كانت "غادة" مقتنعة بموقف "سارة" ولم تبخل عليها بالتضامن، أما "نهى" فقد كانت صريحة معها صراحة موجعة أكسبتها احترامها وجنبتها اتهام "كمال" لها بالخيانة. وأنا لم أتكلم مطلقاً.. كنت أفهم معنى ضمور المشاعر وخفوتها وذبولها. لم أفتح الموضوع معها. كنت أحاول أن أخلصها من الشعور بالذنب، أحاول أن أفهمها أن سخافات البشر تشبه الملح الزائد فى الطعام الذى لابد أن يذوب

ويترك جفافاً فى الحلق، ينتهى بشرب جرعات هائلة من الماء والثقة. كنت معجبة بـ"سارة" لأنها أنجزت محظور القاهرة.. المواجهة. لكنها كانت خيانة لم تغفرها القاهرة، كل ما فى الأمر أنها نسيتها وسقطت الخيانة بالتقادم. ولم يسقط الفزع الذى ظل يسيطر على "سارة".

فزع لم يخفت بل تصاعد بعد عدة سنوات مرت حاولت أثناءها "سارة" أن تكفر عن ذنبها مع "كمال"، أو ما تصورته ذنباً، ولم يقصر "كمال" فى تعميق إحساسها به. كانت دموعه وتأوهاته تحول "سارة" إلى شيطان، كان صمته المفتعل ونظراته المكسورة بوعى تراكم لـ"سارة" عداوات لم تنتبه لها. بعد عدة سنوات فهمت "سارة" قبلنا جميعا كيف يعيش ويتعايش "كمال" مع مخيلته، كيف يصم أذنيه عن كل الكلام إلا ما يقوله لنفسه. حتى إن "هاجر" اعترفت لـ"سارة" فى لحظة صفاء "بصراحة يا "سارة" أنا أيامها شفته ماشى فى الشارع يعيط، كرهتك بشكل يومها". كانت "سارة" تواجهه فى البداية ثم قررت أن المواجهة مع "كمال" لا تفيد فأسمته "كمال ماشافش حاجة". كلما تسأله عن واقعة ينكر معرفته وكلما تواجهه بشىء يقول بثقة: "مش حقيقى"، وفى النهاية وبعد مناقشات طويلة ينتهى الأمر بـ"خلاص يبقى أنا ماكنتش فاهم". الآن فقط فهمت أن "سارة" هى الوحيدة التى فهمت "كمال" ولذلك ظل معذباً بها حتى الآن.

ذاكرة "سارة"

دائما ما أحببت "سارة" رغم انفصالها عن "كمال" الذى خلق حولها الكثير من الحكايات. كنت واثقة أنها حكايات من صنع الخيال لأن "سارة" لم تبالِ بالرد على حكاية واحدة. لم تنزلق أبداً فى شبكة الحكايات لكنها لم تتوقف عن المواجهات فواجهت "سمر" و"مصطفى" بعد وقت طويل بما تطوعا به من إقصاء. جاءتنى "سارة" وهى تضحك وتضرب كفها اليمنى باليسرى وتردد "عجب، ناس عجب يا "عيشة"، دايما بيراهنوا إننا هنتكسف ومش هنقول لهم حاجة". وعندما سألتها عن رد فعلها قالت: "ولا حاجة، كل واحد فيهم هز لى دماغه بمنتهى الحكمة مع شوية نظرات وقار ماحصلش، وعينين بتسبل وبس. ماحدش ادانى مبرر لأى حاجة. بس اللى جارحنى إن لا هى ولا هو كلفوا خاطرهم بحتة سورى صغيرة. أو حقك علينا يا أمورة، أو معلش خيرها فى غيرها، أو ماتزعليش ماكانش قصدنا. ولا أى حاجة. صدق "معز" لما قال لى إنى ماعرفش حاجة. الحقيقة كان عايز يحكى بس أنا غيرت الموضوع، مش عايزة أعرف حاجات تضايقنى أكتر." تذهلنى "سارة" من قدرتها على المواجهة الهادئة التى لا تقل عن قدرتها على عدم الانتباه لكل ما ينسج حولها. تعمل "سارة" فى إحدى

المنظمات الحقوقية التى تناضل ضد قوانين تمرر ليلاً لتلتزم بها صباحاً، هكذا هى القاهرة، كل الأشياء تحدث بها ونحن نيام. ولهذا تتواجد "سارة" فى الأماكن المسروقة من العسكر، أمام مجلس الشعب، دار القضاء العالى، ربما القاهرة كلها مسروقة من العسكر. دائما "سارة" هناك نهاراً تتدلى من على كتفها حقيبة جلدية سوداء ضخمة بشكل ملحوظ، بها كل شىء. حقيبة كنت لابد أن أراها أولاً لأعرف أن "سارة" بجانبها. تفتح "سارة" الحقيبة فتخرج كتباً وأوراقاً وإيشاربا وأقلاما ومناديل ورقية وبسكويت ومفكرة أرقام تليفونات والمحمول والمحفظة وجريدة معارضة وعلب كبريت من أماكن مختلفة وقلم الكحل ومرآة صغيرة.

تنتقل "سارة" من أماكن النهار المسروقة إلى أماكن الليل الآمنة فتشيع كماً لا بأس به من الصخب وتحكى الكثير من الحكايات. كانت عكس "كمال" تماماً، ربما لهذا أحبها وربما لهذا أحبته وربما لهذا غادرت. وربما لهذا كانت القاهرة تراها مشكلة، فـ"سارة" وحشية وبرية وأبعد ما تكون عن الترويض، تحول الكوارث اللفظية إلى نكات بتلقائية شديدة والقاهرة لا تحب من يشبهها. عندما ضمتنا ذرعاً بقاهرة العسكر لم يبق على العهد سوى "سارة"، عشقت القاهرة وتقمصت شكلها فعاقبتها القاهرة.

فى إحدى جلسات النميمة المكثفة بينى وبين "سميرة" قالت لى إن "سارة" اتصلت بها من الإسكندرية وكانتا تتكلمان عن غليان القاهرة، فقالت لها "سارة" "لو كمال أتقبض عليه أنا هاموت"، لست وحدى إذن التى ترتعد من اختفاء الآخر.

- هه، وقلت لها إيه؟

- هاقول لها إيه يعنى، ما هى المسألة بالعقل كده، قلت لها يا "سارة" لو الموضوع بالنسبة لك كده يبقى لازم تبطلى تعرفينى أو تعرفى أى حد، لأن أى حاجة ممكن تحصل لأى حد فى الزمن ده. لما طلعت اتقبض عليه أنا فضلت واقفة على رجلى وعملت اللى لازم يتعمل، بس قبل لما يتقبض عليه كنت بافكر زيك كده

- تفتكرى يا "سميرة" ممكن يرجعوا لبعض بعد كل اللى حصل ده؟

- لو هم زى ما هم ممكن.

- لو.. خسارة كانت أيامهم حلوة. بس هم مش زى ما هم خالص.

كلما أتذكر "سارة" فى برلين أشعر بالبهجة وأضحك وأنا أسير بمفردى فى الشوارع الباردة، وفى القاهرة حاولت أن أتصل بها مراراً لأتفق تلك الرسالة السخيفة "هذا الرقم غير متاح حالياً، يرجى إعادة المحاولة فيما بعد"، ظللت أحاول وأحاول حتى علمت أنها غيرت رقم المحمول. التقيتها بصدفة مرتبة،

كانت تجلس بجوار "كمال" ومستغرقة فى إحدى حكاياتها. ألقيت بنفسى فى حضنها لأحتمى من غواية القاهرة، كان حضنها أليفاً كأننى عرفته فى حيوات أخرى ولو كنت بقيت قليلاً كنت سأرى التماع الدموع فى عينيها، هكذا هى "سارة" تبكى حين لا يكون البكاء متوقعاً وتضحك حين يجب أن تتجهم. أبادرها فوراً "حكاية الليلة إيه يا سارة؟" تضحك "والله يا عيشة، إنت اللى حظك كده كل ما تيجى تلاقينى فى وسط حكاية." ثم تلتفت للآخرين وتقول "معلش يا جماعة هاخلص من الأول علشان عيشة". أجلس قبالتها لأستمتع بملامح وجهها وهى تحكى:

- بصى يا ستى. وديت النهاردة عربيتى تاخد شوية سمكرة على شوية دوكو على زيت وشحم وخلافه. وديتها للدكتور يعنى. وده معناه إيه يا حلوين، يلاّ اصحوا معايا، أيوه برافو، معناه تحيا التاكسيات. ركبت تاكسى من على كورنش المعادى، من قدام البيت على طول وقلت ربنا يستر. أصل التاكسى ده إنت وبختك، ثم تميل على وتهمس "زى معز".

أنفجر فى الضحك، وأقول:

- كملى يا أم لسان طويل.

- أنا لسانى طويل؟!! طب "معز" كده ولاّ لأ؟ قولى الحقيقة، يا إما الليلة تبقى فل أو تبقى كوبيا. أنا باقول له كده فى وشه. المهم السواق اللى ركبت معاه طلع لطيف بس العادى إنه يبقى رغاى طحن. طبعاً قعد يتكلم

عن البلد وحال البلد والفقر والزباين اللى بيركبوا معاه وعساكر المرور اللى بياخدوا فلوس والضباط اللى بيقسموا معاهم، وبعدين ابتدا يتكلم عن العربيات وأسعارها، أصله كان كل شوية يقول لى: "اقفلى الباب كويس"، فتحت الباب ورزعته أربع مرات ومافيش فايدة. الباب أحول أعمل إيه؟ المهم قام قال لى إيه: "ده فيه ناس يا أبلة معاها عربيات، لا مؤاخذة، ماتآخذنيش يعنى فى اللى هاقوله، عربيات فوق خيالك. هامر وشيروكى ومرشيدس وشافورليه". اتغاظت ساعتها بشكل، مش من السواق، لأ من أصحاب العربيات دول. ده أنا لى واحدة زميلتى فى الشغل ساكنة فى الزمالك وعندها تويوتا كورولا وقال إيه مسميها باستا، الى التقيلة مش الخفيفة، وتقول لسايس الجراج "خد بالك من باستا يا صلاح"، ولما تنزل تقول له "باستا فين يا صلاح؟"

كاد الضحك يفتك بنا من طريقة تقليد "سارة" لصاحبة السيارة، وزاد ضحكنا عندما أدركنا أن "سارة" تفعل بزميلتها ما تفعله مع "غادة":

- بتفقع أنا بقى منها، فكل ما أشوفها أقول لها أنا هاخد سدوق وأمشى.

- ده إيه كمان يا "سارة"؟

الست دى عاملة زيك بالضبط يا "عيشة". سألتنى نفس السؤال، يا بنتى السجق اسمه سدوق، زى اللانشون اسمه لانشو، كده يعنى، اتعلموا لغات وانضفوا شوية. المهم وقعت صاحبتنا فى الفخ وسألت "سدوق مين يا سيرا؟" بتدلعنى، كأنها بتقول لى يا عين الصيرة، أقول لها عربيتى، عارفة

عربية السندوق والكبدة اللى على ناصية الشارع، هايلة بتعمل سندوق كلاب ماحصلش. عربيتى بقى اسمها سندوق، وأمشى وأسيبها وعلامات القرف على وشها. المهم بقى خلونى أرجع للسواق، أصل القرعة تتباهى بشعر بنت أختها، فهو يا عينى قعد يتباهى بالعربيات اللى بيشوفها عند هيلتون رمسيس. كنا قربنا منه قوى ساعتها. ويحكى عن العربيات وجمالها، وبعدين قال لى: "بس هم ناس مش كويسين خالص، ديك اليوم واقفين عند الفندق وكان فيه فرح والدنيا مقلوبة، سألنا فرح مين، العمال بتوع الفندق قالوا لنا ناس عرب، والفرح بتاع راجلين." أنا افتكرت إنى سمعت غلط، فقلت له مين؟ قال لى "والنعمة الشريفة، زى ما باقول لك يا أبلة. راجلين لا مؤاخذة بيتجوزوا. أصل الفندق مايهموش غير إنه يدخل فلوس". الفضول أخدنى وسألته: "ومين المعازيم؟" فقال لى بصوت واطى شوية: "المجموعة اللى زيهم وعبدة الشيطان، أصلهم كتير." بصراحة كنت عايزة أضحك، بس كملت فضول وسألته: "وإنت بتعرف عبدة الشيطان دول ازاى؟ بنبرة الواثق قال لى: "سيماهم على وجوههم يا أبلة، الواحد يشوفهم يبقى مش مرتاح من جوه كده." بس خلاص، كنت وصلت لغاية فلفلة، والله كان نفسى أكمل وأسمع شوية حكايات كمان. ده ماكانش راضى ياخد فلوس منى.

احتجنا وقت لنتجاوز الضحك والذهول، ولنستمع لحكايات أخرى مشابهة، حتى تطوع كمال وقال "كل السواقين دول مباحث." همست

بالمغادرة وقلت "لأ، دخلنا فى المباحث يبقى أمشى أحسن". وبدأ كمال يحكى عن المخبرين الذين رآهم فى مظاهرة الأمس، انتحيت ب"سارة" جانباً وسألتها:

- كله تمام؟

- مش عارفة، بجد مش عارفة... "كمال" مش بيقدر يواجه أى حاجة، مش عارف يرجع صاحبى خالص.

- إنت عايزة إيه؟

احنا لو عايزين حاجة نفكر فيها قوى ولا ننساها خالص؟

وحتى اليوم أتساءل "نفكر أم ننسى؟"

ذاكرة الاحتياج / الرغبة

نفكر فيها: أى أستضيف الأرق عددا لا بأس به من الأيام، أى أجرى مكالمات للقاهرة بما يعادل نصف راتبى، أى أقضى الصباحات والمساءات أحاول فك شفرة رموز أوراق الكوتشينة بما يلائم مزاجى، أى أقضى اليوم فى إعادة تلاوة حلم الليل على مسامعى، أو أطلب منك يا "روضة" أن تأتى بالمزيد من الأحلام لتشرح المتن الليلى اليومى، أى أتلو "لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين" ألف مرة، أى أهرول للحاجة "سنوى" وأطلب منها أن تقرأ فنجان القهوة، فتضع النظارة وتقول: "فيه تمانين جنيه فى الطريق، وفيه مكالمة من برة وعتبة حلوة. إنت بتفكرى كتير، بختك قليل وحظك مع الغريب. قولى يا رب وسيبى حملك على اللى خلقك"، تتثاءب وتكمل "محسودة أى والله محسودة، بخرى البيت واعملى عروسة ورق ولمى البخور فى منديل وحطى معاه ريال فضة وارميه فى المفارق". أن أندمج فى فكرة خيالية من صنع خيال بائس مفلس يعنى أن أتناول السيجارة من ناحية الجمرة فتبقى علامات الحرق مختفية بين إصبعين، أى أتصل بـ"سميرة" و"غادة" كل نصف ساعة، أى أضع مفاتيح الشقة فى الثلاجة، أى أشترى علبة اللبن وأغادر بعد أن أدفع ثمنها لمناديني البائع "هالو...هالو... داين ميلش"، وأحيانا "يا مدام... مش عايزة اللبن ولا إيه؟

معلش أهه الناس كلها على الحال ده.. خلّيها على الله". أى أزور مسجد الرفاعى "سلطان الأفاعى" ليحاصر الأفعى التى تلفنى، أفعى نهمس: "ابقى مكانك، لا تغادرى، لا تدعى أى شىء يمر، تشبثى حتى تتحجرى".

(نسى: أن أتكلم فى موضوع آخر غير الذى كنت أفكر فيه، أن يتحول عقلى إلى صندوق مغلق ومعتم ليس به بصيص ضوء. أن أنسى اسم الشخص الذى – بالتحديد - كنت أنتظره، أن أعبر الشارع فى اللحظة التى كان يجب أن أنتظر فيها، ألا أجيب الهاتف حين يقتل نفسه رنينا، ألا أفكر فى الموت فيفتح لى ذراعيه بسخاء، أن أنسى أننى كنت أفكر فأفكر، أن أنسى برلين فأجدها أمامى مرة أخرى.

أن أنسى الحب فيجىء الحب وأنا غافلة. أن أدعو دائما من أجل شىء واحد فقط ثم أسير فى الاتجاه المعاكس تماما وأنسى ما كنت أدعو به.)

أن أنسى الاحتياج فيداهمنى فى أسوأ اللحظات، فى نوبة صداع، فى آلام الدورة الشهرية، فى يوم بارد ومظلم فى برلين، فى عيد أقضيه وحيدة، فى لحظة رؤيتى لوجه عابس، فى نزلة برد تمنعنى من الكلام عدة ليال، فى فائض من الوقت سقط من متاع الزمن سهوا...

أفهذا لا يأتى الحب؟ أم أنى ولم أزه؟

ذاكرة قطارات

تداهمنى الدنيا وأنا على متن القطار من أمستردام إلى برلين، يداهمنى كل اليأس وكل الفرح، يتملكنى شعور بأننى مكتفية بذاتى وفرحة بها وبنفس القدر أدرك أننى لا شىء، العالم كله خارجى ولا أملك منه ذرة واحدة. حجم وجودى هو نفسه حجم غيابى. فى القطار تتشكل سيناريوهات كاملة فى محيط رأسى، كسيناريو درامى لموتى مثلا، ثم أتوغل أكثر وأحاول أن أحدد نوع الضربة التى ستوقف قلبى إلى الأبد، هل هى طعنة سكين من الظهر أم من الأمام، هل هى قنبلة فى مكان ما، هل هى طائرة ستسقط بكل لعب الأطفال والأكياس البلاستيكية التى تحوى هدايا للمنتظرين، هل هو سرطان رحم يفتك بالجسد كله فى ثلاثة أشهر، أفضل أن يكون شهرا واحدا.. ثم أبدأ فى تخيل ردود أفعال من أعرفهم، فى هذه اللحظة يندفع القطار فى ضباب محمول، يتحول الأخضر بشكل مباغت إلى الأبيض، علامة الاقتراب من الحدود بين هولندا وألمانيا. فأرى روحى تهيم فوق المكان، فى سقف الغرفة التى يجلس بها المعزون، أستثنى أمى من الحاضرين لأن وجودها سيفسد السيناريو تماما وستحول الأمر كله إلى مناحة كبيرة.

أريده عزاء يليق بالعظمة التى أتوهم نفسى عليها، وربما يكون عزاء هزيلاً يلائم الغياب الذى أتوهم نفسى عليه.

لا عجب أن يطلب منى مفتش القطار التذكرة فأنتفض من مكانى مفزوعة وينسكب قليلا من فنجان القهوة الموضوع أمامى. أنظر له فى محاولة للحصول على بعض التعاطف، لا يتحرك. لم يربت على كتفى مثلا ويقول: "حصل خير"، لم يعتذر، لم يفزع من فزعى. تمتم ببضع كلمات ألمانية لم أفهمها، ثم نظر لى نظرة ذات مغزى وكأنه يقول لى: "لا تلعبى مثل هذه الألعاب، نعرفكم تماماً". أناوله التذكرة بثبات وأعود إلى كتابى حتى ينتهى من الفحص والتدقيق. يرد لى التذكرة ويتمنى لى رحلة سعيدة. أعود إلى سيناريو العزاء وأبدأ فى إيجاد أعذار لهؤلاء الذين لم يتمكنوا من الحضور. "شهاب" سيكون منشغلاً باجتماع طويل ولن يعرف إلا فى اليوم التالى من "غادة" التى ستؤنبه كثيراً، وبعد أن يغادر سيبكى كثيراً على غيابى، و"سمر" ستكون منعزلة عن كل من أعرفهم لكن بمجرد أن يصلها الخبر ستأتى مع "كمال" وهى ترتدى الأسود وتجمع كل شعرها إلى الخلف، "مصطفى" سيكون بالتأكيد مريضاً ونائماً، أما "معز" فسيعرف بمجرد عودته من الخارج ولن ينطق... ستسقط "نهى" فريسة لمرض مزمن، أما "جميلة" و"سميرة" فسيبكيان لفترة طويلة. ثم أدركت مدى شر هذا السيناريو، ليس سوى مزايدة على البشر.

فى القطار أفقد كل جاذبيتى الأرضية، أنا فى المنطقة التى لا يملكها أحد، منطقة ما بين هنا وهناك، منطقة ليس بها سطوة للمكان أو الزمان، يزداد تلاحق المنظر خارج القطار ويهدأ كل شىء داخلى. أطير بين مدينتين، القاهرة ليست واحدة منهما. تغيب القاهرة عن الجغرافيا وتحضر فى كل ميل يتجاوزه القطار بسرعة جنونية، أتابع عداد السرعة المثبت فى مقدمة كل عربة وأتساءل عما تكون القاهرة تفعله الآن. يتوقف القطار فى باد بنتايم، مدينة الحدود بين هولندا وألمانيا. يتوقف سبع دقائق كاملة. هكذا هو العبور، ليس سهلاً.. لم يكن أبداً سهلاً. أتأمل رصيف المحطة.. "أنت الآن على الحدود، ارقصى، اضحكى، تنفسى هواء المكان، لحظة ليست مثل كل ما مضى، لحظة لا تشبه كل ما هو آت. هى لحظة الحدود المستعصية على كل تصنيف".

يصل القطار أخيراً بعد ست ساعات إلى برلين، عبر القطار من بلد لآخر، بقدر بساطة هذه المسألة بقدر ما تذهلنى، الانتقال بين البلدان عبر القطارات. كيف تعبر القطارات دون أى مجهود؟ كيف أستقل القطار من على رصيف محطة أمستردام لأصل بعد ساعات إلى رصيف محطة برلين؟ نقضى أعمارنا محاولين العبور.. العبور من الفقد إلى التعايش مع الفقد، العبور من الثلاثين إلى الأربعين، العبور من علاقة محرومة إلى الحيادية إلى الصداقة، العبور من عام إلى آخر، العبور من الرفض إلى القبول، العبور

من الصمت إلى الصراخ، حتى أجبرتنا القاهرة أن تقصر أحلامنا على العبور من يوم إلى آخر، ثم اجتياز كوبرى قصر النيل سيراً على الأقدام حتى تقلص الأمر إلى العبور من رصيف إلى رصيف مقابل. ربما الحياة بأكملها ليست سوى المنطقة التى تفصل ما بين رصيف وآخر. ربما هذه المنطقة هى الحياة نفسها، ربما تثبت الفلسفة الألمانية صحتها فى النهاية. ونكتشف أن مقولة "شوبنهاور" صحيحة. كلما أدخل المكتبة الرئيسية لابد أن أعبر من أمامها: "العالم ذاته هو حساب العالم". حساب صعب وأنا بليدة فى الحسابات.

الطائرة تحملنى إلى السماء فتبدو كل الأشياء أصغر، أما القطار يحملنى فوق الأرض فتبدو كل الأشياء أسرع، ما يستغرق أياما على الأرض يمر فى ثوان فوقها. تتتابع الصور من النافذة حتى تصبح شبه صور، كحياتنا فى القاهرة، حياة تشبه الحياة، كحياة "شهاب"، كوجود "سارة" و"هاجر" فى وسط المدينة، هناك وليست هناك، لم تكن أبداً.

كيف يتواجد الناس هناك ودائما؟ بكل قلبهم هم هناك، ليسوا خارج الصف أبدا، مجتمعين فى مجموعات صغيرة أو كبيرة، لا يهم، المهم أنهم معا. يرددون نفس الأشياء، يضحكون لنفس النكات، ينشرون نفس الشائعات، يذهبون لنفس الأماكن، تصيبهم ذات الهواجس، ويحكون نفس

الحكايات.. تماما مثل عمتى التى ظلت تؤنبنا ونحن صغار لأننا نأكل القشدة من على وجه اللبن، كل يوم تؤنبنا، كل يوم، كل يوم، وكل يوم نأكل القشدة سريعا بالملعقة، وفى يوم قررت أن تعلن توقف التأنيب فاشترت ثلاجة إيديال بمفتاح وكلما كنا نريد شيئاً من الثلاجة كان لابد أن ننتظر انتهاء فيلولتها لتعطينا المفتاح وتتأكد أننا لن نأكل القشدة التى تدخرها لزوجها. يبدو أن غياب التأنيب أشعرها بالملل فبدأت تؤنبنا لشربنا المياه الباردة من الزجاجات. هكذا شعرت بغياب "سارة". لديها دائماً حكايات مختلفة عن ناس آخرين فى أماكن بعيدة، حكايات لا تقطن الروح كثيراً وتعشش فيها كالحكايات الأخرى المتشابهة، حكايات تبدأ وتنتهى كشكل الدنيا من نافذة القطار، حكايات تشبه وجود "سارة"، حكايات "سارة" تشبه "سارة".

ذاكرة قطارات

احكى يا "سارة" والنبي
أبهى حكاية؟
حكاية قطر المنيا
آه يا منيا، يا جمالك يا منيا، يا حلاوتك يا منيا..
احكى بقى يا "سارة"!

بصراحة أنا باموت فى المنيا، أهو كده من غير سبب. أهل المنيا دول أصلهم رايقين بشكل كأنهم جايين من بلد تانية، صوتهم واطى وجملهم مفتوحة فى الآخر، ماعندهمش اليقين الفظيع بتاعنا. المهم أنا لما باروح المنيا باركب من محطة الجيزة مش من محطة رمسيس، باكره رمسيس دى، واسعة وباتوه فيها ورصيف الصعيد فى آخر الدنيا. الجيزة بقى رايقة، أروح الصبح وأقعد فى الكافيتريا وأطلب قهوة والجاتوه إجبارى طبعاً، وأقرأ الجرايد، وأدخن سجاير، وييجى الأستاذ قطر على محله بعد ما أعصابه تكون هديت من موضوع رمسيس. وفى يوم من ذات الأيام عملت كل ده وطلعت القطر. صبحت على الكمسارى وسألنى رايحة فين وجاية منين، وبعدين سألته هو منين، وقام نازل ضارب الصفارة بتاعته وهوب طلع على

مدونـــــــة رفايــــــع

طول ووقف يتفرج من الباب اللى مفتوح طبعاً. وبعد ما مشى القطر عشر ثوانى تقريباً افتكرت إنى نسيت الملف بتاع الشغل على الترابيزة فى الكافيتريا، وفجأة انقلبت بيئة خالص وخبطت على صدرى وقلت "يا لهوى.. الملف". انكمسارى اتخض وقال لى "ملف إيه؟" قلت له "كل الشغل اللى أنا رايحة عشانه المنيا". قال لى "شكله إيه؟" قلت له "أحمر". تصوروا الراجل عمل إيه؟ حط الصفارة فى بقه تانى وقام موقف القطر، وأنا ماكنتش مصدقة نفسى، إنه يعمل كده ماشى، بس إن القطر يقف بجد دى كانت حاجة مش معقولة. وقام نده لعسكرى غلبان واقف فى آخر الرصيف وقال له "اجرى يا دفعة هات ملف أحمر على الترابيزة هناك". والله أنا شفت الملف كنت هاغيط من الصدمة. مافيش مكان فى الدنيا ممكن يحصل فيه كده إلا هنا. أى والله بلد محصلتش ومش هتحصل أبدا. القطر وقف علشان خاطر الملف!! عرفتم بقى القطارات بتخبط فى بعض ليه؟ والله أسباب إنسانية خالص، واحدة نسيت ملف، واحدة عايزة تولع بابور تعمل شاى...

واحكى..

احكى يا "سارة" والنبى
أحكى إيه؟
احكى حكاية الراجل المجنون
يوه، أنا حكيتها كتير قوى
معلش مرة كمان والنبى.

بصوا بقى، فى يوم وأنا كده مش شايفة قدامى، من التلوث ومن الحر كنت عايزة فيلم الباب المفتوح بتاع "فاتن حمامة"، المهم إنى كنت عايزاه بترجمة إنجليزى علشان هنعرضه لناس أجانب. الناس المثقفين اللى زى حضراتكم كده - والله ما يتخيروا عنكم، ده حتى إنتم أحسن منهم مليون مرة - قالوا لى إن مكتبة الديوان اللى فى الزمالك هى اللى فيها كل الحاجات دى. المشكلة إنى مش باحب المكتبة دى خالص، بصراحة باحس فيها بالدونية، آه والله، بالاقى نفسى تخينة وعبيطة وكمان مفلسة، ماطولش عليكم، رحت ومعايا واحدة صاحبتى. قلت برضه أهه أنزل من العربية وكأنها هى السواق علشان بس الإحساس بالدونية مايبقاش عالى قوى. دخلت واشتريت الفيلم ودفعت تمانين جنيه باتحسر عليهم لحد دلوقت.

طلعت لقيت صاحبتى دى متنحة على الآخر، مالك يا بنتى؟ ما كنت كويسة، قالت لى إنها شافت مشهد فظيع، كأن القاهرة دى سينما شغالة أربعة وعشرين ساعة. كان فيه شاب ماشى عريان فى الشارع وبعدين العسكرى جاله، من هنا لهنا طلع الواد مضيع خالص، واحد اداله بنطلون قديم وصاحبتى دى كان معاها قميص أسود علشان كانت رايحة تعزى بالليل، راحت مطلعة القميص وادتهولە. وبعدين الناس أخدوه على الجامع علشان يلبس ويغسل وشه. أتارى السايس اللى فى الشارع واحنا ماشيين قعد يقول لها: "ربنا يبارك فيك والله". ابتدا كل جنيه من اللى دفعتهم فى الفيلم يشوكى، باقول لكم إيه مش عايزة تعليقات من إياها، خدوها من باب الاشتراكية بتاعتكم.

المهم رحت بعد كده النادى اليونانى كان عندى ميعاد هناك مع كاتب لسه متعرفة عليه. كاتب هايل ومثقف قوى، متخصص فى التاريخ، راجل محترم خالص. مش عارفة إيه اللى خلّى الراجل ده فجأة يسيب الشغل ويتكلم عن نفسه، المصيبة إنه بالصدفة كان قاعد معانا واحدة جوزها لسه ميت وقال إيه بنحاول نرفه عنها. الراجل ده فجأة وبدون مقدمات ابتدا يحكى إنه فى لحظة من حياته كانوا هيودوه مستشفى الأمراض العصبية.

ترد "غادة": "اسمها مستشفى المجانين يا سارة، اختصرى"..

إنت اللى مجنونة، المهم بيقول إنه مر بأزمة نفسية فظيعة كانت هتوصله للمستشفى بتاعة "غادة" بس هو قدر يضحك على الدكتور وأقنعه إنه عاقل جداً. ومن ساعتها ماقيش حاجة قدر يتغلب بيها على أزمته غير القطط. وهو مروح فى ليلة متأخر قوى لقى قط بينوبو وكأنه محتاج له، دخله البيت ومن يومها والقط ماطلعش. والقط جاب قط جاب قط جاب قط، وأصبحت حياته كلها بتدور حوالين القطط، هم دول الكائنات اللى حسسوه إن فيه حد عايزه. القط الأولانى خالص فضل قاعد لحد ما فى يوم الفضول خلاه يطلع الشارع والنهاية العادية طبعا علشان نفضل نخبط دماغنا فى الحيط للصبح إن فيه عربية ضربت القط فمات. مش بيقولوا الفضول قتل القطة. بس وعنها وقعدت أعيط والست اللى جوزها مات قعدت تهدينى وتقول لى: "إيه بس يا سارة؟" وأنا كنت هاموت من الكسوف، بس ماكنتش عارفة أوقف عياط خالص. النتيجة يعنى إن أنا والراجل ده أصحاب جداً دلوقت وكمان روّحت الساعة أربعة الصبح وإن شاء الله أمى هتطردنى قريب قوى.

تكرار

نتجمع فى وسط المدينة.. وسط القاهرة.. ننتظر، كل فرد يأتى بحكاية، كل فرد يأتى بمشكلة أكبر منا جميعاً، يأتى بمأساة، لا أذكر كيف كنا نتغلب عليها ونغادر إلى منازلنا وننساها فى اليوم التالى. كل فرد يجلس على المنضدة ومحموله لا يتوقف عن الرنين ليحمل أكثر الأخبار كآبة وهماً ونكداً، فلان اعتقل، فلان مصاب بالسرطان، فلان لا يجد مكاناً للمبيت.. فلانة ماتت.. ونسى ونسى ونسى، والحكايات الآنية أقوى والغلبة للقوة. تغادر "غادة" المنزل بسبب مشاجرة عائلية جماعية، تحصل "نهى" على الطلاق ولا تجد سوى جين أبيض انتهت صلاحيته منذ زمن، "جميلة" تعرج بوضوح لازدياد نسبة السكر لديها، "شهاب" يبكى من أجل أصدقاء احترقوا، "كمال" مريض دائماً وملازم للسرير، و"سميرة" لا تنام دون المهدئ لكى تنسى مشاهد عملها فى التأمين الصحى ولكى تستعين على السفر الآتى. "سمر" غابت فى مأساة الحريق تحاول إطفاء النار بكلمات فضائية، "هاجر" تعيش أغرب الحالات التى تضحك فيها تارة ثم تبكى، "مجدى" اختفى تماماً بالإضافة لغياب "مصطفى" من التوقعات، و"معز" لا ينكر فى الكلمة مرتين قبل أن ينطقها فتخرج كالسهام الحارة الموجعة، و"سارة" تتأمل وتصمت حتى يغلبها النوم فتعلن علينا جملتها الشهيرة "أمى هتطردنى من

البيت". لم تطردها أمها أبداً. ولم نغادر وسط المدينة أبداً. كان الأمر مبرراً بالنسبة لى فأنا أسكن هناك، لكن الحقيقة هى أن وسط المدينة بضجيجها وعشوائيتها وتدنى ألفاظ شوارعها وعجائبها فى آخر الليالى وغياب أى قانون عنها هو بالتحديد ما كان يشعرنا بالأمان. كل ما فيها منفر وغير مضمون، لكن يبدو أننا قررنا الالتصاق بما نعرفه ونفهمه.

أما أنا فقد كنت كمن أصابه صداع شديد فعصب رأسه بقطعة قماش طولية، وشد على رأسه حتى عجز النظر عن رؤية ما فى الجوانب. كنت أرى ما أمامى بصعوبة، كنت متكئة على فكرة الضيافة، أنا ضيفة على القاهرة وفى القاهرة.. لا حرج على الضيف ولا المجنون ولا المريض. متخلصة كنت من فكرة التورط فى المشاعر.. كيف تمكنت من القيام بهذا الإنجاز؟ كيف تمكنت من التواجد والغياب؟ هل كنت كاذبة إلى هذا الحد أم صادقة إلى هذه الدرجة؟ كيف توهمت فى لحظة أننى محتفظة بالمسافة المتفق عليها؟ كيف صدقت حياد القاهرة وكيف سلمت أنها ستتركنى لشأنى؟ كيف كنت منغمسة تماما وفى نفس الوقت لم أتمكن من اقتحام ذاك الحاجز الذى يشبه زلال البيض؟ أيهما كان أصدق، وأيهما كان أنا؟

فى آخر الليل أجلس على كرسى المقهى بوسط المدينة وأبدأ سلسلة من المحاولات الفاشلة لايجاد أفضل وضع للجلوس. أنحنى أمامى بكل جزعى

العلوى وأشبك كفى أسفل ذقنى ثم أعود إلى الخلف وأستند بظهرى إلى الكرسى وأضع ساقا على ساق ثم أتململ كثيرا ثم أنسى الموضوع كله لأن المنضدة تعلن فى كل لحظة أنها ستنهار بكل ما تحمله. أبدأ سلسلة أخرى من محاولات فاشلة لإنقاذ المنضدة فأحول علبة السجائر الفارغة إلى مربع صغير سميك لأكتشف أن قاعدة المنضدة لا علاقة لها بالأمر لكنه القائم نفسه. أهمل كل شىء وأبدأ متابعتى اليومية لعم "محمد" وتم حسن". عم "محمد" رجل طويل وعريض فى بداية الخمسينات أو منتصفها أو آخرها، القاهرة لا تسمح بالتحديد تماما. يصل عم "محمد" إلى المكان وهو يرتدى بنطلونا جينز وقميصا وسويتر وبعد دقائق يظهر فى الجلباب والطاقية وتتغير نبرة صوته لتلائم تحضير الشيشة وتغيير أحجار المعسل و"اضبط الولعة يا عم محمد". يتعمد عم "محمد" أن ينادينا بأسمائنا وأن ينظر لنا نظرات مطولة وأن يتطوع بتعليقات تشى بأنه يعرف أكثر مما ينبغى، وبعد حجر المعسل السادس تبدأ محاولات الاستطراف غير المحتملة. "حساب الشيشة والنبى يا عم محمد" "مية وتلاتين جنيه بس". نكتة كل يوم، كل يوم، كل يوم، كعمتى تماما وتأنيبها لنا على أكل القشدة. ضحكنا مرغمين أول مرة ثم توقفنا جميعاً، وتواطأنا ألا نعلق على سخف عم "محمد" وثقل روحه التى تحاول الخروج من مكانها لتعيش فى مكان آخر لا تملكه. لسبب ما يقرر عم "محمد" أن يبدأ مسلسل الاستطراف مع "شهاب"، و"شهاب" يبتسم مرغماً ولا يرد مطلقاً، فقط يتزلق فى الكرسى، حتى جاء اليوم الذى **قرر**

فيه "شهاب" أن يعلن عن رأيه، فقال لى بصوت منخفض وكأنه سر عظيم "بصراحة يا عيشة عم محمد باخ قوى"، وعندما البساطة أجبته "أنا باكره عم محمد". الذهول والفرحة على وجه "شهاب" أرسلانى فى نوبة ضحك. كان "شهاب" يعتقد أننى أحب عم "محمد" لأننى دائماً ما أرد على تعليقاته وأتحمل سخفه. لم ينتبه "شهاب" أننى أتحمل سخف البشر كلهم واستظرافهم وتعليقاتهم ومبالغاتهم وخيالاتهم دون أن أعلق. لم ينتبه أننى أتعامل مع عم "محمد" من خلف حاجز زلالى لا يسمح بوصول رذاذ سخفه لروحى. حاجز يمنعنى حتى أن أنتبه لكل ما يتفوه به عم "محمد".

الحاجز الزلالى منعنى أن أصرخ فى "شهاب" وأنهره لكى يتوجه فوراً إلى حضن أمه، فلا مكان له فى أحضاننا ونحن البؤساء أكثر منه، أن أصفع "سميرة" وأمنعها من السفر، أن أعاتب "نهى" لتكون أكثر شجاعة فى مواجهة طلاق أرادته ولم ترده، أن أقول لـ"معز" كفاك قسوة فالقاهرة لا تحب هذه الصراحة، أن ألكم "هاجر" فى أنفها لكمة تسيل بعدها الدماء لتفيق من كل الهواجس التى تحتل رأسها، أن أصرخ فى "سمر" لكى لا تختبئ خلف شاشة، أن أكمم فم "سارة" وأمنعها من الحكى المستمر، أن أهز "غادة" بقوة لتعيد التفكير فى هذا الزواج الذى يشبه المعلبات، ولكى تنفض الانتظار الذى أوشك أن يخنقها. كل مربوط فى حالته ولا يريد أن يغادرها، الخوف مما لا نعرفه يمنعنا من الحركة، شىء ما يدفعنا للحركة لكن

ما هو أقوى يثبتنا فى أماكننا. نحاول فتأتى الحركة بطيئة وكأن العقل سقط **فى** وعاء صمغ يحاول أن يتخلص منه، نحاول أن نعيد الصياغة فتأتى أصواتنا **متحشرجة** وجملنا ملتبسة مليئة بأخطاء نحوية، تتداخل الأصوات مع **الحكايات** ولا يبقى سوى حكايات "سارة" ذات البداية والنهاية التى تجندل **دائماً** لتقطع القاهرة إلى مشاهد ميكية. مشاهد تتفق سراً أن تحولها إلى **كوميديا**.

أعرف أن "سارة" متألمة من قرار الزواج المفاجئ الذى أعلنته "غادة"، **القلق** يكاد يأكل قلبها، ولكن "سارة" لا تعلن مشاعرها مطلقاً فتلجأ للحكى **الذى** تختفى به. عندما انتقلت بجانب "غادة" أدركت أنها لن تتركها فى سلام تلك الليلة. وبدأت:

- هو بيشتغل إيه يا "غادة"؟

- هو مين؟

- مين يعنى إيه؟ "روميو" اللى هتتجوزيه يوم ٢٦ أكتوبر الموافق أربع بتاع العروسة اللى على بيت أبوها ترجع.

- بطلى استهبال يا "سارة" مش ناقصاك والنبى، قلت لك مليون مرة دكتور باطنة.

- مش ناقصانى ليه؟ هو فيه إيه؟ المفروض تكونى فرحانة مش مغمومة طول الوقت كده وعاملة زى عذراء الصخور. وبعدين هو مابيجيش معاكِ ليه؟ قرفان منا ولا خايف يتعدى؟

لم تتمالك "غادة" نفسها من الضحك وهو ما شجع "سارة":

- أصلى عايزة أحكى لك قصة حصلت لابن خالتى تقطس من الضحك و...

- "سارة"! ارحمينى شوية!

- اسمعى بس يا "غادة"، يا أختى أنا مبسوطة عشانك بس لازم تعرفى إنت داخلة على إيه. علشان لما فى يوم من ذات الأيام تلاقى جثة جانبك على السرير ماتتخضيش.

ارتعدت "غادة" وصرخت "جثة؟" وانفجرت أنا من الضحك لدى رؤيتى فزع "غادة".

- اسمعى بقى، ماهو لو سمعتى هتفهمى. ابن خالتى ده راجل محترم قد الدنيا زى ما كلكم عارفين. عادى يعنى العيلة كلها محترمة قوى وبتجيب الخضار من السوق بالعربية المرسيدس..

تزوم "غادة": "اختصرى يا سارة. عارفين إنكم محترمين يا محدثة". تضحك "سارة":

- طيب ما إنت كويسة وبتهزرى أهو، إمال ليه عاملة زى عذراء الصخور؟ المهم ابن خالتى لما كان لسه طالب فى كلية الطب كانت عدة

الشغل حتت من جثث على شوية عضم. العضم يشتروه والجثث يأجروها بالحتة من عامل المشرحة. قوم إيه يا "غادة"، خليكِ معايا علشان ده الجزء المهم، راح أجر إيد ورجل.

أوشك وجه "غادة" أن يتحول إلى اللون الأبيض، "حرام عليكِ يا سارة، إيه اللى بتحكيه ده؟" تقلد "سارة" صوت "يوسف وهبى" وتقول "هيه..دنيا". تبدأ "غادة" فى لكمها فى كتفها وهى تقول "بس.. بس.. هى جوازة باينة من أولها". تتدخل "سميرة" وتؤكد كلام "سارة": "أنا سمعت قصص زى دى مليون مرة من الدكاترة فى التأمين الصحى".

- يا "غادة" والله مش بألف، اسألى أى حد كان فى كلية الطب هيقول لك نفس الكلام. سيبينى أكمل. باقول لك راح أجر إيد ورجل ودفع للعامل فى المشرحة أربعين جنيه. خدهم على البيت وحطهم فى أوضته وقرر يمهد لخالتى الموضوع علشان الشهقة والصوات والتحابيش إياها. راح لها المطبخ وفضل يمهد ويمهد ويمهد لغاية ما فهمت، وراحت خابطة على صدرها وقايلة "يا نصيبتى"، بالنون مش بالميم، باقول لكم احنا ناس هاى قوى، ما هى خالتى دى برضه بتقول جرنان وسيلما وبرنجان. قعد يحاول يفهمها إن ده عادى وكل زمايله بيعملوا كده، وإن الحاجات اللى فى الأوضة مش مصحصة، لأ دى مفتوحة ومسلوخة ومتنضفة ومشفية. آخر ما غلب

معاها ابتدا يبتزها ويقول لها "يعنى عايزانى أسقط يا ماما؟" قلبها رق وحن ورضيت بالأمر الواقع، وعنها راحت سألاه حتة دين سؤال: "ودى جثث مين يا حبيبى؟" قرر الدكتور المحترم يكون قانونى جداً وقال لها إن دى جثث اللى بموتوا ومش بايين لهم صاحب ولا معروف هم مين. وعنها يا حبيبتى إلا خالتى مصممة إن دى أكيد جثة الست اللى فضلت قاعدة في الشارع تحت بيتهم عشر سنين وبعدين فجأة اختفت. دى كانت ست شربات، خالتى تنزل لها عيش وجبنة تقوم تبص لها بمنتهى القرف وتقول لها: "ما عرفتيش تقلبيها فى حتة سمنة؟"

- إيه يا "سارة"، بقيتِ عاملة زى الراديو، بما إننا لازم نسمع كمان الحكاية الأولانية.

- على طول كاسرة خاطرى كده يا "سميرة". راحت خالتى ماسكة التليفون وحكت الحكاية لللى تعرفه واللى ماتعرفوش، وتشوح وتقول لهم: "أعمل إيه، الست معاشرينها عشر سنين وآخرة المتمة يقطعوها حتت ويجيبوها البيت". حاول ابن خالتى ينقذ أى حاجة بس على مين، هو يجى حاجة فى خالتى، لو أنا راديو، خالتى إذاعة بحالها. كل اللى سمع الحكاية من خالتى يقول لها: "حرام، ده إنتم على النار حدف، الأرواح تزعل، شوف آخرة اللى آدم، والله الدكاترة دول جزارين...". وبعدين بعد كل ده يقولوا لها: "معلش علشان خاطر الواد يشوف مستقبله، هيعمل إيه، حكم القوى، غصب عنه". تعيط وتنف وتسأل بغلب "طيب أعمل إيه؟ أدبح

ولا إيه؟" معرفش بقى فى الآخر كان إيه الاتفاق بس هى قالت إن شيخ قال لها تصلى خمسين ركعة وتستغفر خمس آلاف مرة. صلت الخمسين ركعة، وابتدت فى الخمس آلاف، عملت ألفين وبعدين تعبت فابتدت تسأل "هو أنا استغفرت كام مرة يا ولاد؟ تلات آلاف ولا أربعة؟" إنت بقى يا "غادة" لازم تستغفرى عشر آلاف مرة علشان ربنا يقبل منك ويعفى عنك.

دخلت "جميلة" ولم ننتبه لها لإفراطنا فى الضحك. عندما رأيتها تعرج كدت أصرخ وتمالكت نفسى، كدت أبكى وحبست دموعى. أفظع الأشياء هى أن تتركهم أصحاء يضحكون فتعود لتجدهم مرضى يعرجون. كل الأشياء يمكن، بل من المحتمل جداً، أن تحدث ونحن غائبون. الأصدقاء يمرضون، يقعون فى الحب، يموت أحباؤهم، يبكون قهراً، يتوقون للمسة جسد دافئ، يحزنون، يكتئبون، يحتفلون، يتظاهرون، يوقعون على بيانات، يذهبون للعمل، يطردون من العمل، يعانون الفلس المزمن، يغادرون، يقصون شعورهم، يكتسبون وزناً زائداً، يختلفون، يكتبون، يرسمون، يأكلون من الشارع، يبتاعون سندويتشات من زيزو النتن، يقرأون الصحف والكتب، ويتواصلون عبر النكات، يغضبون، ويتذكرون الغائب.. أحياناً. سيعود الغائب وعليه اللحاق بكل ما فاته، عليه ألا يبدى أى جزع من النجوات التى سينزلق فيها، واللحظات التى سيضحك فيها الكل إلا هو، والقصص

التى سيحاول تجميع أطرافها، على الغائب أن يتظاهر أنه لم يكن غائباً قط.
على الغائب أن يمحو غيابه تماماً. اذكر القاهرة تذكرك.. غب عنها تنسك.

ذاكرة هزيمة

يقترب ميعاد الرحيل، وتتحول الأيام القليلة الباقية فى القاهرة إلى لقاءات وداع، و"سارة" تتهكم "أنا زهقت يا عيشة، حياتى تحولت لمسلسل طويل من استقبال الست عيشة وبعد شوية نودعها، وبعد شهر ترجعى تانى ونبتدى من أول وجديد". أشيح بوجهى عندما أدركت أن "سارة" محقة. وكأننى أختبر بعض الحب، أتأكد من سلامته وعدم انتهاء صلاحيته. نحتاج إلى أدلة إثبات طوال الوقت لنثبت فكرة أن الآخر يحتاجنا فى حياته، ربما بعض الوقت، ربما أحياناً، ربما فى هذه اللحظة فقط.

قبل السابعة بقليل يدق جرس الباب، دعوت الجميع لقضاء الليلة معى بمنزلى، ووعدتهم أن أطهو. أعشق الطهى وأطالب بالثمن مباشرة، بمجرد أن يضع الشخص أول ملعقة فى فمه أسأل "هه.. حلو؟" تدخل "سارة" وتشى كل معالم وجهها أنها ليست بخير. أسألها عن الباقين فتقول:

- ماعرفش، ومش طايقة حد منهم.
- مالك؟ ما كنت كويسة الصبح.
- ده كان الصبح، وبعدين أنا كلمتك بعدها وتليفونك كان مقفول.
- كنت فى اجتماع، هو فى إيه؟ مصيبة شوية زيادة؟

- كلمت أبلة الناظرة "نهى" بعد أول جملة تقول لى: "باقول لك يا "سارة" أنا عايزة أرفع قضية على وزارة الشئون الاجتماعية، طيروا فلوس المعاشات فى البلى باى"، أكلم التانية الست "سميرة" تقول لى: "والله كنت بافكر فيك يا سارة، عايزة أرفع قضية على هيئة التأمين الصحى علشان هيخصخصوا التأمين". دول جابوا لى الضغط، مش طايقة سيرتهم حتى.

يدق الجرس وتدخل "نهى" وقبل أن تجلس تصل "سميرة". والسؤال المعتاد "مالك يا "سارة" مكشرة عن أنيابك ليه؟" أتدخل سريعاً لأمنع لسان "سارة" من الانفلات، "عايزين البت ترفع قضايا على مؤسسات الدولة كلها؟ ده ماكانش حد غلب". تنطلق "نهى" فى شرح موضوع سرقة المعاشات، وتؤكد: "دى معاشات الأرامل، بيسرقوها!" وتضيف "سميرة": "يا عيشة التأمين الصحى مهم جداً للناس، لما يعملوه بفلوس الناس هتموت بجد، الفقر خلاص بينخر فى عضم البلد". اشتبكنا فى نقاش طويل حول المعاشات والتأمين الصحى والخصخصة، وبدأت "نهى" تخرج من جعبتها أرقاماً وإحصائيات، ولم نلحظ أن صوت "سارة" اختفى، وبعد قليل اختفت هى نفسها. قمت أبحث عنها فوجدتها جالسة أمام التليفزيون:

- إنت جاية تقعدى معايا ولا تتفرجى على التليفزيون؟

- لأ، جاية أسمع محاضرات دمها زى السم عن الفقر، من فاس ماعندهمش دم.

الليلة لن تمر بسلام، والجملة اخترقت مسامع "نهى" و"سميرة" اللتين وقفتا على باب الحجرة، وبادرت "نهى":

- هو انا كفرت يا "سارة" لما طلبت منك تسألى عن القضية؟ إنت واخدة الموضوع شخصى كده ليه؟ تكونيش إنت اللى سرقت فلوس المعاشات؟

- آه، أصلى باقسم معاهم بالليل.

- مالك؟ أنا مش فاهمة إيه اللى ضايقك فى الموضوع؟ لسانك أعوذ بالله منه.

- أبوه أنا لسانى أعوذ بالله منه.

تحاول "سميرة" وتفشل:

- يا ساتر عليك يا "سارة" لما تقلبى مرة واحدة.

- أبوه أنا يا ساتر على لما أقلب.

بلهجة حازمة ووجه جاد أقول:

- "سارة" إيه شغل العيال ده؟ ما تقولى فى إيه وتخلصينا. احنا هنفضل نحايل فيك طول الليل ولا إيه؟ مافيش حد ناقص الله يرضى عليك. ده موسم أفلام قوية قوى.

وكانت المفاجأة. أجهشت "سارة" بالبكاء بدون مقدمات، هبط علينا الذهول. كانت المرة الثانية التي أرى فيها "سارة" بهذه الحالة. بكت منذ عام بحرقة على موت قطتها. هل ماتت القطة الأخرى؟ تبدأ "نهى" البحث في حقيبتها عن شيء وهمي، وتقدم "سميرة" لها منديلا، ترميه "سارة" بعنف فيتطاير في الهواء. أراقب حركة المنديل المتموجة وأبحث عن مخرج واحد لهذا الموقف. بعد ثوانٍ تلتقط "سارة" المنديل من على الأرض وتمسح وجهها، فتنفلت من "سميرة" الجملة الخاطئة: "ما كان من الأول". كانت "سارة" تنتظر جملة، أي جملة لتنفجر:

- ما تقولي لنفسك، لما كلمتك الصبح إن كان إنت ولا هي قعدت كل واحدة فيكم تديني درس عن الفقر والغلابة، والإصلاح والاقتصاد، والمهلبية بتاعتكم، ومافيش واحدة سألت نفسها ولا حتى سألتني أنا كنت باتكلم ليه. من إمتى كنت باكلمكم وأنا في الشغل. هو أنا باقعد على المكتب خمس دقايق على بعض. واحدة خايفة على التأمين أبو فلوس والتانية بتفكر في فلوس المعاشات، مافكرتوش بقى إن أنا كنت باتكلم علشان عايزة فلوس، على أساس إن الفلوس باجيبها من المطبعة دليفري، هي والساندويتشات.

يتملك الحرج كلا من "نهى" و"سميرة"، وتبدأ كل واحدة في محاولة صياغة جمل مفككة غير مترابطة، حتى تجد "سميرة" ما تقوله:

- كنت لازم تقولي من نفسك يا "سارة"، الواحد ساعات بيبقى نايه ومش دريان بنفسه، أنا معايا ميتين وخمسين جنيه، نقسمهم مع بعض.

تتشجع "نهى":

- أنا أفقر شوية، معايا مية ستة وتمانين جنيه، مش هاقسمهم قوى، هاديك الستة وتمانين. بعد كده تبقى تقولي يا حمارة على طول إنك مزنوقة. وبعدين ماتحمليش هم، "عيشة" هتدينا كلنا باليورو، مش كده يا "عيشة"؟

و"سارة" لا تعتبر ذلك ترضية ملائمة، وتبدأ في كريشندو تصاعدي:

- أقول إيه بقى، مايصحش الواحد يعبر عن احتياجاته التافهة جنب الهم العام السياسي العميق، مايصحش أقول لكم إن الميكانيكي حاجز عربيتي عنده مش راضي يديها لي إلا لما أدفع الفلوس كلها، مايصحش أقول لكم إن على له ستين جنيه ماكانوش معايا، وإني محتاجة العربية علشان أمي عايزة تطلع القرافة بكرة في سنوية أبويا، وإن معنديش فلوس أركبها تاكسي. حاجات تافهة جنب هموم ومشاكل الشعب والجماهير اللي مستنية كل واحدة فيكم تحت بيتها يا حرام. اللي غايظني أكتر إن أنا لما حكيت قبل كده عن الولد بتاع الفرقة اللي طلع عنده ربو، كل واحدة فيكم قعدت تقول لي: "الدنيا مليانة من ده يا سارة"، "احنا لو حكينا هنقعد للسنة الجاية"، "اللي آدم مالوش تمن يا سارة"، ربنا ياخد "سارة". دلوقت بقيتم مهتمين بالبشرية كلها، ازاي يعني؟ إذا كان واحد.. واحد بس ماكانش عندكم حاجة تعملوها علشانه! دي حاجة تقرف.

وبدأت دموع "سارة" التى لم تكن قد توقفت تماماً فى الإعلان عن نفسها بجلاء مرة أخرى. فى هذه اللحظة كنت قد تأكدت أننى لا أريد السفر، أريد البقاء بكل قوتى، ولم أفق إلا على "سارة" التى كانت تقرص "سميرة" فى ذراعها عندما قالت لها: "يوسف وهبى بعت لى جواب يا "سارة" ويقول إنه غيران منك قوى". تعود "سارة" تدريجياً لطبيعتها وتقول لـ"سميرة": "والله فى أم قويق اللى إنت رايحاها دى مش هتلاقى ولا ربع "سارة"، هتتحسرى وتقولى يوم من أيامك يا سارة". بدأت "نهى" تخبط كفاً بكف وتقول مستنكرة:

- يا حول الله يا رب، الحقى يا "عيشة" "سميرة" بتشارك "سارة" بكل حماس. العيال اتجننت الليلة دى.

عندما تبكى "سميرة" لا تتغير نبرة صوتها مطلقاً ولا ملامح وجهها، فقط تسيل دموعها بغزارة. الليلة ليلة مكاشفة إذن. تهدلت أقنعة التماسك وبدت وجوهنا قبيحة بداخلها. أربت على كتف "سميرة": "فى إيه إنت كمان؟" وتنطلق "سميرة" فى شبه عويل "مش عايزة أسا...فر". أعيد وضع الماسك وأثبته، "السفر ده بلوة جبناها لروحنا، أنا كمان مش متحمسة للسفر، خلاص يا "سميرة" هى سنة تعدى بالطول ولا بالعرض". تقوم "سارة" من على السرير لتفتح الباب وهى تبرطم لنفسها: "ولا بالورب حتى". أسمع جلبة عند الباب أميز بصعوبة فيها صوت "غادة". تدخل "غادة" وخلفها "سارة"، كان شكلها غريباً وهى تضع نظارة شمس زرقاء على عينيها،

اعتدت على هذه التصرفات الجنونية من "غادة"، لكنها كانت قد توقفت من مدة، واندمجت فى تفاصيل الإعداد للزواج. تبادرها "سارة" فوراً:

- والله يا "غادة" لو أى شركة عايزة تعمل إعلان ضد الجواز يحطو الكاميرا على وشك بس، ويكتبوا "بدون تعليق". وإيه النظارة اللى إنت قاعدة وراها دى، ده لزوم التخفى من المعجبين ولا إيه. آه طبعاً الشهر تمنها غالى.

تضحك وتتجه "سميرة" نحو "غادة" وتنظر لـ"سارة": "صوتك طلع هوا ماقدرتيش تضللى حزينة أكتر من نص ساعة". وبحركة مباغتة تنزع النظارة من على وجه "غادة" لتصدم بشكل عينيها المتورمتين! أجزع بشدة:

- إيه ده، ضرب ولا عياط؟

تضحك "سارة" وتقول:

- بتفكرينى بالموكلين بتوعى فى قضايا التعذيب، كل واحد أسأله قبل أى حاجة كهربا ولا كرباج. بس حلوة برضه ضرب ولا عياط دى.

تأخذ "نهى" "غادة" فى حضنها وتربت على كتفها فتهمس لى "سارة" بصوت مسرحى: "حنان الأبلة". ويبدو أن "غادة" سمعتها لأنها ابتسمت، فكانت فرصة لـ"سارة":

- هه، ماسمعتيش ستك "عيشة" وهى بتسألك ضرب ولا عياط. يلا ماتضيعيش وقت أبلة "نهى" علشان هتروح دلوقتى تسجن الحكومة الوحشة اللى بتسرق معاشات الأرامل.

تصرخ فيها "غادة":

- عياط يا زفتة. مش عارفة أتكلم مع "أحمد" خالص، كل مانناقش حاجة الموضوع يقلب خناقة على طول.

تهمس لى "سارة": "أحمد مين؟" أشير على مكان دبلة الزواج فى إصبعى، "آه، يا لهوى على ذاكرتى البطيخ". ألتفت لـ"غادة":

- مناقشة فى تفاصيل الجواز يعنى؟

- لأ يا "عيشة"، فى كل حاجة. هو فى دنيا وأنا فى دنيا تانية. كل لما أقول له حاجة يقول لى: "إيه الهيافة دى، إنت رايقة قوى". طول الوقت محسسنى إنى ولا حاجة. طيب ليه عرض على الجواز. أنا مش فاهمة حاجة خالص. النهاردة بقى قلت له كل واحد منا فى سكته، ويا دار ما دخلك شر.

تنهض "سارة" وهى تقول:

- مش قلت لك عروسة الأربع على بيت أبوها ترجع!

تقرر "سميرة" أن تخفف قليلاً عن "غادة"، فتجلس بجانبها وتضع ملامح الجدية وتبدأ:

- بصى يا "غادة" الناس كلها بتقول الأطفال أحباب الله، وفى هذا السياق أحب أضيف إن الرجالة كمان أحباب الله، لأن ربنا هو الوحيد اللى بيحبهم، دول كائنات عبيطة وغلبانة، أراهنك إنك لما عملتِ كده الدكتور "أحمد" ده كان مخضوض ومش فاهم حاجة، وأكيد قعد يقول:

"إيه... مين... فين.... ليه"، صح؟ وأكيد كمان حاول يطلعك مجنونة على طريقة "إنت حساسة كده ليه يا حبيبتى، إنت مكبرة الموضوع، إنت مكرونة بالبشاميل..."، صح؟

تضحك "غادة" وتؤكد: "ده بالحرف، كأنك كنت معانا".

تسألنا "سارة": "بمناسبة المكرونة، هناكل دلوقت ولا نستنى الجثث؟"

أضحك وتسألها "سميرة": "أنهى جثة فيهم، حددى، الجثث كتير"، أبدأ فى احضار الأطباق وأقول: "كمال عنده جرد فى الشركة ومش عارف هيخلص إمتى، و"شهاب" موبايله مقفول شكله فى اجتماع بيحضر للثورة، "جميلة" مش قادرة تسوق علشان ركبتها وارمة، "معز" على وصول خلاص". تسأل "سميرة": "طيب ومصطفى؟ مافيش أخبار منه؟"، ببساطة تجيب "سارة": "مصطفى مات!" تصرخ "غادة" بجزع: "مات؟! امتى؟" تلتفت لها "سارة": "سميرة عندها حق، أكيد خطيبك قال لك إنت أعظم مكرونة بالبشاميل يا حبيبتى، مات مجازاً يا ذكية. ما هو متلفح نايم على طول". بتنهيدة يأس تقول "غادة": "طيب وسمر؟"، بتنهيدة مماثلة تجيبها "سارة": "افتحى التليفزيون تلاقيها".

ذاكرة منهكة

وما الحياة إلا تكرار متكرر يتكرر تكراراً متكرراً قبيحاً. أعود إلى برلين منهكة من سهر القاهرة، أخرج من المطار وأقف أمام موقف التاكسي وبمنتهى البساطة أبدأ في نفض رأسي يميناً ويساراً كما تفعل الكلاب عندما تصيبها نقطة ماء، أحاول أن أنفض القاهرة من عقلي، أحاول إفساح مكان لبرلين في الذاكرة.. بالكاد يحصل البلد المؤقت على مكان في الخلفية، يسألني السائق في محاولة للتذاكي "توركيش أودر آرابيش؟" أجيب ووجهي يلتصق بالنافذة "إجيبتش" ووددت أن أقول "قاهيرش". ثم فهم فوراً عدم رغبتي في الكلام. لا أغادر السرير يوماً كاملاً، لم يكن إرهاق السفر بقدر ما كان إنهاك المشاعر، القاهرة قتلتني بحبها، "ألا أيها القوم النيام، هل يقتل الرجل الحب؟ نعم حتى يتركه حيرانا ليس له لب"...

هتوحشيني.

القاهرة من غيرك ملهاش طعم.

مسافرة ليه، طيب أجلي شوية.

لأ، مش معقولة وطيب واحنا هنعمل إيه؟

هو لازم تسافري يعني؟

هترجعى إمتى بقى يا "عيشة"؟
مش قادرة أصدق إنك هتسافرى تانى.

كان لابد أن أسافر وها أنا قد سافرت. سافرت ببساطة وبغصة فى الحلق، ربما نحن فى سفر دائم، لا نعلنه إلا عندما يتوجب علينا أن نحصل على أختام تضيف المزيد من النقوشات فى جواز السفر. سافرت إلى برلين لأنفض رأسى من القاهرة وأفشل. ننجح فى نفض الزوائد فقط، أما المتن فيبقى، بدونه نحن لا شىء، نحن القاهرة وما تضيفه من فلسفة سخيفة وضحكات مفتعلة وقصص حب بائتة هى الزوائد التى ننفضها من يوم لآخر.

سافرت لأعيد الكرة المتكررة بتكرار متكرر. سافرت لأكون فى قلب المكان وخارجه تماما. ومرة أخرى يحين ميعاد عيد ميلادك مرة أخرى يا "روضة". لست متأكدة إن كنت أشعر بالذنب أم أن دراميتك الفائضة هى التى جعلتنى على هذه الحال. ولا أجد ما أفعله سوى انتظار رسائل، سوى مكالمة لا تعنى أى شىء ما عدا ما قلته فيها "كل سنة وإنت طيبة". تصلنى رسالة من "هاجر": "روضة زى القمر وكله تمام"، يتبعها "كمال": "الناس كلها هنا وهى هتكلمك قبل الشمع". أحاول أن أحتفل مع نفسى فأهتدى إلى فكرة تأمل القمر قليلاً فى هدوء برلين لأدرك أن السحب تحجب القمر. وهكذا أنجح فى تملك هاجس يلهينى قليلاً عن غيابى عن عيد ميلادك،

لابد أن أرى القمر. ولأننى لم أجده فى السماء فقد وجدته على الورق، الحياة كلها ورق، نقرأه ونكتبه ثم نمزقه أو نتركه فريسة للغبار، مفكرة عجيبة تلك التى اشتريتها، بها كل الأعياد وكل التواريخ بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية ومرسوم بها كل مراحل القمر. يوم عيد ميلادك كان القمر محاقاً، إذن لم يخدعنى، هو لم يكن هناك بالفعل. غبطة خفيفة: أول مرة لا يخدعنى أحد.

يتوافق عيد الهالوين مع عيد ميلادك يا "روضة" وتصاب أوربا كلها بهستيريا، يحاولون طرد الشياطين باقتراض الحلوى وأكل القرع العسلى وارتداء أقنعة سوداء مرعبة، العالم كله محموس بطرد الشياطين، وكل له شياطينه ففى القاهرة يرانى الرجال ذوو اللحى شيطاناً أعظم ويطردوننى بالكثير من الآيات والأحاديث والاستغفار، أما شياطين البيت فنطردها بسورة البقرة وقليل من الماء المضاف إليه رجلة وعرق حلاوة. الشياطين الأوربية تبدو بأدوات طردها كوميدية: قرع عسلى وأقنعة حفلات تنكرية. كلما التفت فى الشارع أجد كل أشكال القرع العسلى، كبيرا وصغيرا، للزينة وللأكل، مع النباتات والأكلات، يتدلى من الأسقف والجدران.. الحياة قرع عسلى كبير.

أحاول الهروب من حصار القرع العسلى فأجلس على مقعد خشبى وأدخن سيجارة وأرقب المحلات على الناحية المقابلة. بإمكانى أن أهرب متى شئت من كل هذه البضاعة الاستهلاكية المهولة، وعند هذا اليقين يقع بصرى على أكبر قرع عسلى رابضة بهدوء وثقة عند مدخل محل. تملكنى غيظ شديد، وأبدأ فى تأمل هذا الشىء فى محاولة لفهم السحر الكامن به الذى يطرد الشياطين. أثبت نظرى عليه حتى يتلاشى كل شىء ولا يبقى سوى نقاط سوداء أمام نظرى، لا أتنازل ولا أشيح بنظرى ولا أغلق عينى، لابد أن هناك سراً ما فى هذا التحديق. غالباً ما يكمن السر فى تلك النقاط السوداء التى تتراقص أمامى الآن، هكذا يصر كل أصدقائى وأصدقاء أصدقائى وأصدقائهم، يكتبون فيرقدون على السرير ويتأملون النقطة السوداء بسقف الغرفة ويسترجعون كل الهواجس ويصرون أن عقلهم كان "فاضى خالص"، ثم يواصلون حياتهم بعد ذلك وكأن ما حدث كان جملة اعتراضية. لم يخبرنى أى منهم ما سر النقطة السوداء وأنا لم أسأل، ربما لأننى لا أنام على ظهرى، بل دائما على وجهى فى أول الليل ثم على جنبى اليسار فى بداية الحلم.

ذاكرة أول أول

انتهت سنواتك بالجامعة وبدأت صباحاتك تتعثر. نوم كثير وأكل أكثر ثم نوم ثم لا شىء. كنت أفهم الورطة التى وجدت نفسك فيها. لم تستعدى لهذا اليوم، كان الأمر كله معلقاً على شبه جملة: "لما أكبر عايزة أكون مخرجة". ها أنت قد كبرت وبدأت الورطة، تواطأنا جميعاً ولم نتكلم عن العمل. أنهيت دراستك منذ شهرين وربما تحتاجين إلى عامين لتجدى العمل الملائم. لم أتصور أنك ستجرين وراء حلمك بشراسة، حتى شهدت بنفسى كيف تتحول الأحلام إلى حقيقة، لأكون شاهدة على جزء من تاريخك، ولأحكى بعد عشرين سنة وأقول: "لما كانت صغيرة" وكأننى أعيد صياغة مفرداتك.

كنت متربعة على الأرض تقومين بقراءة الجريدة، فوجدتك تهتفين بفرح: "إيه ده؟ كامل زياد بيعمل فيلم". أخبرتنى أن "كامل" كان يعرفك وأنت طفلة، وأنه بالطبع لن يتذكرك الآن. حصلت على رقم هاتفه وببساطة طلب منك المجىء فى اليوم التالى لتنضمى لفريق المتدربين. فهمت بعد ذلك أن عدد المتدربين فى السينما مهول ولا مكان لموضع قدم. التزمت الصمت وقررت أن أتركك تصنعين أول ذاكرة فى العمل بمفردك تماماً. وبدأت أشهد

على التفاصيل، اختيار الزى المناسب، بنطلون أم جونلة، مساحيق خفيفة، شعر مصفف، أول جملة: "صباح الخير" أم "سلام عليكم"، وبدأت أنت تحاولين كسب حب من حولك لتشعرى بالأمان. فى اليوم الخامس بالتدريب نجحت أن تكونى طرفاً أساسياً فى ماكينة الفيلم وبدأت أزمتك الطاحنة.

كانت أيام عملك طويلة، وكانت مكالماتك لى كثيرة. تحكين لى كل التفاصيل، وأحياناً تبكين، وكل يوم بعد أن ينتهى يومك يكون لديك اليقين التام أنه سوف يتم الاستغناء عنك. نقص ثقة بالنفس، لم أرَ هذا لديك من قبل. كان مختبئاً هذا الرعب خلف كتب الجامعة وروايات "إيزابيلا الليندى" وفى الأحضان الواسعة التى قدمناها لك. كنت أنتظر كل حكاية منك بعد يومك الطويل لأؤكد لك أن هذا يعنى النجاح، وأنك بارعة فيما تفعلينه وأنك ستصلين حتماً. مع الوقت تمكنت من اجتياز هذه الأزمة. وظهرت الأزمة الثانية. كانت أيامك الطويلة فى العمل مفاجئة وصادمة لك. لم تترك لك تلك الأيام فرصة واحدة لمتابعة حياتنا التى تسير كما هى منذ سنوات. فكنت كمن ينزعونه نزعاً من مكان ليجد نفسه وقد ضل الطريق لأنه لا يملك خارطة. وبدأت محاولاتك المستميتة لتثبتى عدم غيابك، فتخرجين بعد انتهاء يومك الطويل، ومع كل كلمة تسمعينها تسألين: "هو إيه حصل؟ مين؟ فين؟ ليه؟" بل بدأ سلوكك يعبر عن تأنيب لى لأننى لم

أحكِ لك ما حدث. كان الذعر يسيطر عليك بسبب احساسك بأن العالم الآمن الذى عشت فيه يتسرب من بين يديك. ظللت تحاولين الإمساك بالعالمين، وكنت أعرف أنها مسألة وقت واعتياد ومرة أخرى لم أساعدك. أردت أن أدفعك إلى الخارج، هناك، حيث لا أمان ولا أحضان. أردتك أن تكبرى. تركتك تماماً لتفهمى معنى الاختيارات ولتحملى نفسك فى الدنيا الواسعة. كنت أكرر فقط أنك لابد أن تستمتعى، فأنت لم تحصلى على عمل فقط، بل حصلت على الحلم.

بعد انتهاء أحد تلك الأيام الطويلة، عدت إلى المنزل وأنت صامتة ووجهك مكفهر. أسألك عما بك فتقولين: "لأ، تعبانة بس". فهمت أن شيئاً ما حدث فى العمل.. إنك لا تريدين الحديث عنه. لم أقلق كثيراً فقد كانت معظم مشاكلك نابعة من عدم فهمك للدنيا الواسعة كما كنت تفهمين أصدقاء الجامعة. أردت فقط أن أذكرك بأهمية الاستمتاع والرضا عن الذات وعن المساحة الضئيلة الهامشية التى حصلنا عليها فيه. بدأت أحكى لك ما حدث أثناء اليوم بناء على طلبك المعتاد كل ليلة. وكانت قصة ذلك اليوم هى قصة "ابن نبوية". حاولت أن أتذكر عدد الجمعيات المالية التى شاركت فيها "نبوية" ليكمل ابنها تعليمه ولم أنجح. كان اختيار ابنها لقسم اليونانى واللاتينى يبدو غريباً بالنسبة لى. فالدراسة بهذا القسم رفاهية لا يقدر عليها سوى قلة. ما العمل الذى يحتاج إلى اليونانية القديمة أو اللاتينية الميتة؟ كان "محمد" قد

أعلن عن رغبته فى الالتحاق بهذا القسم وعندها أدركت أن من حقه أن يحلم. من حقنا جميعاً أن نحلم وأن نحقق قلة من أحلامنا. لكن "محمد" لم يتمكن حتى الآن من تحقيق أى شىء. تخرج ثم التحق بالجيش ليخدم وطنه ولكن الوطن لم يخدمه ولم يبالِ به. وبدأت رحلة مريرة لمحاولة الحصول على عمل. بعد عام كامل وجد إعلاناً بالجريدة عن وظيفة فرد أمن على باب شركة. تقدم للوظيفة ثم اكتشف أن مواعيد العمل تبدأ فى الثامنة صباحاً وتستمر حتى العاشرة مساء، سبعة أيام بالأسبوع والراتب مائتان وخمسون جنيه بالشهر. رفض "محمد" الوظيفة، فقد أراد أن يحصل على وظيفتين ليزيد دخله، ووجد أن هذا العمل سيقتل كل حياته التى كان بها طموحات تعلم كمبيوتر وإتقان اللغة الإنجليزية. كاد اليأس يفتك بـ"محمد، حتى إنه ختم المصحف عشرة مرات فى شهرين. وأخيراً عرض عليه جاره فرصة سفر للكويت، فأدرك "محمد" أن الله قد استجاب لدعواته ولدعوات أمه. جاءت "نبوية" فى ذلك اليوم وكانت تحكى بفرحة متوترة ممتزجة بخوف ظاهر عن فرصة السفر. سألتها عن الوظيفة التى سيقوم بها "محمد" هناك فقالت إنها لا تعرف وإن "محمد" نفسه لا يعرف. كل ما يعرفه "محمد" هو أن الراتب سيعادل ألفا وثلاثمائة جنيه ومن حقه زيارة مصر كل عامين. كانت مشكلة "نبوية" هى محاولة جمع المبلغ الذى تشترط الشركة دفعه قبل أى خطوة وهو سبعة آلاف وخمسمائة جنيه. حاولت أن أشرح لها أن هذه شركات نهب ونصب وأنه لا طائل من السفر. بدأت "نبوية" تبكى وتقول:

"هنعمل إيه بس؟ نعمل إيه؟ الواد عاطل من أربع سنين وتقسيته تعبانة قوى". وكانت الفكرة التى تشق عنها ذهن "نبوية" هى الفكرة المكررة فى كل بيت. بيع الأساور والسلسلة الذهب. نظرت إلى ما تسميه "سوما" أساور فوجدتها أسمك قليلاً من ورقة السيجارة، أما السلسلة فقد كانت رفيعة للغاية وبالكاد مرئية، وبالتأكيد لن تتجاوز قيمتها جميعاً ألف جنيه، هذا إذا افترضنا أنه ليس ذهب قشرة.

حكاية طويلة دفعت عضلات وجهك إلى الاسترخاء قليلاً ثم قلت: "الدنيا مليانة. أنا داخلة أنام علشان أروح بكرة الشغل وأنا فاضية لهم"..

تكرار

برلين مرة أخرى والجو البارد ونكات الأصدقاء من القاهرة "لسة بردانة؟" أو "يا عيشة يا بردانة، ازيك؟!" والبرد ينخر فى عظامى حتى آخر العمق، وتسمح أنفى لنفسها بالتصرف بكل حرية فى الشارع، ولا يسألنى أحد ما بى. أسخن وأبرد ثم أسخن ثم أسعل وأرقد فى السرير مع كل الوصفات التى تعلمتها والتى سمعتها، ليمون دافئ ثم أسبرين ثم عسل ثم نوم كثير وأكل كثير، وأحلام أكثر، ثم رغبة أن أشعر ملمس يد بشرية ولا أجد سوى الجدار المواجه لنظرى. غالباً لا أشعر بالرثاء لنفسى فى المرض كما يفعل الكثيرون ولا أفهم سبب شعورهم. فى المرض أتمنى أن تتجاهلنى الدنيا بأكملها ولحسن الحظ هو غالباً ما يحدث. هو غالباً ما يحدث لأننى لا أشتكى ولا أتذمر. أترك هذه المهمة للآخرين. بعد أن نشفى، دائماً ما نتساءل عما حدث لنا وعما مررنا به وكأنه - ذاك الحدث - كان فى عقود ماضية. أن أقع طريحة الفراش ليس بالنسبة لى إلا اختبار القدرة على البقاء وحيدة إلى الأبد، رهان قوة: من فينا الأقوى؟ المرض أم كرامة أجسادنا؟ تتحول الحياة إلى معطف مغلق من كل الجوانب، بدون أزرار، بدون أى فتحات، قطعة واحدة وأنا بداخلها، لا مؤثرات ولا منغصات، مرض كامل غير منقوص،

مرض تام، كحجر الجمشت المشطوف الذى يفتقد كل الخشونة اللازمة والتعرجات العشوائية والنهايات المدببة ليكون حجرا أصلياً.

أغرق فى حرارة المرض ولا أبالى بكمية العرق التى لا أشم رائحتها بسبب أنفى المغلق فى وجه كل روائح العالم. أترنح فى المنطقة بين السرير والمطبخ ولا أهتم بالتوقف عن التدخين. أحمل كوب القهوة وأعود إلى السرير وأسرح بخيالى فى القاهرة التى تركت شوارعها مكسية بلافتات بعضها عبثى، قاهرة تستعد لبرلمان جديد، قاهرة تموج بمرشحين يجلسون بكرسى تلاحقه كاميرات الفضائيات، منهم من يريده للوجاهة ومنهم من يريده لتسهيل عمليات السرقة ومنهم من يريده للبلطجة وقليل يريده ليعتذر للقاهرة وليعتنى بها قليلاً ويهمس لها بالكثير مما لم يقله أحد من قبل.

تعود الشاشة التكنولوجية الصغيرة لتحتل مكان الصدارة فى يومى، تتداخل الأسطر والحروف وتختلط على الأسماء وأقاوم إغراء الارتماء على السرير. أرتمى عليه فى النهاية وكأننى قفة ملابس محترقة ألقيت من نافذة فى الدور السابع. يختلط الليل والنهار وكلما أستيقظ أعود إلى مكانى أمام الشاشة، كلها محاولات مستميتة للشفاء قبل ميعاد مكالمة أمى يوم الجمعة. كنت أستميت فى المتابعة. الانقطاع والانفصال هما علامة الفراق، وأنا خبيرة فى الفراق. يبدأ الأمر بألا نسأل ثم يتطور أن ننسى ثم يتحول إلى

عبء فى يومنا نحاول التخلص منه لإعطاء الوقت لأمور أخرى، ثم نؤكد أننا مهتمون لكنها مسألة وقت والانشغال والحقيقة أننا ندرك فى تلك اللحظة تماماً أننا نعانى من فقدان الرغبة، فقدان الاهتمام، تماماً كما تنتهى العلاقات. لكننا لا نواجه الانتهاء حتى لو أردناه، كبرنا كثيراً فلم نعد نتحمل فقداً جديداً حتى لو كان ذلك يعنى العذاب المستمر. انتهاء العلاقة بالقاهرة يختلف عن كل هذا، لأنه يعنى انتهاء حياة بأكملها، وهذا ما يعرفه كل المهاجرين، يعرفون أن حياتهم انتهت هناك فيعبدون تشييدها هنا، الفول المدمس والطعمية والأكل المصرى المختلط بنكهة ألمانية والتأكيد أن الطيور فى برلين أفضل من الطيور فى مصر وأن الخبز أفضل وأن الحليب أنظف وأن السمك أنظف، والبحث عمن يشبههم ودعوات إفطار رمضان التى لا تنقطع والتين الشوكى المعلب والجامع التركى والليالى العربية وأغانى الشيخ "إمام". يستمع صديقى المغربى لأغنية "شيد قصورك" ويسرح بعيداً ويقول: "كانت هذه الأغنية ترسلنا فى نوبات هيستيرية أيام الجامعة. إنتم ما تسمعون الشيخ "إمام" فى مصر؟" كانت محنتى طوال الوقت أن أبتعد عن كل هذه الأوطان المتخيلة، لن أستبدل قاهرتى بقاهرة معلبة. ويلح السؤال، هل نعود دائماً إلى نفس المكان؟ أم نسافر كالناس ولا نعود إلى أى شىء؟

كان أغرب إحساس هو أن أتابع صراع الفصائل السياسية المختلفة على الشاشة، كنت كهؤلاء الشباب الذين يجلسون أمام شاشات فى مقاهى

الألعاب الإلكترونية، ويصارعون عدواً وهمياً توفره لهم التكنولوجيا. كنت كـ"شهاب" الذى يصارع أعداء وهميين على شاشة تليفونه المحمول، وينغمس تماماً فيما يفعله ولا يعير النقاش اهتماماً، ثم تنفرج أساريره فجأة: "كسبت". كنت ككل من فى القاهرة أتابع معارك وهمية لا تكتسب أهميتها سوى من أحلام يقظة طفولية. يراودنى الأمل فى بضعة كراسى، وهتفت "أخيراً"، كنت فى مظاهرة من فرد واحد وشعارها: "أخيرا"... الآن فقط سيتحول الكلام إلى حقيقة خارج الورق الذى استهلكناه فى كتابة محاضر الاجتماعات. ثم تأتينى لحظة تعقل وأهاتف "شهابا" الذى قتل ليله ونهاره فى دائرة بولاق الدكرور، أقول له: "صندوق الانتخابات مش بيعبر عن أى حاجة" يؤكد: "عارف.. عارف". بالتأكيد كان يعلم لكننى كنت أبرم معه صفقة لكى لا تثير الأحزان بعد ذلك. وفهم "شهاب" الرسالة وسقط مريضاً بعد سقوطنا جميعاً، كل بطريقته، وبدون أن نعلن. فقط "سميرة" أصرت أن تعلن لتورطنا معها، لتورطنا فى مواجهة كنا نهرب منها، "قولوا لعيشة إن أنا فى أشد حالات الحزن، وإن سفرى قرب"، نسيت أن تقول: "والقاهرة كمان". القاهرة تختنق بين قبضة العسكر وخشونة اللحي، ونحن نؤكد "كانت معركة هايلة"، تمتعنا بروح رياضية لا نظهرها فى مباريات كرة القدم، فقط لنهرب من ترديد ما قالته "سميرة".

ذاكرة صور

أنا أحب برلين. جملة تشبه الملصقات ذات الألوان الزديئة التى نراها مثبتة على الزجاج الخلفى للسيارات: "أنا (ثم رسم لقلب أحمر) مصر". دائما ما تساءلت لمن موجه هذا الملصق؟ فنحن جميعا متورطون فى هذا الشعور.. بشكل أو بآخر، لمن إذن؟ أحب برلين دون أن أعلن هذا الحب حتى لنفسى، فهذا تورط غير محسوب العواقب. أحبها وأقرر أن أمارس معها الحب سراً دون أن أخبر القاهرة. حب مدينتين فى وقت واحد.. هل يجوز؟ ليس كحب امرأتين، فهذا تشبيه ذكورى بحت، هؤلاء الكتاب الذين يشبهون كل مدينة بامرأة، فيقول لك الواحد منهم وهو يسبل عينيه بوعى شديد: "أنا أعشق العديد من النساء" أو مثلا: "تلك المدن كالنساء تماما لابد أن تكتشفها برفق". يثير غثيانى هذا الكلام وتنتابنى رغبة فى القيام من مكانى وتسديد لكمة قوية لأنف صاحبه. النساء.. النساء.. حاملات الشرف ورموز المدن ورموز الحرية.. ولم يعد هناك مكان لهن، لأنفاسهن، لتفاصيل حياتهن، لآلامهن، لدموعهن، لفقرهن، لأرقهن. النساء.. لسن إلا رموزاً.

برلين مدينة فقيرة فى كل شىء وهو ما يلائم مزاجى تماما، فالثراء يزعجنى، ويربكنى ولا أعرف ماذا يأكل أصحابه. يزعجنى الأثرياء الذين

يصرون أن يجلسوا على المقاهى ويتدلهون فى حب الفول والباذنجان. يزعجوننى وفقط. برلين فقيرة فى كل شىء لكنها تفاجئنى دائما بالكثير من الموسيقى والصور لأجد نفسى محاصرة بمهرجان دولى لصور الفوتوغرافيا والفيديو. وهكذا تتابعنى حمى الصور. كنت قد بدأت من فترة أجمعها بجنون وبنهم وكأننى أريد أن أثبت الحياة فى صورة، أن أحولها إلى صورة، أن أراها صورة، أن أسمعها صورة، كأننى أحاول أن أفهم شريط الصور.

أقرأ الخريطة (رغم براعتى فى قراءة الخرائط لم أقرأ خريطة القاهرة كاملة وربما لم أجد بعد الخريطة الملائمة) وأتوجه إلى المعرض، فى وسط برلين عند الخط الذى يقسمها (كان يقسمها). أشترى التذكرة وأتجاهل غرفة وضع المعاطف وأصعد إلى الطابق الثانى. على السلم تتحول كل برودة جسدى إلى حرارة شديدة فأخلع الجاكت والمعطف والكوفية. أناول الرجل الواقف بالمدخل التذكرة فيقول لى كلاما كثيرا لا أفهمه. ببرود محايد أقول: "إنجليش بليز"، فيفهمنى أنه على أن أعود إلى الطابق الأرضى لأعلق ملابسى فى المكان المخصص لها. تظهر كل علامات الدهشة على وجهى وأسأله مستنكرة: "تريدنى أن أعاود النزول؟" يقدم لى حلا عبقريا: "عليك إذن أن ترتدى كل الملابس". أبدأ فورا فى ارتداء الجاكت والمعطف والكوفية بدون كلمة واحدة، الألمان يمارسون ديموقراطية أكثر من تلك التى نمارسها ولن أضيع وقتى فى نقاشات خضتها آلاف المرات فى القاهرة. فى مواجهة

المدخل طلعنى الجدار الرئيسى بملخص للمعرض، مائة وخمسة عشر مصورا! سأنتقى إذن. صور غرائبية وجدران تنتهى ليبدأ غيرها، حتى أتوقف أمام جدار كامل يحمل صورا لأماكن طلقات الرصاص فى المبانى، شهقت بصوت عال، لم أتخيل أبدا أن يتحول ثقب الطلقة إلى شكل رائع كهذا.. أتأمل بكثير من الدهشة وبعض الخوف، يمكن إذن التعايش مع الرصاص، يمكن خلق الجمال من الموت، وبما أن العالم كله لم يعد يحوى سوى الرصاص فليتحول كله إلى لوحة كبيرة جميلة. أضطر إلى مغادرة الجدار بعد أن بدأ مسئول الأمن يرتاب فى أمرى وهو يرانى أهمهم بكلمات غير مفهومة. من جدار إلى جدار وكل ما لم يخطر ببالى يتحول إلى صورة. لو يخرج "كمال" من صوره المحبوسة فى وجوه البشر ربما يتمكن من فهم "سارة". لو فقط يغير عدسة الكاميرا، لو يغير من سرعة أنفاسه لحظة التقاط الصورة، لو يفهم أن "سارة" ليست صورة، لكنه لا يراها سوى كوجه فى صورة ذات إضاءة مثالية على ورق غير لامع من زاوية دقيقة فى عالم عشوائى.

أتنقل بكم الملابس التى تزداد حرارتها حتى أجدنى فى قاعة بها أفلام وصور وكتب وكتابة إنجليزية وألمانية تقابلها. وأسفل كل صورة شرح لها والتاريخ. واضح أن الصور مأخوذة مما يعرض على الشاشة فأقرر أن أختصر المسافة وأتابع الشاشة. فيلم قصير يصور المقاومة فى نيكاراجوا، مقاومة الشعب ضد العسكر. أنتبه بعد ثوان أن كل من تناضل ضد العسكر قال

نفس الجمل: "كنا فقراء ولا نجد ما نأكله.."، "كان كل من يقول لا يختفى فى اليوم التالى.."، "كانوا يسرقون محاصيلنا..."، لم يكن لدينا أمل فى أى شىء...". أقرأ وأتأمل وجوه من يتحدثون، كم يشبهوننا وكم هى شديدة حرارة الطقس هنا وأشعر بالعرق يدغدغ عمودى الفقرى حتى تصيبنى جملة فى مقتل: "لم يكن أمامنا خيار سوى المقاومة، كنا كالموتى فلم يكن يضيرنا أن نموت مرة أخرى". ولن يضيرنا أيضاً. أشعر بالحرارة تزحف إلى رأسى فأخرج إلى البرودة. أعبر كل الممرات لأعاود مشاهدة الصور مرة أخرى.

صور أخرى

لا أكره يوم عيد ميلادى إطلاقاً، أحبه وأحتفل به كما ينبغى. يسألنى الأصدقاء على استحياء: "كام سنة بقى؟" أجيب بصوت عال "خلاص السنة الجاية أربعين، استعدوا للاحتفال". لا أفهم لماذا لا أشعر بالقلق تجاه العمر، لا يمكننى أى شعور بالذنب، لم أقصر فى أى شىء، حاولت وفشلت. المهم أننى حاولت بكل حماس واحتفلت بمقدم بعض الشعيرات البيضاء التى حولتها الحناء إلى أحمر واضح، اللون الذى سعيت له عشرين عاماً جاء فى ليلة واحدة.

"حنان" تكره يوم عيد ميلادها ولا تحب أن يذكرها أحد به. تتابها كل علامات الاكتئاب فيخفت صوتها وتحتد ملامحها وينعقد ما بين حاجبيها وترفض أى علامة للاحتفال. بعد عدة اتفاقات والعديد من الإلغاءات يعلن زوج "حنان" الذى كان موجودا فى برلين أنه سيطهو. أصل لأجد "هشام" الزميل الجديد الذى وصل إلى برلين حديثا. نستمع قليلا لحكاياته عن أمريكا، حكايات أراني خارجها تماما وكأننى أقف فى هامش مظلل بالمساواة واللامبالاة. أثبت نظرى على طبق الجبن أمامى لأتفادى الحرج، لألغى أى علامة انزعاج أو اندهاش، لأبدو جزءا من الحكاية، وأعود بسهولة إلى

القاهرة، القاهرة التى قفزت فى الحوار بينى وبين "شهاب" على التليفون قبل ذهابى إلى "حنان". تجاهل "شهاب" القاهرة وقال: "بورسعيد فيها مدابح". أجيب: "ياه". تواطؤ آخر. بعد قليل تنتهى الحكايات ولا ينقذنا سوى الكاميرا الجديدة التى اشتراها "هشام". كاميرا تلتقط الصور ببراعة ولا تهمل التفاصيل. يلتقط "هشام" الصور تباعاً لـ"حنان" وزوجها ثم لى ثم ألتقط له صورة ثم يعاود التقاط صور لى وكل صورة تتبادلها ونعلق عليها ونؤلف حكاية كاملة. ثم ترينا "حنان" القبعة الجديدة التى اشترتها، فنعاود التقاط المزيد من الصور ونعلق: "لأ.. لأ الإضاءة مش حلوة هنا" أو "الله الصورة دى تجنن بجد" أو "إيه ده مناخيرى شكلها يضحك!". وتأتى "حنان" بكاميرا الفيديو وتسجل خمس دقائق لا تكل هى و"هشام" من إعادة عرضها. ماذا كنا نحاول أن نثبت؟ اللحظة أم الحكاية أم نحن؟ كنا نحاول أن نقول إننا الآن هنا وإن التاريخ المختلف يمكنه أن يجتمع فى كادر واحد؟ إن الزمن المتفكك يمكنه أن يتعانق داخل الإطار؟ كنا نحاول أن نصنع تاريخاً مشتركاً أو ببساطة لم نجد ما نفعله سوى التقاط الصور. هى ليست كصور "كمال" التى تلتقط أحزان بشر لا نعرفهم، هى صورة التى حاولنا فيها إبداء أكبر قدر من السعادة والرضا.

حاولت أن أمحو القاهرة من على وجهى فى الصور التى التقطها لى "هشام" ولست متأكدة أننى نجحت. "استرخى يا "عيشة" علشان الصورة

تطلع حلوة. بصى يا "حنان" وشها مشدود ازاى؟ استرخى يا بنتى". أحاول أن ألبى لـ"هشام" ما يريده وأفشل تماماً. القاهرة محفورة فى كل خط من وجهى، فى العين التى تضيق عن العين الأخرى، فى الابتسامة المتوجسة، فى الغصة التى أكاد أراها فى حلقى ومازلت أشعر بها، فى الجلسة المتشنجة، فى اليد التى لا تعرف أين تستقر فتبقى معلقة فى الهواء. "استرخى يا "عيشة"، ريلاكس". و"عائشة" منقسمة ما بين الهنا والهناك، والقاهرة لا تغادر، نحن فقط نغادر. "هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه. ولم يتزعزع عن محب أنفاسه."

ذاكرة شارع

أغادر الثالثة صباحاً وأبدأ البحث عن موقف التكسى. أسير فى شارع هادئ وأستمتع بلفحة الهواء البارد الذى يرطب قليلاً سخونة التدفئة المركزية ويقلل من تأثير دخان السجائر. أسمع لدقة كعب حذائى على الإسفلت، ثم أبدأ أمارس لعبتى المفضلة فى الشوارع الخالية. أنعم دقة الكعب، دقتان ثم دقة أو واحدة وتليها الأخرى أو اثنتان ثم اثنتان.. وأبدأ القفز فوق خطوط وهمية، ثم أشعل سيجارة وأتتبع الخطوط التى يرسمها الدخان فى الهواء وعندما يستمر خروج الدخان من فمى أدرك أن درجة الحرارة قد هبطت كثيراً. غريبة هذه الشوارع، لا أحد بالمرة، ولا حتى كلب ضال، تكاد درجة الإحساس بالخطورة تنعدم لدىّ. ربما هذا هو الشىء الذى سأفتقده فى القاهرة، لن أحلم بالمشى ليلا، سأحلم بالمشى نهارا دون أن أسمع تعليقا أو نظرة أو نظرات أو خبطة كتف، أن أمشى فى شارع "طلعت حرب" دون أن أبدو كالزجزاج، أنتقل من الرصيف إلى الشارع ثم أضطر أن أتفادى السيارات لأعود وأتفادى البشر، أدافع عن مساحة ضئيلة لجسدى، الحق فى أنى أدافع عن جسدى. نظرى دائما مثبت فى اللاشىء لكى لا أفهم خطأ. يدى تقبض على حقيبتى فى حين أخطو الخطوتين فى خطوة واحدة. فى كل مرة أجوب شوارع القاهرة وحدى أشعر أننى أقترف ذنبا، ومؤخرا أصبح

ركوب التاكسي بسبب في نفس الإحساس. الثالثة ظهرا أركب التاكسي وأنا متجهمة بكل قوتي لأبدو امرأة جادة "مش من إياهم"، ألمح جريدة بجوار السائق وأجدها فرصة لإظهار مزيد من الجدية. "ممكن الجرنال من فضلك؟" يستدير ليناولني الجريدة ولسبب ما، ربما لضيق التاكسي أو لمحاولة السائق التركيز في الطريق أو بشكل قصدي، لا أعرف ما الذي جعل يده تصطدم بركبتي فنفضت يده والجريدة بقوة. "لأ.. لأ ما تفكريش يا أبلة إن أنا كده، ده إنت بنت بلدي برضه وأنا سواق على العربية دي من أيام "عبد الناصر"، ده أنا أفديك برقبتي". "معلش معلش حصل خير".

ألقى بعقب السيجارة وأظل مدة أتأملها حتى تتلاشى جمرتها ثم أتوجه بهدوء إلى التاكسي وأفتح الباب، أجلس بجانب السائق وأقول له العنوان بثبات وألقي برأسي إلى الخلف وأغمض عيني. جميل أن أشعر بالأمان بجانب غريب ولو خمس دقائق.

واحكي يا "سارة"...

"غرب إيه وبتاع إيه؟ إنتم بس علشان ماتعرفوهمش كويس. طبعا هم منظمين وفاهمين شغلهم ومش بيرغوا كتير زينا بس الحقيقة بقى إن احنا بنفهم عنهم، أقلها احنا عارفين إنهم موجودين.. هم بقى بيتفاجئوا يا حرام بوجودنا. يعني احنا عاملين لهم زحمة في الكون ولخمة مالهاش أي لازمة. بيوضبوا كل أبحاثهم على أساس إنهم لوحدهم خالص. مرة من زمان مش فاكرة سنة ٩٢ ولا ٩٣ ولا ٩٤ ولا ٩٥ ولا يمكن قبل كده..."

يغرق "كمال" في الضحك وتنطلق "غادة": "هو مين اللي سرق العمود يا سارة؟" وتقاطعها "سميرة": "بس بقى يا "غادة" أهو أي سنة وخلاص، هي السنين يعني مهمة قوي ولا إنت فاكرة نفسك بيج بن".

"ها كمل الحكاية يعني ها كمل الحكاية". لا شيء يعوق حكي "سارة".. أبدا. "كنت باشتغل مساعدة لواحدة إنجليزية جاية تعمل ورشة عمل عن الحملات الانتخابية للستات. كانت أيامها بقى لسه بادية موضة المشاركة السياسية للمرأة والفلوس داخلة بالهبل للجمعيات، كل جمعية فيك يا مصر بعتت اتنين مافهمش في أي حاجة والزهق هيموتهم أصلا. المشاركة

السياسية، مشاركة إيه وهنشارك مين؟ والله الكلمة دى بتفكرنى بالجمعية التعاونية، ويا سلام لو قلنا الجمعية التعاونية للمشاركة السياسية.. الله.."

- احكى بقى يا "سارة"، إيه ده؟

"طبعا هاحكى، بس من حقى يعنى أعلق وأأمل حكايتى وأعمل شوية تداعيات. حكايتى وأنا حرة فيها. وبعدين مش أنا اللى باحكى، يبقى أعمل اللى أنا عايزاه. المهم، ماطوّلش عنيكم قولوا لى والنبى طولى، جت الست من إنجلترا وقعدت تقول إن دخول المرأة البرلمان الإنجليزى بدأ من المطبخ، وبالتحديد من على ترابيزة المطبخ، قلت فى سرى آه لو تيجى وتشوفى أمى بتعمل إيه فى المطبخ؛ هتنسى يعنى إيه برلمان من شوية الروائح اللى هتهل عليكِ. وتقول للستات أهم حاجة التخطيط السليم للحملة يردوا: "إن شاء الله ربنا هو اللى بيدبر"، تقول لهم والمهم كمان إنكم تعملوا شعار يلفت النظر يقولوا لها: "أمال إيه، دول بيحبونا ويحترمونا قوى فى النواحى بتاعتنا". والست دى كأنها حافظة مش فاهمة ولا واخدة بالها إن بقالها تلات أيام بتكلم نفسها، نسيت أقول لكم إن ساعة لما اتكلمت عن المطبخ، نص الستات قعدوا يضحكوا والنص التانى قالوا عليها "جاهلة". الست قبضت فنوس علشان تقول الكلمتين دول وبس. المهم فى الآخر كان جزء من الورشة إن الستات يتدربوا على الكلام كده قدام الناس، فطلبت من كل

واحدة تسجل تلات دقايق فيديو. وطلعوا الستات يتكلموا زى لعبة الكورة بالضبط "بسم الله الرحمن الرحيم، طبعا بتوفيق من ربنا احنا أهم رشحنا نفسنا وربنا يقدم ما فيه الخير. وماحدش بياخد غير نصيبه". والست بنت الذين تقول لهم: "برفكت.. إكسلنت". شفتم نصب أكتر من كده، احنا مش موجودييييييييييين خالص"..

ذاكرة احتلال

استنشقت عادم السيارات اليوم حتى الثمالة، رأسي يدور وكل جسدي شبه منهو ومنهار من التعب. لم أتمكن من الوصول إلى المنزل فالشارع مغلق من الناحيتين والسيارات تقف متكتلة في انتظار الفرج. اتصلت بـ"سارة" وشرحت لها الموقف. كنا على ميعاد لأقابل صديقتها العراقية "ابتسام". وأردت أن أستقبلها في منزلي، تفهمت "سارة" المشكلة وأخبرتني أن هناك مظاهرة ضئيلة العدد أمام نقابة الصحفيين. حاولت أن أفكر في أقرب مكان من منزلي فلم أجد سوى فندق الهيلتون. توجهت إلى هناك وبعد خمس دقائق أقبلت "سارة" ومعها صديقتها "ابتسام" و"نهى". بعد أن سلمت عليهن شرحت لي "سارة":

لقيت "نهى" واقفة هي وخمسة معاها بيهتفوا ثورة ثورة حتى النصر، ثورة في كل شوارع مصر. بصيت على الثورة وعلى الشوارع مالقيتش ولا حتى صرصار أضربه بالشبشب، قلت يبقى أكيد أصدهم على الأمن اللي مالي الشارع وقافله من الناحيتين. صعبت على والله أحسن يحصلها انفصام لوذعي في الشخصية وقلت أجيبها معايا وأكسب فيها ثواب. ما هي صاحبتنا برضه.

أغرق في الضحك ولا أتوقف إلا عندما تبدأ "نهى" في التذمر:

- ولما صعبت عليك كده ماوقفتيش تهتفي معايا ليه؟ ولا كان وراك الديوان يا "سارة"، المتهم كانوا خلاص معلقينه على الحبل يعني.

- لأ يا أبلة، كل الحكاية إن أنا الأسبوع اللي فات رحت تلات مظاهرات وطلع عيني شمس وأمن وشتيمة وحشر وتفعيص. هو احنا لازم نتواجد دايماً، فين الجماهير يا أبلة اللي طول النهار إنت و"كمال" بتكلمونا عنهم. قولوا للجماهير معلش يساعدونا شوية لو مش هيضايقهم يعني. وبصراحة بقى أنا في المظاهرات باشوف نفس الوشوش والخلق اللي أنا مش مضطرة أشوفهم باسم النضال.

ترضخ "نهى":

- عندك حق، فيه إشكاليات لازم نناقش.

أحاول تهدئة الموقف:

- وإنت يا "نهى" جاية من آخر الدنيا علشان مظاهرة فيها سبعة، مش ارتحت لما شاركت، خلاص سيبي ضميرنا في حاله.

تبادر "نهى" بسؤال "ابتسام":

- وإيه أخبار العراق على حسك؟

يتغير وجه "ابتسام" قليلاً وتجيب باقتضاب وهي تقلد اللهجة المصرية:

- بتسلم عليك. مالت على "سارة" وهمست سريعاً:

- فهمي "نهى" إن البت مش ناقصة، دي أول ما جت من شهرين كان عندها انهيار عصبي، خليها تلم الدور شوية. هي فاكرة نفسها بتعمل لقاء في نشرة الأخبار؟

لكزت "نهى" في ركبتها فصمتت على مضض. ولكنها لم تصمد طويلاً، فعندما لاحظت بعد قليل أن "ابتسام" تتكلم وتضحك سألتها كالطفلة:

- إنتم زعلانين على "صدام" هناك؟

- وين أيام "صدام"؟ هاذي كانت رفاهية، كانت الحرية. لازم نفقد الحرية حتى نعرف معناها.

امتعضت "نهى"، فالكلام لا يلبي أفكارها:

- يعني إيه؟ ده كان ديكتاتور، حد يزعل على ديكتاتور، ده كان...

قاطعتها "ابتسام":

- وهسه عدنا احتلال. شنا قبل نقول خطية فلسطين، بعدين صرنا نقول خطية بلدنا، وبعدين صغرت الدايرة قمنا نقول يلا ما يخالف المهم العائلة وأصدقائي وزمايلي بالشغل، وبعدين نسينا الزملا والأصدقاء وقمنا نقول بس العائلة، بس الأهل وبعدين صرت كل يوم الصبح أقول معلش ما يخالف المهم بس أمي وأبويا وأخويا وزوجي. شفتِ كيف نفقد انسانيتنا؟

في محاولة خاطئة مني للتخفيف سألتها:

- وبتعملي إيه هناك يا "ابتسام"؟

- حبيبتى أنا بطلت من الشغل، ما بقت واحدة تقدر تطلع وحدها، وأنا زوجى يطلع على السبعة ونص الصبح وبلا يرجع على السبعة بليل. أقعد على القنفة ما أسوى شيء. الحال واقف، الى مقطوع ويجى ويا الكهرباء ثلاث ساعات باليوم. حسبيها، ساعة كل سبع ساعات. يجى الى أكون زى الماراثون، بإيد أشغل الغسالة وبإيد المكنسة وبإيد أغسل الطماطا، لازم أكون أخطبوط حتى أكمل الشغل. وبعدين أقعد ما أتحرك من مكانى، أكون واعية إلى ما أبذل أى جهد حتى ما أشعر بالحرارة، حتى الستارة ما أقدر أفتحها حتى الشمس ما تدخل، إذا دخلت يصير الجو فظيع. أنام على جنب واحد أربع ساعات لغاية العرق ما يملا المخدة، أقلبها على الوجه الثانى. كنت والله أهذى من الحرارة وأتخيل أشياء. كنت أجلس وبس، كنت مثل البرص اللى ما يتحرك على الحائط. بعد شوى أسمع مثلاً إن فيه انفجار فى جنوب بغداد، وشنو يعنى جنوب بغداد، وين جنوب بغداد، أكلم أبويا على الموبايل وأقول له: "بابا إنت عايش؟" وأكلم زوجى وأسأله "إنت يم الانفجار حبيبى؟" هاذى شغلة الموبايل بالعراق، ما أدرى إشلون هاذولا يمنعوه.

- يمنعوه؟ هم مين؟

- إيه.. المجاهدين أول ما بدوا قالوا الموبايل حرام، والكاسيت حرام، والخلل حرام، ومحلات القماش حرام، والثلج حرام.

- مخلل وقماش وتلج؟ إيه الجنان ده؟

- الخلل متخمر والقماش معناه إن النسوان بيطلعوا ويشتروا ويفصلوا وبعدين يلبسوا للرجاجيل، أما الثلج فهو رفاهية للمواطن ما كانت موجودة أيام الرسول.

تسأل "نهى" باستحياء:

- وحكاية السرقة دى كانت بجد يا "ابتسام"؟

- طبعاً عيونى، كنت فى البداية لسة أقدر أسوق سيارتى، فى الظهر والله شفت الحرامية يفكوا اللمبات من على الجسر.

- والأمريكان كانوا بيتفرجوا طبعاً؟

- الأمريكان كانوا فى مكانين بس. أمام وزارة النفط والقصر الجمهورى. خليهم الأمريكان شى همهم بينا! والله كنت أشوف عوائل أعرفها، ما هم محتاجين، بس يدخلوا القصور والبيوت حتى يكسروا أنف الحكومة ويخرجوا بزجاجة زيت.

تواصل "نهى" أسئلتها الكارتونية:

- الأمريكان كانوا فى الشوارع عادى؟

- اليوم الأول سمعت إن فيه انفجار بمكان شغل أبويا، نزلنا أنا وعلى أخويا حتى نطمئن، طلعنا بس من باب البيت ولقينا الدبابات والأمريكان فى كل شبر، ما كنا مصدقين نفسنا. كنا نمشى احنا والدبابات. هسة حطوا لافتات مكتوب عليها "عزيزى المواطن حرصاً على سلامتك ابتعد عن

الدبابة ١٠٠ متر"، واللى يتقرب بس ينضرب رأساً، تعرفين عدد الناس اللى يموتون خطأ فى اليوم بالعراق كام؟

تتدخل "سارة" بأسى:

- يعنى هو فيه موت صح وموت غلط يا "ابتسام"؟

بابتسامة ممزوجة بالسخرية تجيب "ابتسام":

- المسائل نسبية وتتناسب، مو؟ هذا شيء عادى بحياتنا، يعنى اليوم يا "سارة" لما كنت محتمة بهذى العاركة فى الشارع كنت راح أموت من الضحك والله. عاركة؟! تعالوا العراق شوفوا الجثث المرمية والنسوان اللى ينخطفوا قدام الواحد وما نقدر نعمل شيء. إذا وقفنا ولا نظرنا نموت رأساً.

تشعر "نهى" بالتورط التام ولا تجد سوى تعليقها الشهير "حاجة تقرف والله، فلسطين والعراق ولبنان، الواحد مكتئب على الآخر". فجأة يتملكنى الضحك حتى يتطاير من فمى رذاذ القهوة، وينظر لى الجميع فى استنكار، أتمالك نفسى بصعوبة وأقول: "أصل "نهى" نسيت مصر!"

وجملة "ابتسام" ترن "كنت زى البرص".

ذاكرة جوع

فى كل محاضرة فى برلين أتذكر حكاية "سارة" عن تدريب المرشحات للانتخابات، لأدرك أنها لخصت المشكلة الأبدية فى حكاية واحدة تشبهها. فى كل محاضرة أتأكد أننى لست سوى رقم مضاف على قائمة "الأجانب". لست موجودة، أنا لا أوجد. حتى عندما خرجت مظاهرات البطالة لم أعرف ما الذى يجب أن أفعله. كل ما أعرفه هو أنه لابد أن أؤكد أننى متعاطفة بالطبع مع قضية البطالة وأننى لست همجية ولست عنصرية ولا أنزعج من الكلاب التى تتمشى فى قدمى طوال الوقت ولا أنزعج من الأرفف المصنوفة بكل أشكال طعام الكلاب والقطط. لابد أن تشى ملامحى أن الأمر "عادى" وأننى أنزعج من الصوت العالى فى الشارع وفى القطار لأن الهدوء هو "العادى"، لابد وأن أرتدى التبعة فى الشتاء وكأننى ولدت بها وأتجاهل الجليد الذى أشعر دوما أننى سأدفن تحته يوماً ما، الأمر كله "عادى". لابد وأن أجلس فى المطاعم وحيدة ليبدو الأمر "عادى"، وأن أحمل الكمبيوتر لأجلس فى الحديقة ويبدو الأمر "عادى" وأن أدخن سجائر لف لأنه "عادى" وأن أبتاع كل الخضر التى تشبه القلقاس والتى لم أرها من قبل لأنه "عادى" وأن أقود الدراجة فى درجة برودة لم أشهدها من قبل وأن أضع وجهى فى الكتاب بشكل دائم وأن أغلق المدفأة ليلاً لكى لا أدفع كثيراً

وأن أتناول كميات هائلة من البطاطس فى كل أشكالها، حساء وفطيرة وسلطة ومقلية ومحشية ومعلبة وطازجة ومجمدة ومعجونة ومحروسة. البطاطس هى الشىء الوحيد الذى لم أقوَ عليه رغم رخص ثمنها الملحوظ. لم يكن الأمر "عادى". لم أحتمل أن أسكت جوعى فى البرد القارس بالبطاطس. ولا أذكر أننى ذهبت يوماً إلى السوبر ماركت وابتعت شبكة بطاطس، على الرغم من الجملة التى كتبت عليها بأحرف صغيرة للغاية "مستورد من مصر".

لكى أصل إلى الجامعة لابد أن أستقل المترو من المحطة الكائنة تحت المنزل وأقوم بتغيير خط المترو بعد ثلاث محطات، وبالتحديد فى محطة فهربلينر. أنزل من عربة المترو مع كل المغادرين لأصعد سلالم مع كل الصاعدين ثم أسير فى ممر طويل مع كل السائرين لأعود وأنزل سلالم أخرى وأنتظر المترو الذى يقلنى إلى محطة دالم دورف. ولا ينتهى الأمر هنا. أخرج من المحطة صعوداً على سلالم ثم أسير فى شارع ليس به سوى أنا والمبانى على الصفين وأوراق الشجر التى أغوص فيها بحذائى. أدعو دائماً ألا أغوص فى بقايا الكلاب بدلا من ورق الشجر. مدينة بلا صوت، مدينة بلا انفعالات، مدينة تشبه سطح الجليد الأملس. وأكاد أصرخ من شدة البرد. رحلة أقوم بها مرتين فى الأسبوع، ذهاباً وإياباً. فى طريق العودة تكون البرودة قد جمدت أطرافى وأفقدتنى الإحساس بأننى حتى إننى أتحسس

وجهى عدة مرات لأتأكد من وجوده فى مكانه. ومع البرد يأتى الجوع، فجأة وبلا استئذان. هجوم عنيف يلغى أى حسابات فى موانع الأكل. ويبدو أننى لست الوحيدة فكل من يصعد إلى المترو يكون منهمكاً فى قضم شىء ما، سندويتش، فطيرة، تفاحة، قطعة شيكولاتة، أو أشياء أخرى لا أميزها. محطة تلو الأخرى حتى أصل إلى محطة فهربلينر مرة أخرى، وأعاود صعود السلالم ثم المشى فى الممر الطويل، وفى نهايته بالتحديد وحيث يجب أن أهبط سلالم أخرى تهاجمنى رائحة البطاطس لأتوقف مكانى وأحاول أن أقاوم الإغراء. شابة تقف فيما يشبه كشكا تتناول كل مشترٍ قرطاساً من البطاطس تعلوه بقعة حمراء أو بيضاء. نجحت أن أقاوم الإغراء كثيرا لكن فى المرة الأخيرة وعندما أوقفتنى الرائحة قررت أن أبتاع قرطاساً مشابها لكل القراطيس التى تتلذذ بها الأفواه، خاصة أن اللون الذهبى للبطاطس كان متناقضاً مع اللون الأحمر الذى يعلو قمة الهرم. أخذت مكانى فى الطابور، هكذا أصبحت أقف فى أى طابور دون أن أشعر، حتى إننى فى إحدى المرات فى السينما توجهت إلى دورة المياه فوجدت امرأتين تقفان خلف الباب فوقفت خلفهما، فقالت لى إحداهما إن ذلك ليس طابوراً. أرثى لحالى دائماً فى هذه المواقف. أنا التى جئت من مدينة لا تعترف بالطابور، أقف بتلقائية فى أى طابور هنا.

مدونـــــــة رفايـــــع

ومن طول فترات الصمت ومن طول الطوابير تعلمت أن أركز بصرى على شىء واحد، أى شىء أنتقيه. هذه المرة اخترت الشابة التى تبيع البطاطس. ولأن الرجل الذى كان واقفا أمامى كان طوله حاجبا لكل شىء فقد خرجت قليلا عن الصف لأحصل على رؤية أفضل. يتقدم كل زبون لتسأله عن طلبه، فيقول لها: "بوم فريتس" وهى البطاطس المقلية متساوية الطول والسمك التى انتشرت فى القاهرة مؤخرا فى محلات الأكل السريع والتى تستخدمها أمى بكثرة والتى أكرهها، لا احب الأشياء المتساوية، أكره تلك النزعة المثالية، أو يقول الزبون "كانترى بوطيطز" وهى أكثر سمكا ولونها داكن لبقائها فى المقلاة وقتا أطول. وفى كل مرة تقوم الشابة بتعبئة ملعقة الغرف بالبطاطس النيئة وتضعها فى المقلاة أمام الزبون وتضبط الموقد أوتوماتيكيا ليطلق صفارة معلنا نضج البطاطس. فتقوم بتعبئتها فى القرطاس وترش عليها ملحا وشطة حمراء، ثم تسأل "كاتشاب؟ مايو؟" فيختار الزبون كاتشاب لتقوم هى بالضغط على ما يشبه حنفية تسيل منها الصلصة الحمراء على البطاطس أو يقول الزبون "الاثنين"، فتضغط على حنفية الكاتشاب ثم المايونيز بالتوالى. تقدم القرطاس للزبون الذى يبدأ فى التهامه مباشرة أثناء دفع الحساب. تتعامل مع كل زبون وكأنها ستقدم له شيئا جديدا، شيئا غير متوقع، ويتواطأ معها كل زبون، حتى جاء دورى فطلبت "كانترى بوطيطز" وعندما سألتنى "كاتشاب؟ مايو؟" ارتبكت. فسألتها بالإنجليزية "ما الأفضل؟" أجابتنى بسلاسة ودون أن تربكها إنجليزيتى: "الأفضل هو تناول

البطاطس بدون أى إضافات" وابتسمت، فابتسمت وأومأت برأسى موافقة. ناولتنى القرطاس وأردفت: "يمكنك أن تأكلى هنا إذا شئت"، وأشارت إلى منضدة صغيرة عالية بدون مقاعد أمامها مباشرة. توجهت إلى المنضدة ووضعت القرطاس على المنضدة فانفرط نصفه. لم أهتم كثيرا بالتأكيد، لم أكن قادرة أن أنهى كل هذه الكمية. وبالفعل فقد أكلت حوالى نصف النصف وشعرت بالامتلاء. فما كان منى إلا أن توجهت إلى سلة المهملات وضغطت عليها بقدمى لألقى بما تبقى، لأسمع تلك الشابة تقول بصوت عال "هالو". و"هالو" بالألمانية تعنى تنبيها أو تحذيرا. لم أدرك أنها تكلمنى إلا حين نظرت إليها، بدأت تتكلم بالألمانية فتملكنى غضب. ما لها ومالى؟ ثم ما هذا الخروج عن التحفظ الألمانى المعروف! لم أنطق وظللت أنظر إليها بغضب. لابد من إظهار الغضب هنا من باب الاحتياط. كانت قد أخذت بضعة خطوات لتصل عندى، فقلت "ما الأمر؟" فقالت: "ألم تعجبك البطاطس؟" زاد حجم غضبى، لماذا يجب أن أشرح نفسى طوال الوقت. فقلت: "بلى ولكنها كثيرة"، فقالت "أوكى، إذن أعطيها لأحد بدلا من رميها". غرقت فى ارتباكى فأنا دائما ما أفعل هذا، لكننى لم أفكر فى البطاطس التى أبقيتها، ولماذا تحرجنى هذه الشابة. قلت كلمات من قبيل: "نعم.. بالطبع.. أكيد.. سأفعل". تجاهلت ارتباكى كما تجاهلت الطابور الذى كان يزداد طولا وسألتنى: "تبدين عربية.. من أى البلاد أنت؟" تجاهلت بدورى طول الطابور وقررت أن أتذاكى فسألتها: "ولماذا عربية؟ قد أكون

تركية". ابتسمت وقالت: "عزيزتى، العرب فقط هم الذين يلقون بالأكل فى سلال المهملات. لابد أن أعود للعمل ولكن أرجوك لا تلقى بأى بقايا أكل.. هناك بشر كثيرون، أكثر مما تتخيلى لا يجدون ما يأكلونه.." وعادت تسأل كل زبون: "كاتشاب؟ مايو؟"

أخذت بالفعل بقايا البطاطس معى وأعطيتها للرجل الذى صعد إلى المترو ليعزف الجيتار. شكرنى بامتنان ممتزج بالدهشة. ولم أنس تلك الشابة والصدق الذى كان يشع من كل جزء بجسدها. الحقيقة أننى نسيتها بعد قليل، عندما بدأت أصابع الثلج التى تطيّره الرياح أثناء هبوطه الرائع من فوق ليستقر فى عينى وشعرى وداخل ملابسى، لو فقط يحدد اتجاهه. إلا أننى تذكرتها، أو هى التى تذكرتنى عندما مررت من نفس المكان قرب نهاية الأسبوع. أشارت لى بيدها على سبيل التحية فأشرت لها بما معناه أننى سأعود. وفى طريق العودة كان الصمت قد قتلنى واشتقت للحديث مع أى شخص، فتوجهت وأخذت مكانى فى طابور البطاطس.. "بطاطس بدون إضافات؟" فقلت: "ما رأيك فى قهوة؟" فقالت "عظيم، فى خلال عشر دقائق سيكون لدى ساعة راحة". قلت: "سأنتظر". تجولت فى المحطة وبعد عشر دقائق بالفعل وجدتها تلوح لى فتوجهت نحوها وخرجنا لنجلس فى مقهى مقابل. كل جزء فيها يقفز من مكانه وكأنه يحاول أن يغادر، حتى صوتها.

"اسمى كازينا من بولندا" ومدت يداً رجولية معترقة من زيت البطاطس.. "أهلا كازينا، أنا عائشة من القاهرة". ابتسمت: "آشا، اسم جميل". ولم تنتظر حتى نجلس، بدأت الحكى فوراً... "جئت برلين من عامين، قضيت منها عاماً كاملاً أعمل فى تنظيف المنازل، وعندما أصابنى الغثيان من تنظيف المراحيض قررت أن أجوع حتى أجد عملاً آخر. وبعد ثلاثة أشهر فى الشارع حصلت على العمل فى كشك البطاطس. صاحب الكشك رجل تركى لا يحب أن يوظف تركيات يقول إنهن يتكلمن كثيراً. لذلك أمثل أمامه أننى شبه خرساء. غضبت منى خالتى آنا كثيراً عندما تمردت على العمل فى المنازل، فقد ظلت تنظف منازل الألمان عشر سنوات حتى تمكنت من شراء منزل، بالتقسيط طبعاً. أكسب من البطاطس أقل بكثير لكن أى شىء لابد أن يكون أفضل من تنظيف المنازل. أتعاون أنا وصديقى على دفع إيجار الغرفة التى نسكنها فى شرق برلين وأحياناً أحضر معى قرطاسا من البطاطس للعشاء. الحقيقة أننى أتنازل عن القرطاس دائما لـ"نيكيتا" لأننى لا أفكر ليلا إلا فى النوم. أعمل كل يوم من العاشرة إلى التاسعة. فيما عدا يوم الأحد، أعمل ساعتين فقط. أتمنى أن تتحسن الظروف قليلاً عندما يحصل "نيكيتا" على المنحة الدراسية التى قدم لها. يريد أن يدرس علم النفس، أنا أريد أن أدرس التاريخ. كنت على وشك الحصول على منحة إلا أن شرطها كان دراسة تاريخ اليهود فى المنطقة. وأنا أحفظ هذا التاريخ عن ظهر قلب فقد جئت من كراكاو حيث معسكر

الأوسفيتش الذى أباد فيه "هتلر" كل الفنانين والكتاب والمفكرين. أوف... تاريخ سئمت من حكيه لكل من يقابلنى، لو فقط يسألوننى عن شىء آخر. بما أننى لن أتمكن من رؤية بقية العالم إذن سأدرس تاريخه. مضت الساعة سريعاً، لابد أن أعود. هل سأراك ثانية؟" هززت رأسى بالإيجاب وقلت: "غداً"، فقالت "لدى فكرة رائعة، هل تعرفين أن كل حى فى برلين يحتفل مرة فى العام. لم لا تأتين إلى الحى الذى أسكن فيه وتشاهدين الاحتفال؟" اتفقنا أن أمر عليها يوم الأحد بعد أن تنهى عملها ونذهب معاً. فأنا غالباً لا أجد ما أفعله يوم الأحد.

كان الطقس معتدلاً ولم يتوقف "نيكيتا" صديق "كرازينا" عن إلقاء النكات. تناولنا سندويتشات ونحن جالسون على دكك خشبية فى الشارع والموسيقى تصدح من كل شبر حتى كانت تتنافر أحياناً. مراجيح للأطفال، صناديق خشبية يعبئ منها الباعة البيرة للمارين، أكشاك تبيع مشغولات فضية، قطع حلوى متراصة خلف زجاج، سيوف خشبية، امرأة رائعة الجمال ترتدى فستاناً أسود عارى الكتفين وتغنى فى ميكروفون فيتبعث صوتها محدثاً هالة من البخار الأبيض بسبب البرودة، أكشاك تتراص بها جميع أنواع التوابل والأعشاب.. كرنفال أخبرتنى "كرازينا" أنه يستمر حتى منتصف الليل. كنت بالطبع أمارس هوايتى المفضلة وأراقب البشر، أنتقى أياً منهم وأتابع ما يفعل، حتى أبدت "كرازينا" فجأة رغبتها فى الصعود إلى

المنزل لتحتسى القهوة. كنت أود البقاء لكن لم أتمكن من الاعتراض. صعدنا إلى الغرفة التى بالكاد كانت تكفى لاثنين، وبدأ "نيكيتا" فى إعداد القهوة. خلعت "كرازينا" حذاءها وجوربها وأطلقت آهة طويلة ومدت قدميها على كرسى أمامها وكان الكرسى الوحيد بالغرفة. وقع نظرى على قدميها فكدت أصرخ، وعندما لاحظت جزعى قالت: "أعانى من الدوالى منذ زمن، لكن يبدو أنها وراثة من أمى". كانت عروق قدميها نافرة وتميل إلى الزرقة بشكل مخيف حتى إن هذا النفور قد غير من شكل القدم. حاولت أن أهون عليها الأمر ونصحتها برفعهما قليلاً. وغادرت بعد أن احتسيت قهوة سوداء.

ذاكرة أقدام

لم أقابل من يهتم بالأقدام كما تفعل "سارة". اهتمام يصل إلى حد الهوس. يبدأ الأمر من قدميها، ففى أحلك الظروف لا تقصر فى حكهما بالحجر وتدليكهما بالكريم كل ليلة. وأظافر قدميها لا يغادرها طلاء داكن اللون، وتذهب سراً مرتين فى الشهر لتجرى ما يسمى "باديكير". تذهب سراً لكى لا يقال إنها "بورجوازية". دائما ما تقول "الأطفال مافيهمش غير رجلين بس، الباقى بقى انسوه". وعندما انتشرت موضة الشباشب بدلاً من الصنادل كانت "سارة" هى أول الفرحين، فقدماها هما الشىء الذى تعرضه دون خجل أو ارتباك. وكلما تفعل هذا أكون أول الناظرين، وأهمس لها "لأ ليكِ حق يا "سارة" تعمليهم، هم يستاهلوا برضه". تستغرق فى الضحك وتجيبنى بصعوبة من وسط نوبة سعال "مش كده والنبى، أهو حاجة أتباهى بيها. بصراحة أنا مش عارفة الستات اللى رجليهم معفنة دول ازاى مش واخدين بالهم. بيفتكروا إن النظافة هتقلل من الجدية، تصورى؟ وكمان الرجالة، يا ساتر، كلهم كأن القطر معدى على رجليهم. وبرضه فاكرين إن النظافة من اختصاص الستات. إنت عارفة يا "عيشة" الراجل مش ممكن يتعرف إلا من رجليه، بس ازاى بقى تقلعه الجزمة والشراب، هى دى المشكلة". أستغرق فى الضحك بدورى وأعجب من النظريات التى تخرج بها "سارة" وكأنها

بديهيات، وأكسل عن الرد. لكن "غادة" بالطبع لا تفوت الفرصة وتقول "خلاص نقطع رجليه ونريح دماغنا". ولا تتوقف "سارة": "وحياتك ولا يفرق، هتلاقى دماغه زى رجليه. أنا حتى عمرى ما فهمت دماغهم بتشتغل ازاى. يعنى إيه المقدمات اللى بيوصلوا بيها للنتايج".. من وسط الضحك أقول: "إنتم خليتم فيها مقدمات ولا نتايج، رجلين إيه بس اللى إنتم بتفكروا فيها، يعنى مش شايفين التراب والتلوث اللى احنا عايشين فيه، وشوشنا كلنا أزرق فى أسود من الأكل اللى شوية يقولوا فيه فاشيولا وشوية سرطان، والمية اللى زى الفل اللى مليانة حيوانات أليفة و...".. تقاطعنى "سارة": "إيه يا "عيشة"، ما تخليك حلوة، ما احنا عارفين ولا يعنى عشان رحتى شوية عند الخواجات خلاص.. بكرة ترجعى وتبقى زينا مش بس أزرق فى أسود، وحياتك هتبقى تكنى كلر من طولة لسانك. طيب ده أنا من شهرين بعد ما بعيد عنكم ويا رب الشر بعيد عن السامعين ولا أشوفكم فى ضيقة زى ضيقتى...."، تتمر "غادة" فتكمل "سارة": "يا حبيبتى دعوات مجانية، هو إنت لاقية.. المهم بعد ما راقبت شوية فى انتخابات سبتمبر أكلت حتة طبق كشرى من عربية فى الشارع إنما إيه... ماحصلش ولسه عايشة أهو. والراجل كتر ألف خيره صمم يغسل لى الطبق قبل ما يغرف فيه، والله يا "عيشة" غسله فى جردل مية بايتة فيه مش أقل من أسبوع، ماكنتش عارفة ده لون الجردل ولا لون المية اللى فيه. لأ وإيه... بعد كل ده اديته ربع جنيه زيادة، بقشيش، ما هو كرمنى الصراحة، من وجهة نظره

يعنى بطلوا بقى تبصوا لى كده. وأكلت الكشرى وأنا واقفة قصاده وكل شوية يقول لى: "هه كشرى المزمازيل تمام؟" أقول له يا سلام تسلم الأيادي. وكل اللى بافكر فيه إنى عايزة أغسل رجليه فى أى مكان. بس والله ما كنت باكذب، أى حاجة ساعتها كانت أكيد أحسن من القرف اللى شفته فى اللجنة. حتى لو كانت مية الجردل بقى لها سنة. ده الضابط كان يشاور للعساكر من هنا يتزلوا يحجن فى الناس من هنا، يعنى إذا كنت نفدت من العساكر مش هاخلص مع الكشرى. عمرى ما شفت بوليس كده، ماكنتش فاهمة حاجة، لا عايزين الناس تنتخب ولا عايزين القاضى يطلع النتيجة ولا عايزين المرشح يدخل اللجنة، ولا عايزين الصحافة ولا المراقبين يدخلوا ولا بيقفلوا اللجنة.. تزوير على زى زمان. عايزين يخصوا منا على أساس يعنى إن احنا سبعين مليون عاملين زحمة فى الدنيا. عاملين كده زى الألمان بتوعك يا "عيشة". صدقونى بجد أنا متأكدة إن الحكومة بتقرف منا ومن زحمتنا، النفساوى بتاعهم نجاحنا مش كويس. بس على مين ده احنا بتوع الكشرى. إذا لم يهزمنا الكشرى فلن يهزمنا أحد.. يا سلام والله مطلع أغنية حلو". نضحك بافتعال فقد كنا نتجنب الخوض فيما حدث فى الانتخابات ثم خيم علينا صمت قطعته "غادة": "باقول لك إيه يا "سارة" إنت متأكدة إن اللى فى الجردل كان مية مش حاجة تانية؟"

إ..ع..ع..ع..ع..ع.. وتخبئ "سارة" وجهها بين يديها ونواصل السعال والضحك.

ذاكرة عبث

أمل أحياناً من شاشة الكمبيوتر التى أتصيد منها الأخبار وأحن إلى تصفح جريدة حقيقية تترك بصمات الحبر الأسود على أصابعى. كانت "حنان" قد دعتنى فى مكتبها أنا و"هشام" لنقابل كاتباً هندياً قام بتحرير موسوعة عن الأدب الهندى الحديث. بعد أن تناولنا الغداء انتقلنا إلى ما يشبه الصالون والذى يحرص الألمان على أن يكون متوافرا به الصحف الرئيسية فى العالم. بدأ الحوار حول "سلمان رشدى" بينما أنا أحاول عدم لفت أنظارهم إلى الجريدة التى أمسكت بها. وضعتها على المنضدة أمامى دون أن أفتحها، فكان نصف الصفحة الأولى يحتل نظرى تماما بالصورة التى قبعت فى المنتصف تماماً. حوالى ستة رجال يتسلقون سلالم خشبية مستندة إلى جدار متهالك. التعليق أسفل الصورة يقول: "مؤيدو الإخوان المسلمين فى الانتخابات يحاولون الوصول إلى اللجان للإدلاء بأصواتهم". لم أر صورة تشبه هذه من قبل. أنا المغرمة بالصور. صورة يمكن أن تعرض بسهولة فى أى معرض فى برلين مع انتقاء عنوان غريب بعض الشىء وتحصل على جائزة "صورة اليوم" وتعرض على شاشة مترو برلين. كادت الرغبة فى الضحك تقتلنى وكلما حاولت أن أكتم الضحك كلما تزداد رغبتى فيه. كان

لابد أن أقول شيئا وإلا سأنفجر من كبت الضحك. يجلس بجانبي قاض إفريقي من الجابون، وبهدوء وما يشبه الهمس، قلت له: "تخيل هذه الانتخابات عندنا. هل رأيت مثل هذا من قبل؟" ابتسم وقال "تسميها في بلدنا ديمقراطية". قلت له: "غريبة ونحن أيضا". وفقط عند ذلك لم يستطع أي منا أن يكتم الضحك. لم أستطع مطلقا أن أفتح الجريدة فكنت أنظر من بين ثناياها لأجد: "حظك اليوم".. بحثت عن طالعي: "تمر اليوم بموقف شديد الصعوبة ستجتازه بحكمة". ضحكت فقد اجتزته لتوي، هل هناك أصعب من هذه الصورة، التي تبعتها رسالة من "نهى" على المحمول "طبعا عرفت الأخبار. قلبي مش مطاوعني أكتبها. فيه واحد مات. واحد تاني في المستشفى. إنت عاملة إيه؟ وحشتيني.." تتبعها رسالة من "غادة" "عيشة..تعالالالي بقى. الدنيا زفت.."

في المساء أجلس مع مجموعة من المعارف الجدد في برلين. مصريين مقيمين في ألمانيا، مصريات متزوجات من ألمان، مصريات غير متزوجات ويتكلمن العربية المكسرة.. "اسمه إيه اللي طعمه مسكر كده شوية؟ اللي بتشربوه وتحطوه على الأكل.. آه افتكرت اسمه حرفة". أجيب بسخرية: "لأ يا خواجة كرياكو، اسمها قرفة". يتطرق الحوار إلى انتخاباتنا كما يسمونها. وبعد قليل يصل الكلام إلى مسامعي وكأنه يبث من محطة إذاعة في القمر، مليء بالخرشنة والجمل المبهمة...

- أصل نظام التعليم لازم يتصلح، مش معقول الفصل قاعد فيه خمسين وأحيانا والله العظيم ستين تلميذ، تصوروا؟؟ ستين.. تخيلوا؟

- أصل الناس بتخاف دلوقت تودي عيالها مدارس خاصة، تخلف وانغلاق. طبعا فيه فقر، بس هي مسألة انغلاق.

- خلاص كله لازم دلوقت يتحجب غضب عنه.

- المشكلة في الأزمة الاقتصادية، ليه مش بيعملوا زي الغلبين؟ "عيشة"، إنت مش سامعاني ولا إيه؟ ليه مش بتعملوا زي الغلبين؟

- هم مين؟

- إنتم. المصريين يعني.

- قصدك احنا.

- وطبعا هيدفعوا الأقساط الجزية.

- هم مين؟

- الإخوان يا "عيشة" طبعا، إنت سرحانة فين يا بنتي؟

- كنت حاسة ان كل ده هيحصل. الحمد لله إن عندي بيت في ألمانيا. الواحد ممكن يقعد في مصر بس مش غضب عنه.

- احكي لنا يا "هدى" حصل لك إيه لما رجعت مصر؟ قدرتي تعيشي فيها ازاي؟

- فضلت متهزة سنة بحالها وكان عندي صدمة حضارية.

- أيوه، ما هو ده اللي بيحصل لي أنا ومراتي لما نروح أجازة. وبعدين؟

- ما أنا باقول لك، فكرة إن عندى بيت هنا وبيت هناك مريحانى قوى.

يبتعد الصوت ويبتعد حتى أنفصل تماماً. ولا تبقى فى ذاكرتى إلا كلمة "بيت". بعد أن أغادرهم أتوقف عند أول تليفون فى الشارع وأتصل بـ"سارة".

- أيوه يا "سارة"، أنا "عيشة".

- أرجعى بقى يا "عيشة"، وحشتينى، خلى عندك دم.

- وإنت كمان. خلاص هانت. المهم احكى لى إيه اللى حصل؟

- حصل فى إيه؟

- فى الانتخابات طبعاً.

- عايزة تعرفى إيه؟ ما هو إنت أكيد متابعة اللى حصل. لحد دلوقت الإخوان أخدوا حوالى التلت والحكومة مش هتديهم أى حاجة تانية. والحكاية فيها بلطجة ودم وموت. أما احنا فخدنا ولا حاجة. صفر كبير قوى، أكبر من شجرة الكريسماس اللى تلاقيها مالية الدنيا عندك.

- يا "سارة" أنا عارفة موضوع الصفر ده، بس عايزة أفهم ده حصل ازاى؟ كل المظاهرات والاجتماعات وحرقة الدم دى تطلع بصفر؟ ازاى؟

- يا "عيشة" لما يكون اليسار كله بيتخانق مع بعضه وبيشتم على الإنترنت وبيطلّع بيانات فاهم إنها هتكسر الدنيا من غير ما ينزل الشارع ويدفع الثمن اللى المفروض يدفعه لازم يبقى عندنا أكبر صفر فى الدنيا. ولما

طول الوقت نبقى بنجرى علشان نتحالف مع الإخوان اللى هيعلقوا على باب زويلة قريب قوى لازم الناس اللى معانا يكفروا بينا، ولما نحط طول الوقت أجندة أكبر من قدراتنا يبقى يجد الصفر مجاملة. المرشح اللى "كمال" كان بيساعده نجح علشان "كمال" موت نفسه فى الانتخابات مش علشان هو من اليسار ولا يحزنون. كل الحكاية إن الراجل معروف فى المنطقة و"كمال" حريف انتخابات. الانتخابات كانت عبث يا "عيشة" وتضييع وقت ويا ريتنا ما وجعنا قلبنا.

ربما كانت تلك من المرات النادرة التى أسمع فيها نبرة اليأس فى صوت "سارة". وهذا بالتحديد هو ما جعل جسدى يقشعر خوفاً. وبصوت يحاول أن يبدو لا مبالياً سألتها:

- يعنى خلاص يا "سارة" الشارع يا إخوان يا وطنى زى ما بيقال؟

- يا "عيشة" لأ. المسألة مش بالبساطة دى. أنا بس مش عايزة أطول عليك وإنت بتتكلمى من برة.

- لأ لأ أنا عاملة حسابى. قولى.

- إنت عارفة الوطنى نجح ازاى. أما الإخوان فكانوا بديل لناس كتير قوى لأننا مش موجودين. الحجة التانية بقى إن الحكومة زى ما استخدمت العنف الإخوان ماكانش عندهم أى مانع يستخدموا نفس الأسلوب لولا بس إن عنف الحكومة أقوى. أما بقى الفنوس فحدث ولا حرج. وبعدين لو

راجعتِ مواقفهم هتلاقى إن مافيش فرق بينهم وبين الحكومة. لو شاطرة قولى لى تلات فروق جوهرية بين الإخوان والحكومة. إنت مش فاكرة لما نادوا مثلاً بإلغاء قانون الإصلاح الزراعى؟ احنا يا "عيشة" ماعملناش الواجب اللى كان المفروض ناخد عليه حاجة أعلى من الصفر.

- الوقت جه خلاص يا "سارة" و...

- أتمنى. هترجعى إمتى؟ اوعى تتهفى فى مخك وماترجعيش وتفتكرى إن القعدة عندك هى الحل. كده قعدت مع نفسك كفاية قوى. تعالى حلى مشاكلك هنا يا "عيشة". بطلى جو الهروب والمغامرات اللى إنت عايشة فيه ده.

تؤلمنى الحقيقة قليلاً وربما كثيراً، أحياناً تسيطر على رغبة قطع لسان "سارة":

- ايه العبط ده يا "سارة". مارجعش إيه وبتاع إيه؟ إيه أخبار الناس؟

- كل الأخبار عندى من التليفون. "كمال" خلص الانتخابات وعايش حياته فى التصوير كالمعتاد. "شهاب" من ساعة الجولة الأولى وهو عيان وراقد على طول. "سميرة" ماشية بنور الله وبتخلص إجراءات السفر، و"غادة" إنت عارفة إنها أجلت ميعاد الفرح لمارس اللى جاى. "هاجر" منعزلة ومش بترد على التليفون خالص. "سمر" بقى التليفزيونات بلعتها خلاص.

- طيب و"كمال" عامل إيه معاك؟ فيه جديد؟

- "كمال" إيه يا "عيشة"، "كمال" لما كنت باكلمه فى الصيف كان موضب أموره مع واحدة تانية، واحدة صاحبتنا مش هاقدر أقول لك هى مين. المهم إن هى اللى جات وقالت لى على كل الحكاية. فضل "كمال" يتحايل عليا وبعدين لما أنا ظهرت رماها وقال لها "سورى أصلى ماعرفتش أحبك". تصورى، "كمال" اللى عامل لنا فيها ملاك، قصدى عامل لكم إنتم. أنا الكلام ده فاهماه من زمان. باقول لك مش بيقدر يواجه حتى نملة. الموضوع طويل لما تيجى أحكى لك على كل حاجة. شغلك ماشى كويس فى برلين؟

- ماشى يا "سارة"، كله ماشى. إنت اللى شغلك عامل إيه، المدير اتعدل معاك ولا لسة؟

- من ساعة الانتخابات وأنا واخدة أجازة وقاعدة فى البيت وسبت القضايا اللى معايا لواحدة زميلتى. أول مرة أكتشف إن الأمان الوحيد فى الدنيا دى هو سريرى فى البيت.

- مالك يا "سارة"؟ فيه إيه؟

- أصلهم خطفوا صحفية وموتوها من الضرب وبجد من ساعتها وأنا مرعوبة. ماشية فى الشارع باتلفت حواليا.

- آه شفت صورها على النت. خايفة من إيه، يعنى هى أول مرة يعملوها؟

- لأ خايفة لأن دى أصبحت القاعدة. العادى يعنى.

- ربنا يستر يا "سارة". يوسى نفسك لحد ما أشوفك. وسلمى.

- يوصل، مانتأخريش. باقول لك إيه، لو مروّحة على البيت قابليني على الماسنجر، عايزة أرغى معاك فى حاجة كده.

ينتابنى القلق:

- حاجة إيه يا "سارة"؟

- يوه يا "عيشة"، الكلام ده يفلوس، على النيلة الكمبيوتر ببلاش.

- ماشى، ماشى.

أعود للدق بكعب حذائى على الإسفلت، أدق وأدق لكى لا أدق رأسى بدلاً من حذائى. أنفث كل المكالمة فى الهواء، تخرج كلمات "سارة" بخاراً أبيض فى درجة برودة أقل بكثير من صفر الانتخابات. ولا يبقى فى ذاكرتى غير "البيت" وخيبة أملى فى يسار لا أملك له بديلاً، حتى لو أردت لن أعرف. لا أتقن سوى ابتلاع هزائمه وتجاهل سخف أصحابه والتعامل مع عدوانيتهم المستعدة للآخر دائماً.

ذاكرة مواجهة

أعود للمنزل قلقة. ماذا تريد "سارة"؟ أشغل الكمبيوتر بمجرد أن أصل للمنزل، أتركه يحمل برامجه بينما أخلع كل قطع الملابس وأعد شاياً أخضر. أعود لأتسمر أمام الشاشة، وتطالعنى الأيقونة الخاصة بـ"سارة"، أحول لغة الجهاز إلى العربية وأكتب:

- ألو يا بلد.

- كويس إنك رجعت على طول، الساعة كام عندك؟

- عشرة، وإنتم؟

- ١١

- احكى، فيه إيه؟

- "عيشة"، هادخل فى الموضوع عدل. إنت سافرت بحجة تقعدى مع نفسك وترتبى الدنيا فى دماغك من الأول. جيت ورحت مليون مرة، وعمرك ما فتحت الموضوع ده تانى. ولا أنا سألتك. فلت من نفسك هتتكلمى، بس لقيتك بنيدة كالمعتاد وساكتة زى أبو الهول وعايزة تضحكى علينا وتعملى إن كله تمام. إيه الموضوع بقى؟

توقعت أى شىء إلا هذه المواجهة. لماذا لم تتركنى "سارة" أستمتع قليلاً ببلادتى وسكونى فى اللافعل، عند نقطة الصفر، رأسى فارغ تماماً.

- "عيشة"، بطلى استهبال، رحتِ فين؟

- أيوه، هنا. مش متأكدة إنى عايزة أتكلم فى القصص دى. أنا كويسة عموماً.

- ماشى، كويسة ازاى؟ اشرحى.

- الشغل كويس واستفدت من التجربة... مش عارفة.. كده يعنى.

- ماليش دعوة بالشغل، إنت عمر ما كان عندك مشكلة فى الشغل. أنا باسأل عليك إنت، إنت، من جوة عاملة إيه مع "عيشة"؟

- ؟؟

- إيه اللى إنت مش فاهماه؟ الكلام واضح يا "عيشة"، هو بس علشان خبط لزق فجأة شوية، لازم تتعلمى تتكلمى عن نفسك. إنت فكرة دى أسرار مخابرات ولا حاجات مقدسة؟

- نم.. نم.. نم..

- أم إيقاع السلاحف ده. بصى يا "عيشة"، عايزة أعرف تلات حاجات مضايقينك.

- .....

- عيشة! يلا! ابتديت أغلى. إنت عاملة زى العيال اللى مش عايزين يستحموا. عيال معفنة. اتكلمى وانضفى من جواكِ، أحسن ريحتك قريت تطلع.

- "سارة" إنت سافلة!

- ماشى، يلاّ يا مؤدبة يا راقية قولى.

- مشكلتى إنى مش مبسوطة يا "سارة"، حاسة إنى فشلت فى حاجات كتير، وساعات باسأل نفسى إيه فايدة الشغل ده كله فى بلد ميتة وفاسدة، كله زى بعضه. مفيش فرق، مش عارفة إيه كمان.

- .....

- "سارة"؟؟

- أيوه أيوه، باسمعك. بس كده؟

- لأ ساعات بافكر حاجات شنيعة حصلت ودماغى تبقى بركان بيغلى وبكره نفسى.

- .....

- "سارة"! إنت سايباني أتكلم وخلاص؟

- لأ يا "عيشة"، بجد باسمع، بس حكاية مش مبسوطة دى مالهاش أى معنى، دى حجة بس بتقوليها لروحك علشان تفضلى زى ما إنت. بصراحة أنا بالنسبة لى "مش مبسوطة" ترف كبير قوى. يعنى إنت عايزة بجد تبقى مبسوطة والدنيا هنا كلها والعة، ومافيهاش حاجة عدلة، ازاى؟

- أنا باشوف ناس كتير مبسوطين، وماعندهمش أى حاجة معكننة عليهم.

- آه طبعاً، دول بقى عاملين زى سيد قشطة، لما تسونامى حصلت هو الوحيد يا حبيبى اللى ماحصلوش حاجة، عايزة تبقى سيدة قشطة؟ وبعدين هم مين دول أنا ماعرفش حد مبسوط والفرحة قاتلاه كده خالص. ولا قصدك على موضوع الجواز والطلاق، مصر كلها كل يوم بتتجوز وبتتطلق، أنت مش فاكرة حكايتى مع "كمال" ولا إيه؟ ومش فاكرة لما اتخطبت زى الهبلة بعد كده وماكملتش شهرين. مش آخر الدنيا يعنى يا "عيشة".

- .....

- وإيه موضوع الفشل ده كمان؟ حددى بالضبط يعنى إيه؟ كلامك كله عايم. مين اللى بيحط معايير الفشل والنجاح؟ ماشى، إنت فاشلة، قاعدة عندك بتعملى إيه؟ بتدورى على النجاح؟ والنبى اشترى لى واحد معاك، بس مايكونش غالى، المستورد برضه أحسن من المصرى.

- بس يا زبالة.

- وهو أنا عمرى قلت إنى نخبة؟ طبعاً أنا زبالة. الحاجات بقى اللى بتفتكريها دى لازم تطلعيها وتحطيها قدامك وتقولى أيوه أنا اتوجعت واتضايقت واتقيلت، بس إنت على طول عاملة زى "نبوية" اللى عندكم فى البيت، فاكرة لما كنت بادور على شبشبى عندك فى الأوضة ولقيتها كل الزبالة تحت السرير. مافيش فرق بينك وبينها يا متعلمة. حطيت كل اللى

واجعك تحت السرير، وماشية تقولى: "أنا شجيع السيما، أبو شنب بريمة.. تم تم".. اعملى زى ما باعمل، احكى واحكى، أمال أصحاب على إيه؟

- .....

- "عيشة"؟

- .....

- "عيشة"، ارجعى حلى مشاكلك هنا، لو عندك مشاكل يعنى. كفاية سفر ولا فلوسك كتيرة قوى؟

- .....

كان صوتى قد بدأ يرتفع بالبكاء ولم أرغب فى سماع كلمة واحدة، كرهت نفسى وكرهت "سارة" فى تلك اللحظة. خرجت من الماسنجر بدون كلمة واحدة، وأغلقت جهاز الكمبيوتر، كأننى أغلق الخط فى وجه "سارة". وأكملت البكاء وأنا أتحسس ركبتى، لأتأكد إن كان الألم مازال موجوداً وإن كانت آثار النكدمة مازالت باقية.

ذاكرة بيت

البرد يقتلنى، يجمد رأسى، يجمد أطرافى، يفقدنى القدرة على فعل أى شىء، يفقدنى حتى الرغبة. لكن الرغبة فى عقلى تكاد تنهش كل ما تبقى من تركيز. أعتاد الجلوس بمفردى والمشى بمفردى والحديث مع نفسى. "امرأة مثلان وحيدة؟ هم الرجالة اتعموا، دول صحيح ماعندهمش نظر" ومثلى كثيرات، ونتعلم الوحدة ونتقنها حتى تصبح لغتنا الأولى. اللغة الأم. والأب. والأخ. والأخت. الأصل هو الوحدة،كل ما عداها جمل اعتراضية واستثنائية وممنوعة من صرف المشاعر. أتقنت لا مبالاة "سمر" وانغلاق "حنان". أتقنت غياب الآخر لديها، ولم يبق سوى "هاجر" التى مازالت تبالى بنا وبتفاصيلنا السخيفة وتتكلم كثيراً عن مشاعرها. لم يبق سوى "هاجر" التى تراانا وتبكى وتتألم. لم يبق سوى "هاجر" المفزعة بقدرتها على ضغط كل حرف فى الكلمة بشدة لنسمعه جلياً. كم "هاجر" تحتاج لكى نواصل؟ المشكلة أن "هاجر" تختفى ثم تظهر لتختفى وهكذا. فى أحلك اللحظات الباردة المعجونة بالوحدة والرثاء تهاتفنى "هاجر" من القاهرة الصاخبة "عيشة وحشتينى قوى. يلا ارجعى." وفى ذروة خيبة الأمل ترسل لى مع "تومس" الذى قابلها فى القاهرة ظرفاً مغلقاً. أتحسسه فلا أشعر بالورق

داخله، أجد منديلاً ورقياً مكتوب عليه بخطها "يا عيشة كل سنة وإنت الصاحبة الحميمة. ازاى بتعرفى تاخدى كل البلد والدفا منا وإنت ماشية؟ بتعمليها ازاى دى؟ هتقولى لى لما ترجعى. دلوقت كل سنة وأنا دفيانة بيك وبـ"روضة" بنتك الجميلة. هاجر". نعيش العمر كله لنشعر أن آخرين يحتاجوننا. أننا ذوو فائدة. أن هناك من ينتظرنا كما نحن. أن هناك من لا يفقد صورتنا ولا ينسى ذكرنا. أن هناك... هناك... من يحبنا ببساطة لأننا نحن ولذلك لن نشرح ولن نوضح. ثم كان أن اختفت هاجر، تلاشت تماماً كأنها لم تكن أبداً موجودة. أتعجب دائماً وأتساءل ما إذا كانت تفتقد أياً منا. الشعور بالسعادة ترف، من أين تأتى "سارة" بهذه النظريات؟

برلين الباردة تخبئ قسوتها عن أعين الغرباء. تظهر جمالها فقط كامرأة تتدلل وتعرض محاسنها لتقع فى شباكها وتدرك أن قسوتها مركبة. كلما تصل قسوتها إلى الذروة تقدم لى شيئاً يعدل الفكرة. كأن أبحث عن مكان فتتطوع امرأة تتحدث مع صديقتها فى الشارع أن تصحبنى إليه وفى سبيل ذلك تنهى حوارها سريعاً مع صديقتها، أو أن يفتك بى ألم الأسنان فيتطوع صديق أن يتوسط لى لدى الطبيب الذى لا يملك مواعيد إطلاقاً، أو تفاجئنى امرأة على سلالم المنزل بابتسامة عريضة وتحية، أو أحتاج لمقاعد إضافية فأهرول صاعدة على سلالم المنزل حافية وأدق الجرس على الجيران الذين لم أقابلهم من قبل وأشرح لهم فى كلمات بسيطة أننى أريد أن أقترض مقاعد، أتوقع

مثلاً أن يغلقوا الباب فى وجهى فتتركنى المرأة على الباب وتعود بمقعد فى يدها وتناوله لى، ثم تقول "فارتن بته" - أى انتظرى، كلمة تعلمتها من كثرة استخدامى للماكينات التى تبيع السجائر، كلما أضع النقود، تبدأ الماكينة فى هضمها ثم تطالعنى تلك الكلمة، بعد ثوانٍ تظهر علبة السجائر - وتختفى المرأة ثم تعود بمقعد آخر، يلجمنى الامتنان وأؤكد لها أننى أسكن فى الشقة التى تقع أسفل شقتها فتقول "نعم، أعرفك جيداً". أو أن أشترى مناديل ورقية لأوقف السيل الهابط من أنفى فترفض المرأة أن تأخذ ثمنها أو ينهمر المطر وأنا بدون شمسية فيفتح لى أحد المارة شمسيته ويضبط خطوته على إيقاعى. برلين الخادعة. كلما أكون عنها رأياً لابد أن أغيره فوراً. هذه برلينات وليست برلين واحدة.

فى ذروة القسوة، فى قمة البرد، فى أعلى درجة احتياج، فى أشد حالات الرغبة لا أجد سوى البيت. البيت. ذاك البيت الرائع الذى تملكه صديقة نصف مصرية ونصف ألمانية. بيت أعيش فى مطبخه نهاراً وفى حجرة نومه ليلا. بيت أكلم جدرانه وأعتنى بأركانه. بيت. بيت. بيت. البيت. بيتى. بيتنا. البيت. رائحة البيت. أنا فى البيت. قاعدة فى البيت. نفسى أقعد فى البيت. لأ مرسى مش عايزة أشرب حاجة، أنا جاية من البيت. يا سلام على البيت. أحلى حاجة هى القعدة فى البيت. الواحد مايرتاحش إلا فى بيته.

أفتح الباب من القفل العلوى ثم القفل السفلى، أطمئن أن هناك شعاع نور يطل من الشقة المجاورة، أدلف إلى الشقة. أخلع المعطف وأضعه على الشماعة المخصصة له. أخلع الكوفية وألقى بها على الأريكة فى المطبخ. أخلع القفازات وأضعها فى حقيبة يدى. أخلع الجاكتة وأعلقها فى الدولاب. أتجه إلى المنضدة الصغيرة بالمطبخ وأتجاهل بقعة الظلام المطلة من النافذة العريضة. أجلس إلى المنضدة وأخبئ وجهى بين كفى. يعنى إيه بيت؟ هنا؟ أم هناك؟ هناك جاء عم "أحمد" فى القسم وعلامات الحزن تبدو جلية على وجهه، سألته عما به فقال: "البيت وقع فى الصالة". بعد عدة أسئلة فهمت أن البيت يعنى زوجته. زوجة.. صحبة. زوجة أى أبناء، صراخ ومرض ونجاح ومدرسة وقلق على الغد وضيق ذات اليد، وفرح وجهاز وعريس وعمل جديد، بيت عم "أحمد" يشجعه على البقاء فى هذه الحياة. ماذا عن أمثالنا الذين لا يملكون حتى ترف الشعور بالإرهاق من مصاريف الأبناء؟ ولا ترف القلق على الآخر؟ ولا ترف المذاكرة للأبناء؟ ولا ترف معاقبة الأبناء؟ الشعور بالسعادة ترف.

فى كل مدينة زرتها لدىّ بيت. باريس. دمشق. الرباط. أمستردام. عمان. لندن. بيروت. بروكسل. تونس. حتى الخرطوم التى تعثرت فى زيارتها، لدىّ صديق أو صديقة أقيم عندها. لدىّ معارف. لدىّ أصدقاء هنا وهناك. ما البيت؟ حيث نتعلم الصواب والخطأ من وجهة نظرهم، حيث نكره

صورتنا، حيث نتمرد ونخترع قواعد من تأليفنا، حيث نرتكب أخطاءنا، حيث نصححها، حيث نتنصل منها، حيث نمرض أم حيث نتداوى، حيث نفهم لماذا اندفعنا خارج البيت بحثاً عن الحب فى وقت مبكر، حيث ندرك أسباب صفقنا للأبواب، حيث نتلقى أول مكالمة من أول رجل، حيث نبكى طوال الليل معتقدين أنها نهاية العالم فقط لنبدأ من جديد لا مبالياً بأمثالنا، حيث ندرك أننا أصبحنا كالورقة التى تزداد سمكا دون أن نشعر، فقط عندما نحاول أن نقطعها نكتشف أن هذه الورقة الشريرة اكتسبت وزناً دون أن ندرى، حيث نفهم فجأة بعد أن نستيقظ من قيلولة معبأة بالأحلام، حيث نشكل القوة من مزيج صلابة وسخرية، حيث نكون فى منتهى الضعف فنواجهه بصلابة وفجاجة وضحك، حيث يصبح لدينا عبء اسمه الوعى. حيث نراكم الآلام تحت السرير ونتواطأ على تجاهلها. ما البيت؟

ربما كلها بيوت. كل ما فى الأمر أننا لم نتعلم أن نقبل تعددية الأمهات والبيوت. بيوتنا هناك مليئة بالكتب والأوراق والقصاصات والمقاعد والمناضد والأكياس والعلب والبرطمانات والملابس والغبار والسجاجيد وقطع الأثاث. بيوتنا هنا خالية من كل هذا، قطع أثاث قليلة حتى إننى أقترض من الجيران مزيدا من المقاعد، لا ورق ولا كتب كثيرة وقطع ملابس معدودة. حتى الغبار أبحث عنه بدقة لأجده. ورغم كل هذه القلة والندرة فى كل

شيء تمكنت أن أعيش. عشت دون أن يتقصني شيء. ما الفرق بين البيت هنا والبيت هناك؟ دائماً ما يؤكد "عماد" أن البيوت تلتقي لجنسيات مختلفة كالبشر.

في القاهرة البيت هو مكان الغداء والمكان الذي تقيم به أمي في الحجرة المجاورة والتي تأتي محمولة عندما تسمع صوت موسيقى وتقول "فيه إيه؟ والله اتخضيت عليك يا حبيبتي. افتكرتك بتتخانق مع حد في التليفون". في القاهرة البيت هو المكان الذي تندد فيه أمي "بالعين اللي صابتنا من زمان ومن يومها ماعشيتش ولا كسبنا". فأشعر أنني خالفت كل توقعاتها، أنني سبب كل الإحباط الذي تعانيه أمي، كان المفروض أن ألبي صورة لكن يبدو أنني مزقتها. فيتحول البيت إلى المكان الذي نهرب منه لنبحث عن أحد يؤكد لنا جمالنا وروعتنا. يمكن لأهل القاهرة أن يعيشوا خارج بيوتهم عدة أشهر. البيوت كلها مفتوحة للمبيت وبيوت مفتوحة للأكل، وبيوت أخرى لا تنام. هناك بيوت هادئة للنوم وبيوت صاخبة للعبور. بيوت وبيوت. وكلها بيوت بها علب وبرطمانات وقطع أثاث لا تفيد ولا تستخدم. فقط اعتدنا على رؤيتها ولا نندم عليها إلا عندما نتخلص منها. بيوت أرضيتها خشب مغطى بسجاد تسمع فيها وقع كل خطوة وكأنها أنين "إيييء..إيييء..."، وبيوت أرضيتها بلاط تسمع عليها وقع الخطوة وكأنها حفلة راقصة "تراك.. تشك.. تراك.. تشك"، وبيوت أرضيتها طين لا تسمع لها

صوتا إلا في مقالات تنادي بحقوق "الفقراء". ويؤكدون على "الفقراء" وكأنه مرض تم اكتشافه ولابد من علاجه فورا. وكلها بيوت. وأهل القاهرة يقولون "البيت بأصحابه" و "الجار قبل الدار" و"البيت ريحه حلو".

بيوتنا هناك تئن من تاريخنا المتعرج، قصاصات ورق مصفرة يمكن أن نلقيها ببساطة وفي كل مرة نقرر نتراجع. ربما نحتاجها في يوم ما. ملابس زاد حجمنا عنها كثيرا، لابد أن نذهب وفي آخر لحظة نتراجع، ربما نتمكن من استعادة الوزن القديم. كتب نعرف أننا لن نقرأها لأن العمر لن يكفي، نمسح عنها الغبار ونبقيها ربما يواتينا الزمن ونقوم بقراءتها. صور فوتوغرافية ليسير فتلونا وآخرين لا نذكرهم، نعيد وضعها داخل الدرج المكتظ الذي نغلقه بصعوبة. مقالات مقصوصة من صحف بهت حبرها، ربع جنيه ورقي لا أذكر مناسبة الاحتفاظ به، مجلة بها صورة لانفجار مفاعل تشرنوبل، كم هائل من الشموع المتآكلة، كتالوجات معارض انتهت، شرائط كاسيت لفرقة الجيتس، كارنيهات جامعة قديمة، مفارش لا تغطي شيئا وتجمع الغبار، أبحاث مؤتمر عقد في الأردن ولم أقرأ منها حرفا، حقائب متآكلة، وقطع زجاج متكسر مرصوصة بعناية في أعلى الدولاب. ولا نجرؤ. هل أجرؤ؟ هل أجرؤ؟ هل أجرؤ؟ هل أجرؤ؟ هل أجرؤ؟ هل أجرؤ على كل هذه الخيانة؟ بيوتنا هناك تواجهنا أننا نعيش حياة أخرى مؤجلة. حياة أجلتها حتى أحقق ترف الشعور بالسعادة.

بيوتنا هنا تستعجل رحيلنا ولا تمتص تاريخ بقائنا فيها. بيوت لا تستوعب رغبتنا فى التراكم، تراكم ذاتنا فى المكان، وتراكم الغبار على أشيائنا القليلة. بيوت تعترض على ما يزيد عن احتياج اللحظة. بيوت لا تتمكن من تطويعها لعاداتنا فنقبل بها كما هى. بيوت عابرة نستخدمها لنتذكر بيوتنا هناك. بيوت نتظلفها فى دقائق ونقضى العمر محاولين تنظيف بيوتنا هناك. ولا ننجح. كل ما يحدث أننا نغير أماكن تاريخنا قليلاً. بيوتنا هنا بلا تاريخ، تلمع من النظافة والفراغ. لهذا لا نتوانى عن تنظيفها، فنحن نعرف أن المهمة سهلة.

أنظف البيت هنا ولا أجد ما أفعله بكل هذا الفراغ حيث أحتل ركناً واحداً فى المكان. ألتصق أنا وشاشة الكمبيوتر بمدفأة الحائط ونجلس هناك طوال الوقت. فأنقص من الوقت الذى خصصته للتنظيف. تواتينى فكرة محاولة تنظيف البريد الإلكترونى، فهو يشبه بيوت هناك. قال مهندس الصيانة إنه ثقيل للغاية ولذلك لا يفتح بسهولة. أحتفظ برسائل لا أعاود النظر فيها مطلقاً. لأبدأ التدريب على النظافة فى شىء صغير. أفتح البريد من آخر صفحة لأنظر فى الأقدم. أجد اسم "مصطفى" أمامى. وأقول "ياه إنت لسه هنا". أبدأ بلعبة محاولة تذكر ما بداخل الرسالة وأفشل تماماً وسريعاً، فأفتحها.)

"غرفة فى فندق

محمود درويش

سلام على الحب يوم يجىء، ويوم يموت، ويوم يغير أصحابه فى الفنادق!

هل سيخسر الحب شيئاً؟ سنشرب قهوتنا فى مساء الحديقة.

نروى أحاديث غربتنا فى العشاء. ونمضى إلى حجرة كى نتابع بحث الغريبين عن ليلة من حنان، (إلخ، إلخ...)

سننسى بقايا كلام على مقعدين، سننسى سجائرنا ثم يأتى سوانا ليكمل سهرتنا والدخان. سننسى قليلا من النوم فوق الوسادة. يأتى سوانا ويرد فى نومنا، (إلخ...إلخ...) كيف كنا نصدق أجسادنا فى الفنادق؟ كيف نصدق أسرارنا فى الفنادق؟ يأتى سوانا، يتبع صرختنا فى الظلام الذى وحد الجسدين، (إلخ..إلخ...) ونسنا سوى رقمين ينامان فوق السرير المشاع المشاع، يقولان ما قاله عابران على الحب قبل قليل. ويأتى الوداع سريعا سريعا. أما كان هذا اللقاء سريعا لنسى الذين يحبوننا فى فنادق أخرى؟ أما قلت هذا الكلام الإباحى يوما لغيرى؟ أما قلت هذا الكلام الإباحى يوما لغيرك فى فندق آخر أو هنا فوق هذا السرير؟ سنمشى الخطى ذاتها كى يجىء سوانا ويمشى الخطى ذاتها...(إلخ...إلخ..)

حاشية على متن:

لطالما أحببت هذه القصيدة لعبثيتها الجارحة، وسخريتها الموجعة من رغبتنا فى التفرد، وتأكيدها القائل بأن كل ما يجب أن يكون حيا وخاصاً هو فى نهاية الأمر مشاع، مشاع: سريرنا وما تنساه من نوم على الوسادة وكلامنا الإباحى.

ولطالما خفت من هذا الأفق الذى تفتحه لكل رغبتى فى التمرد على ما اعتبره الآخرون تفردى، ولكل رغبتى فى الاستسلام اللذيذ لساعات تشبه أيام الآخرين ونساء عاديات مثل نساء الآخرين، ونوم بلا طقوس وصحو بلا عادات وحب لا يحيل إلى حب آخر، ومتعة تمضى كما جاءت دون أثر ودون ذكرى.

ولطالما خفت منها لأنها جاءت، بعد أكثر قصائد "درويش" ملحمية وأطولها شعراً وغنائية، لتنبئ بأن الشعر ربما نضب وجف معينه وإلا كيف يتنازل بهذه البساطة عن الآفاق التى تفتحها القصيدة، مثلاً ذلك القليل من النوم الذى نسيناه على الوسادة، ويستسلم لخالة إلخ ..إلخ..

إلخ..

إ..

ل..

خ..

شرح على حاشية:

كان الأبنودى يقول: مانتيش غريبة يابلدى ومانيش ضيف
وكنت أردد صحيح: مانتيش غريبة يا بلدى ومانيش ضيف."

حاولت فى البداية أن أتذكر مناسبة الرسالة ثم بدأت أحاول فهمها. ولا أذكر إن كنت حاولت فهمها عندما تلقيتها أم لا. هل هو تفرده الذى يؤرقه أم الشعر؟ ومن أين جاءته فكرة كونه متفرداً. "مصطفى" ليس متفرداً سوى فى غيابه حتى أثناء وجوده، فى أعلى ذروة هو غائب، غياب متعمد وخوف من التورط وضحك من الآخرين حتى أصبح غيابه ضرورة. أن يكون "مصطفى" موجوداً لابد أن يكون غائباً لكى نعتبر غيابه هو وجود الغياب. أما فكرة التفرد فبعيدة تماماً عن الغياب، لأن التفرد ينتفى مع انعدام الحضور. تسودّ الشاشة أمامى فأضغط على الزر مرة أخرى لتعاود الرسالة الظهور وتخبرنى عن التفرد. لماذا يتوجب أن أفكر فى تفرد الغياب. ولماذا أقبل الغياب وكأنه وجود. ولماذا أضفى شرعية على الغياب وأحتفظ بالرسالة.

نفس عميق.....

وأضغط على الزر الذى يحمل أمر "امسح". مسحت الرسالة ثم حذفتها من سلة المهملات. إنجاز. ومازال الشعور بالسعادة ترف.

ذاكرة رحيل

ألملم حاجياتى، أكتب على قصاصات ورق صغيرة ما يجب أن أفعله وما يجب أن أشتريه. أتخلص من الكثير من الأشياء، فبعد أن مسحت "مصطفى" يمكننى أن أمسح أى شيء. أبحث لـ"هاجر عن هدية لونها برتقالى، ولـ"غادة" عن شيء أصغر، أذكر نفسى بدواء "جميلة"، وكريم "سميرة" ، وفيتامين لـ"نهى" و... أفكر فيما سأبتاعه لأمى التى فقدت الرغبة فى كل شيء فيما عدا الشيكولاتة. فى غمرة الاستعداد للرحيل لا تتورع "هاجر" أن تفاجئنى دائماً، فترسل لى مع صديق زار القاهرة والتقى بها رسالة. الرسالة داخل مظروف أبيض ومكتوب عليه من الخارج "عيشة جداً.. تصبحى على فل. صفوت"، صديقى النادل الذى يعمل بأحد مطاعم وسط المدينة. بداخل المظروف أجد رسالة "هاجر":

"يا غالية...

واحشانى ومفتقداك زى دايما وكأنك عمرك ما مشيت. وزى ما أكون عمرى ما ضربت لك مواعيدنا. وزى ما أكون كنت طول الوقت معاك... وده عمره ما حصل. والحاصل الوحيد إنت عارفاه.. إنى مشتاقة لك وإن زى ما إنت عارفة.. البلد سافرت. أنا بخير لأنى زى ما أنا.. ماحدش مضايقنى.. مابضايقش حد على قد ما أقدر وباتونس زى عادتى بإحساسى

مدونة رفايع

المستمر اللاواعى بالذنوب الوهمية والتوقعات الغلط والأصحاب المعاتبين وقفل التليفون. "كمال" عمل لى مكالمتين كلامهم شبه الكلام ومليانين فضيان.. بحبك قوى.. واحشانى قوى..

هاجر!"

كنت سأضع أنا علامة التعجب لو لم تضعها "هاجر"، تعيش دائما فى أطول وأكبر إحساس بالذنب، تنسج الذنوب بدقة وتضفى عليها ألوانا صريحة وتبدأ فى العيش عليها كدودة القز التى لا تكل ولا تتعب.

كنت قد قررت أن أمر على "كرازينا" فى طريقى لأطمئن عليها. الأسبوع الماضى قابلتها عبر طابور البطاطس وبدت متعبة. سألتها عما بها فقالت إنها انتقلت من منزلها، تقصد حجرتها، لأنها تشاجرت مع "نيكيتا". وعدتها أن أمر عليها فى اليوم التالى ومر الأسبوع دون أن أشعر. لابد أن أطمئن عليها وأن أخبرها أنى راحلة. وقفت فى طابور البطاطس الذى كان طويلاً لانتصاف النهار. قضيت الوقت أتصفح مجلة أدبية كنت قد اشتريتها من يومين ونسيتها فى حقيبتى. وعندما جاء دورى أخيراً رفعت رأسى من المجلة لأجد فتاة لا أعرفها. وكأنى تجمدت فى مكانى. وهى تسألنى "يا.. بتة شون" وأنا أحاول أن أبحث فى المكان بنظرى عن "كرازينا".. "يا... بتة شون" بصوت أعلى. لم أقل سوى "كرازينا؟" أجابتنى ببساطة وهى تنظر للزبون الواقف خلفى "كرازينا نيشت هير". وأين هى إذن؟ "إيش فايس

نيشت". ومن الذى يعرف؟ وظللت "متسمرة" فى مكانى وكأننى أحملها مسئولية غياب "كرازينا". كان الواقف خلفى شبه يدفعنى ليأخذ دوره بعد أن أدرك كل الطابور أننى هنا من أجل شىء يدعى "كرازينا" وليس من أجل البطاطس.

بالفعل لم أفهم ما حدث فى تلك اللحظة، كأننى فقدت عمرى أو فقدت عقلى. تجسد الفقد بغياب "كرازينا". شعرت به ينخر فى عقلى، فى رأسى ويصل إلى أبعد نقطة فى الداخل. خرجت من الطابور واستندت إلى المائدة التى كانت "كرازينا" قد أشارت إليها فى أول مرة رأيتها. ولعدة ثوان كنت كمن انتقل إلى مكان آخر وعدت على صوت يكلمنى ويهزنى. أن يلمسنى الألمان فهذا يعنى أننى كنت فى عداد الأموات. رفعت رأسى فوجدته الرجل الذى كان واقفاً خلفى. "آر يو أوكى؟" كرر سؤاله وأنا أبحث فى عقلى عما تعنيه هذه الكلمات. ثم ناولنى زجاجة عصير، ولم أجد إلا دموعى المنهمرة وهو يكرر سؤاله: "آر يو أوكى؟" ألا يرى أننى لست أوكى؟ كان الموقف يحتم أن أقدم إجابة فقلت من بين نهنهاتى: "لا". فسألنى: "هل كانت "كرازينا" هذه صديقتك؟" هززت رأسى بالإيجاب. فسألنى "ألم تتفقا على إنهاء العلاقة؟" فقلت "لا لم تخبرنى أنها....". ثم أدركت ما يقصده فزاد بكائى. غادرت وأنا أتمتم بكلمات لا معنى لها وهو مازال يصيح "بى ستروخ، لقد مررت بهذا الموقف من قبل". أغادر المحطة كالطفل الغاضب، ولا

يهمنى أن كل المارين كانوا ينظرون لى بالفضول الألمانى المعروف وبالذهول من هذا البكاء العلنى. لم يهمنى أى شىء، كنت أفكر فى شىء واحد. أين ذهبت "كازينا"؟

قررت أن أتوجه لمنزلها فوراً فى أقصى شرق برلين، وحتى لو كانت غادرته فسأستجوب "نيكيتا" وأعذبه حتى ينطق. لم أتوقف عن البكاء طوال الطريق، جلست بجانبى فى المترو امرأة ذات وجه مستدير أبيض وعينين شبه لوزيتين، تضع إيشارباً على رأسها من باب الاعتياد لأنه كان ينزلق فى كل لحظة ولكى تعيد وضعه كان لابد أن يصطدم كوعها بكتفى. من تلقاء نفسها بدأت تربت على كتفى ولم أمانع وهى تقول: "الله يسلم إن شاء الله". وتناولنى مناديل وليانا وبسكويتا وأشياء أخرى لا أعرف من أين كانت تخرجها: "ع شو عم تقطرى قلبك؟ والله الدنيا ما تستاهل. لما تركنا كل شى هونيك كنا مفكرين راح نموت، وشوف لهلا عايشين". ثم ينزلق الإيشارب وتقول: "فى المترو شوب كتير". أتوقف عن البكاء وأتمخط وتحين منى التفاتة لها فتقول: "حبيبتى لشو هالعيون الحلوة تبكى. إذا كان رجال ضربيه بالكندرة، وإذا كان شى تانى فكيه من راسك. بدك مصارى؟" كعادتنا نحن العرب لا ننطق إلا حين يذكر المال: "لا لأ مش مسألة فلوس". تهلل وتوجه كلامها لطفل بصحبتها: "شوف يا "نضال" حبيبى قلت لك عربية." ثم تنظر لى وتقول: "والله أنا فهمت لحالى إنك عربية، الدم يحن

ولو. ما حدا بيبكى غير نحنا العرب، طول العمر نبكى". أقبلها قبل أن أنزل فى محطة "كازينا"، وهى تصر: "والله لتيجى معانا لتتغدى، بتعرفى المقلوبة؟" أشد على يدها بقوة لأن أى كلمة أخرى كانت تعنى أننى سأبدأ البكاء من جديد. بعد أن غادرت عربة المترو استدرت لألوح لها بيدى وأدركت أن الجميع ينظر لنا بذهول تام. كنت فى أشد حالات الامتنان، وعندما أدركت هذا بدأت أبكى من جديد.

بشكل أوتوماتيكى صعدت سلالم المحطة وعبرت الشارع ووقفت أمام المنزل وضغطت على الجرس ليفتح الباب. أتانى صوت "نيكيتا": "من؟" فأجبت بنبرة بائسة "أنا "عيشة" صديقة "كازينا". تذكرنى؟" فأعاد السؤال باستنكار: "من؟" استحضرت "كازينا" وقلت بصوت واثق: "أنا آش". أجاب بنبرة اعتذارية: "آه أوف كورس...". بمجرد أن فتح الباب صعدت الأدوار الثلاثة فى لمح البصر، ومن بين نفسى المتقطع بفعل التدخين والسن والبؤس والبكاء والبرد والغضب قلت وأنا مازلت على عتبة الباب: "أين كازينا؟" من وسط ذهوله، قال "نيكيتا": "ادخلى أولاً".

"كازينا" رحلت، عادت إلى بولندا. قالت إنها سوف تتصل بك من هناك، ألم تتصل بعد؟ كانت متعبة دائماً من العمل فى كشك البطاطس ورفض صاحب المحل أن يعطيها إجازة أسبوعية. كانت دائماً متغيبة عن

المنزل. كنت أراها ليلا وهى منتهية تماما. أردت أن أحكى لها الكثير عن الجامعة وعن حياتى وعن كل شىء، لم يكن لديها طاقة، كانت تستغرق فى النوم فورا. حتى إنها كانت تهذى فى نومها من التعب. كان معى بقايا إنسانة. المفروض أنها شريكتى فى الحياة وليس فى السكن فقط. كانت حياتنا مراحيض وتنظيفا فتحولت إلى بطاطس حتى شعرت أننى أكبر حبة بطاطس فى الوجود كتلك التى كان "ماوتسى تونج" يتباهى بها. بعد ثلاث سنوات فى برلين أردت أن أتأكد من إنسانيتى فتورطت فى علاقة مع زميلة لى فى الجامعة من أوكرانيا. الحقيقة أننى لم أتعمد إقامة علاقة.. كنت أتفهم معنى أن تعمل "كرازيت" من أجلنا معا ولكن لى احتياجات ولدى آلامى أيضا.. أتفهمين؟ أنا إنسان ولست آلة.. لست حبة بطاطس.

- كنت تخون "كرازينا"، هذا ما تريد قوله من باب الاختصار لكى لا نفلسف الأمور كثيراً.

- "آشا" أنا لم أخن "كرازينا". بالعكس كنت أمينا معها. عندما شعرت بعلاقة تعترض مشاعرى معها أخبرتها على الفور. ورغم يقينى أنها علاقة عابرة إلا أننى قررت أن أخبرها. كل ما فى الأمر أنها لم تحتمل المبدأ. لماذا تعتبرون قول الحقيقة خيانة؟ هذا هو ما حدث، وأى شىء آخر كان معناه الكذب. هذا يحدث يا "آشا". هذا يحدث. لابد أن تفهموا.. نحن بشر.

لم أهتز إطلاقاً للحالة الانفعالية التى كان "نيكيتا" عليها. كنت أنانية للغاية، أفكر فى "كرازينا"، وأدفع بعيداً عن عقلى منطق "نيكيتا"، وكلما أدفعه كلما تقفز "سارة" إلى رأسى. أليس هذا ما فعلته "سارة" مع "كمال"؟ كانت أمينة معه، ببساطة. ولم يغفر لها أحد. حتى "كمال" لم يفهم ولم يستوعب. فتملكته أداة استفهام واحدة "ليه؟" لماذا سامحت "سارة" ولا أستطيع الآن أن أفتك بـ"نيكيتا"؟ ولماذا تعاطفت "سمر" مع "كمال" ولم تتعاطَ بـ"سارة"؟ هل كانت ترى الأرض التى تقف عليها؟ عيناى متورمتان من شدة البكاء وروحى شبه نائمة ونظرة الفزع فى وجه "نيكيتا" تذكرنى بفزع "سارة" عندما خانت القاهرة وأغلقت صدقها فى حركة عنترية. الصدق يكلف الكثير، والشعور بالسعادة ترف لا يقوى عليه إلا القلة.

ذاكرة خيبة

كم خيبة حتى الآن؟ لا يهم، العدد كثير، المهم ما تبقى. والشعور بالسعادة ترف لا تقوى عليه ميزانيتي. أحصى خيباتي كالبخيل العجوز. وما تبقى هو كل القاهرة، بقيت بكل جبروتها، القاهرة الهادرة الآسرة الساحرة القاهرة الماكرة الرائعة. القاهرة التي مازالت تقهرنا في حبها. البيت بأصحابه! القاهرة هي القاهرة حتى لو مسحت "مصطفى" من البريد، وحتى لو سحلنا العسكر فرداً فرداً. وحتى لو اختفت "سمر"، وحتى لو ظلت السحب السوداء والزرقاء تخنق سماء القاهرة. القاهرة هي القاهرة وعلى المتضرر اللجوء إلى مغادرتها بشرط ألا يذكرها إطلاقاً. القاهرة هي القاهرة حتى لو غاب عنها "مصطفى" إلى الأبد وحتى لو ظل "كمال" يسأل مدى الحياة: "ليه؟" ويلتقط صورا للإسكندرية وحتى لو غادرت "سميرة" وآمنت أن سفرها سيغير القاهرة، حتى لو طاف "شهاب" كل المظاهرات وحفظ كل روايات واسيني الأعرج وحتى لو أنا غادرتها تماما وحتى لو قرر "معز" أن يندفع ليقول رأيه فينا جميعاً، وحتى لو تكاتف الكل ضد "سارة"، وحتى لو كان هناك مليون "عالية" و"ليلى". حتى لو كان هناك مليار عسكر. حتى لو سرق المحمول مائة مرة، حتى لو عمموا السواد، ومنعوا الكلام، وحتى لو قتلنا الاحتياج وحتى لو تحولت الجدران إلى بديل نكتفي وحتى لو بكينا

فى بيوتنا وحتى لو لم تنجح فى تنظيفها وحتى لو توقفت "سارة" عن الحكى.... القاهرة هى القاهرة. ومن الذى استطاع أن يغير القاهرة؟ من الذى يمكنه أن يغير القاهرة أو يزحزحها شعرة واحدة عن طريقها! لا كل الألسنة فعلت ولا كل الأيدى تمكنت ولا كل القلوب استسلمت. و"مانيش غريبة يا بلدى ومانيش ضيف". السخف بعينه هو أن يتمكن "مصطفى" من حفظ هذا السطر. سطر يبدو كنشيد مدرسى صباحى سخيف. الحقيقة أننا فى معظم الوقت ضيوف على القاهرة. القاهرة هى القاهرة وأنا راحلة إلى القاهرة. سأسترد ذاكرة كل خيباتى فى القاهرة لأحتمى منها بها، يبدو أن "سارة" كانت على حق.

ذاكرة كبرت

راجعت ما كتبته فأدركت أنك كبرت بالفعل، مر عامان من الكتابة والحكى، سأخبرك ما كتبته أنا فى بداية الخيانة:

أعرف... تنتظرين مكالمتك وتتساءلين دوما عنه. ما الذى جعلك ابنتى، ما الذى حولنى إلى مناما. ربما يكون هذا أصعب سؤال، فقد حاربت نصف الدنيا من أجل هذا السؤال وربما يكون السؤال خاطئاً من أصله.

لا أعرف كيف تكون المناما. فارتجلت وارتبكت وتهت وحملت المسئولية والإحساس بالذنب، أما التوقعات فحدثى عنها كيفما شئت. ومما أنه لم ينتفخ بطنى مطلقا قررت أن أتبع قلبى (روايتك المفضلة). بذلت مجهودا لأحولك من صبى مراهق إلى آنسة على أعتاب العشرين، تكلمت كثيرا عن الكريم والكحل، ووضعت الحناء وزيت الزيتون على شعرك قسرا، أخبرتك قصصا كثيرة عن الوقوع فى الحب وخارجه، والأهم أننا شاهدنا معا القاهرة الآسرة الهادرة... كيف إذن أكتب عنك ياصغيرتى وأنت القاهرة التى أشتاق إليها، كيف أكتب عن جزء منى وهو عنى؟

وأنت سخية فى التعبير عن مشاعرك، وكلما زاد سخؤك يزداد غضبى. ربما لأننى عاجزة عن التعبير مثلك، وربما لأننى غاضبة من محاولاتك الدائمة لإثبات مشاعر توغلت أنا فيها بالفعل.

خرجنا معا إلى ذاك العالم، مشينا فى المظاهرات، وشاهدنا أفلاما، وتعرفنا على بشر، وحضرنا ندوات. جاء البعض وذهب البعض ومازلنا معا. ربما لأنك تحولت إلى أمى، وربما لأننى تقيضين فأحتمى فيك (أحيانا) من شراسة العالم، تعلمت واختزنت فأفضت من روحك. لذلك عندما تتحولين فجأة إلى طفلة أنهرك بشدة فتتراجعين فورا.. تركتنى وأنت تقولين "لن أكبر نفسى أكون...". وكبرت دفعة واحدة، فصرت أسمع دقة حذائك على الأرض وأرى لمعة شفتيك وأشتم رائحة دخان سجائر. لا أشعر أننى "ماما" إلا عندما تملكنى الرغبة فى أن تكونى الأجمل. وعندها أدرك أننى أطلب منك الكثير. فأنا لم أكن أنجح البنات ولا أجملهن ولا أكثرهن ذكاء ولباقة ومحاورة، بل كنت "عبيطة" كما يحلو لـ"عماد" القول.

أشتاق للقاهرة فتكونين أنت حاضرة، وأكلمك لأكلم القاهرة بأكملها. أنا كما "مصطفى" تماما احتجت كل هذه الأميال لأخبرك الحقيقة. عندما تبدأين فى السخرية منى لا أملك سوى أن أضحك حتى تدمع عينى، خاصة عندما أقرر أن أغنى مقاطع من أم كلثوم. تسمينى السلحفاة لبطء إيقاعى، لكننى

لا أرى سببا للعجلة، شىء ما يشدنى دائما إلى الخلف، فأجلس على السرير وأسألك "هيه، إيه الأخبار؟" وتكونين أنت على وشك الانفجار.

فى برلين الغربية أتوق إلى إحدى نكاتك، وفى برلين الشرقية أتوق إلى التسكع معك. هل كبرت فعلا؟ كيف تكبرين والألم مازال بعيدا... ليكن بعيدا دائما... لكننا لا نكبر إلا بالألم. فكيف لك أن تكبرى؟ هل استوعبت كل الآلام الأخرى؟ عيشى ولا تكونى سواك.

هل أبوح لك بسر؟ أمى تنتقدنى دائما فى ملبسى وصحوى ونومى وأكلى وشربى، أكره هذا الانتقاد الدائم ولكننى اكتشفت مؤخرا أننى أفعل نفس الشىء معك. أريدك أن تتوقفى عن قضم أظافرك وعن جمع شعرك فى ذيل حصان وعن ارتداء البنطلونات الجينز وعن تدخين الشيشة وعن الجلوس الدائم أمام شاشة الكمبيوتر. تنازعنى الرغبات أمام كل تلك الممكنات. لم يكن فى زمنى إنترنت ولا فضائيات ولا ماكدونالدز الذى أبطلت مفعول حبك له عبر التهكم، فأخبرتك عن الأمراض الناتجة عنه ثم قمت بابتزازك سياسيا وقلت لك إن ساندويتش ماكدونالدز يساوى طفلا فلسطينيا، ومازلت أشفق عليك من حبك لماكدونالدز فكافئنى به!

لم أر سوى محلا واحدا فى برلين يحمل علامة ماكدونالدز، كيف تتحقق أحلامنا دائما فى أماكن بعيدة؟ بعيدة عن كل الذين أردنا أن يشاركونا الحلم.

عندما أقرأ تلك الجملة الآن أضحك مما كتبته، فأنا لم أحصل مطلقا على شيئين فى نفس الوقت، وعندما أتأمل قليلا أدرك أننى لم أحصل على أى شىء أردته فعلا، ومازلت أنتظر... حتى لو كان الانتظار فى برلين الباردة.

بدأت خيانتى للقاهرة وأنت "صغيرتى". وفى عمرة ممارستى للخيانة لم تعودى صغيرة، ولست أيضا كبيرة. بدأت خيانتى وشعرك معقوف للخلف بالتزام شديد، وحذاؤك رياضى يلفت النظر بحجمه الضخم والبثور التى تغطى وجهك لا تقلقك فى شىء، وأظافرك لا تغادر فمك. بدأت الخيانة وأنت صامتة ومندهشة وناقمة عن التورط فى القاهرة. كنت متورطة فى العديد من الكتب ومن المسلمات، كانت دنياك مسلمات وبديهيات، كانت دنيا ألوانها قليلة ولكنها جميلة. كانت ألوانا تقبل كل الألوان الأخرى. كنت تبدين صغيرة للغاية فى سيارتك، فى وجهك، فى خطوتك، فى "آلو" التى كانت "آله..."، فى القمصان ذات الكرانيش والأكمام القصيرة، وفى وجهك المغسول بصابون ذى رائحة. لكن يبدو أن ألوانك كانت مستعدة للخيانة تماما، بل ربما كانت تتوق إليها، وعندما أوشكت أن أنهى خيانتى كانت خياناتك تفوق المتوقع.

قضيت سنوات فى القاهرة أحاول أن أتعلم كيف أقول: "لا" بهدوء وثقة، فوجدتك تنطقينها بمنتهى السهولة وكأنها أول حرف تعلمتيه. قضيت سنوات

مماثلة لأتعلم إخفاء الدهشة، والقاهرة تحمل لنا الدهشة فى كل خطوة، وحتى الآن لم أنجح تماما فى إتقان الإخفاء، وعندما أنجز هذا بصعوبة، أشعر بألم يفتك بعضلات وجهى. فقط عندها أسمعك تقولين: "إيه النظرة اللى فى عينيك دى؟ ماتعمليش كده بتصعبى على بجد". تبادل أدوار فى ثانية. أستعيد دورى مرة أخرى ببعض الضجيج والصراخ فى وجهك ولا أتورع عن إلقاء درس سخيف على مسامعك. ينتهى الأمر أن أبتاع لك كريما لوجهك وتبتاعين أنت لى حجر الجاد الأخضر "لازم تلبسيه يوم التلات، ده الحجر بتاع اليوم." كيف كانت ستمر أزمات القاهرة بدون كل هذا التبادل المتفق عليه للأدوار. كانت ستمر كما يمر كل شىء فيها، لكن الندوب كانت ستبقى محفورة. معا أزلنا كل الآثار. طورنا حيلا نتحايل بها على القاهرة، كنا نلف من وراء ظهرها ونضحك، ثم نبكى ثم نخرج ثم نضحك ثم ننسى القصة كلها ونلقى بأنفسنا فى أحزان الآخرين.

كيف كبرت؟ بحكاياتى التى كنت تنتظرينها؟ حكيت لك كل ما أملكه من حكايات، وجعلت المؤلم منها مضحكا، وأخفيت بعض التفاصيل الموجعة التى لم أرد أن أستعيدها، أكملت لك حكايات وأكملت لى العديد منها، حكايات بدأناها منذ أن كنت أحمل الطبق وأطاردك لتأكلى واستمرت حتى جلوسنا متقابلين كصديقتين حميمتين على طاولة فى وسط المدينة، نتحدث عن "شهاب" ونسرف فى قلقنا عليه. ثم ننقل حوارنا إلى "هاجر" وعزلتها،

ونسرف فى القنق عليها، ثم نتعجب من أحوال "عادة" وإصرارها الدائم على التكرار، ثم نذكر "مصطفى" ونتواطأ ألا نذكره، ثم نتساءل عن "سمر" وبهز رأسينا بأسف لغيابها، ثم نضحك حتى الثمالة من جنون القاهرة. ثم نجد أنفسنا متورطتين فى حبها حتى النخاع.

أم كبرت بغيابى الذى كنت تكرهينه وتتحفزين له وكأنه خصمك الأول؟ غياب تحايلت عليه بكل الطرق، رسائل ومكالمات وتطور الأمر إلى زيارات. مع بداية غيابى قررت أن تحتفظى بالقاهرة حتى أعود إليها، اختزنت كل تفاصيلها وحكاياتها وجنونها وعسكرها وحراميتها، ومع الوقت بدأت لا أميز بينك وبين القاهرة. من فيكما هى الأصل؟ أنت أم هى؟ تركت القاهرة فى عهدتك فكبرت، من أجلها أم من أجلى؟ كان لابد أن أفسح لك مكانا تكبرين فيه. كان لابد من الغياب، كان لابد أن أتزحزح قليلاً لأترك لك مساحة تمارسين فيها خيانتك. كان لابد أن يتخلخل الهواء قليلاً بسبب بكائك المستمر والمزعج، كان لابد أن تحرقك ملوحة الدموع، كان لابد أن تعتصرى الألم بمفردك وأن تحصدى عدداً قليلاً من الخيبات، كان لابد أن يحدث كل هذا لتكونى أهلاً للقاهرة. القاهرة لا تحب الصغار وتكره كل من يقول: "والله ما كنت أعرف".)

كبرت وعرفت بدون سابق إنذار. وانطلق شعرك من التزامه وقلت البثور وأحياناً تختفى وبدأت أظافرك تنمو. اختفى الحذاء الضخم وحل محله حذاء أنثوى فى الشتاء وشبشب فى الصيف، والأهم أنك امتلكت حقيبة ومحفظة. عندما يكون لدينا الكثير الذى لابد أن نضعه فى حقيبة فهذا يعنى أنه أصبح لدينا حكايات. وعندما نحكى حكاياتنا نحكى حياتنا. الآن لديك الكثير من الحكايات التى أطلبها منك وأقول "احكى". بل هناك حكايات تحدث دون أن أشارك فيها. حكايات لا أعرفها. وكلما كبر حجم الحقيبة كلما تزداد الحكايات. حقيبتك تكبر.

حكايات يحدث لك أثناءها كل ما حدث لى كل ما مررت به. حتى إننى أفزع. فجأة يبدأ شعرك فى التساقط، ثم فجأة يتوقف كما يحدث لى، ربما كما يحدث لكل البشر لكننى كنت كمن يشهد حكاية من أولها. حكايات يحدث فيها أن تفتقدى تشبثك المعهود بالتفاصيل وتنسين بعض الأسماء (ربما ستنسينها كلها فيما بعد) وتتجاهلين بعض السخافات (ربما ستتجاهلينها كلها فيما بعد) وتغيبين بعض الأشخاص من الأفق المباشر أمامك (ربما ستغيبين العديد فيما بعد) وتحكين الحكاية مرة واحدة (ربما لن تحكيها مطلقاً فيما بعد). هكذا يمكنك العيش فى القاهرة، هكذا يمكنك استيعاب جمالها وقسوتها ومكرها وجنونها وطيبتها ولئمها ودورانها. هكذا يمكنك فهم الفرق بين زمادى القاهرة وزمادى الأماكن الأخرى، بين العيش فى قلب القاهرة والفرجة من

بعد على القاهرة. هكذا ستفهمين صفاقة المتفرج، الذى يرفض أن يضع يديه فى نار القاهرة ويفضل جنة مقعد بعيد ينسج عليه بضعة أحكام ممزوجة ببضعة جمل من كتب أنيقة حققت أعلى مبيعات يصرح بها بنبرة هادئة وجفون غير مرتعشة ونظرات ثابتة نحو قطعة ديكور لونها غير متسق مع ألوان الحكاية، و... ألوانك..

أثناء خيانتى كنت تمارسين أنت خيانات لكل ما كان متوقعاً منك فى مقاهى تشبه المقاهى فى حى المهندسين والزمالك، مقاهى بها بشر يشبهون البشر ولا يخرجون عن نصوصهم السخيفة التى تعلن غير ما تبطن، والتى لا تسمح لهم أن يعبروا عن ألمهم أو جوعهم أو حتى كرههم، نصوص تمنعهم من إزالة كل المساحيق التى تثقل وجوههم والملابس التى تجعلهم مستنسخات لا نهائية. حياتهم نص يتحول إلى صور لامعة فى مجلات أقع عليها بالصدفة، مجلات صنعت خصيصاً لمثل هذه النصوص، لهم نصوصهم ولنا نصوصنا، لهم مجلاتهم ولنا مجلاتنا، لهم أماكنهم ولنا أماكننا، لهم قاهرتهم ولنا قاهرتنا. كان المتوقع أن تكون هذه الأماكن هى قاهرتك، فاخترت أنت قاهرة أخرى. اخترت قاهرة "شهاب"، اخترت منها أول طبعة، غير معدلة ولا المهجنة ولا المزينة ولا الملونة. قاهرة المعسل والكشرى والفلوت والمظاهرات والروايات والأشعار والفلس والمعارضة والخروج عن كل المألوف وتكسير كل القواعد وتعمد الضحك والمقاطعة فى وسط الكلام وعدم الالتزام بالمفروض وحكى

كل ما هو صادم والتطرف فى الصراحة وفى الأكل وفى النوم وفى السهر وفى البكاء وفى الحزن وفى الفرح. اخترت القاهرة التى لا تبذل مجهوداً لإرضاء الآخرين، القاهرة التى تبحث عن أفضل وضع لجلستها وعلينا أن نتكيف مع كل مقاعدها. القاهرة التى لا تبالى بنا كثيراً ولكنها تتسلى بكل قصصنا. اخترت قاهرة بدون إضافات كبطاطس "كرازينا". اخترت قاهرة تجعلك قاهرية حتى لو لم تكن مقدماتك توحى بهذه النتائج. اخترت قاهرة تؤمن أن الشعور بالسعادة ترف.

قاهرة صافية خالية من المواد الحافظة ولذلك لا أفهم حتى الآن لماذا نرى أن مقطوعة لـ"شتراوس" فى برلين أرقى من "يا رايحين الغورية هاتوا لحبيبى هدية" فى قلب القاهرة على أريكة متهالكة وأرضية بلاطها تفوح منه رائحة الفينيك. لماذا تعتقدين أننا نفعل هذا؟ لماذا نفضل الآخر دائماً ونعطيه مكاناً أعلى؟ أليهذا كنا نتعمد المشى فى شوارع برلين والضحك على أهلها الذين لا يعرفون كيف يمارسون ضحك القاهرة وسهرها؟ كنا نضحك ونتعجب منهم فى كل محل يغلق أبوابه قبل منتصف الليل، ومن كل شارع يخلو من مارته قبل العاشرة، ومن كل طبق سلاطة نطلبه فيأتى أكبر من توقعاتنا؟ ربما كان "شتراوس" هو السبب فى كل هذا الهدوء، وربما كانت الغورية هى السبب فى كل صخبنا. لم ننس أبداً القاهرات الأخرى، بعد لحظات كنا نتذكر تلك القاهرات التى لا ترحب بنا ولا تألفنا، وربما تنتظر منا محاولة، تلك

قاهرات العبوسة دائماً، المتجهمة، المنطرقة التى لا تعرفنا ولا تعرف أمثالنا، ربما تنتظر. تلك القاهرات التى نراها نضيع الوقت هباء ونعتقد أن أفضل شىء يمكن أن يحدث هو صورة فى جريدة ويد تصافح وزيراً ما حتى لو كان وزير البطيخ وكلمة رضا من المدير وتجاهل شديد للغفير. قاهرات تشبه السحب على الجوانز "اشترك معنا فى السحب السوبر فقد تفوز بخمسة وعشرين ألف جنيه أو رحلة رائعة لباريس مع الحبيب". وكلما نتذكر تلك القاهرات نتذكر "سارة" وحكى "سارة". فى لحظة تتحول القاهرات إلى "سارة". أتلعثم فى ذاكرة القاهرة، أهى ذاكرتك أم ذاكرة "سارة"؟ بالتأكيد هى ليست ذاكرة "شتراوس"، لم يعرف "شتراوس" القاهرة ولم تؤرقه فى شىء. وفيما تهمه القاهرة؟ القاهرة لا تهم إلا من عاش بها، فى قلبها، واكتوى بنارها ومكرها وسمع أم كلثومها ورقص على دقة طبلتها وسهر لياليها وأهين من عسكرها واستمتع بكذب أهلها وفهم لغة "مصطفى". القاهرة لا تهم إلا من فهم لغتها واكتشف أنه لم يفهمها حتى الآن، القاهرة لا تهم إلا من عرف أنها وديعة وهادئة وشرسة وماكرة تماماً كخطوة "سميرة" وهى تعبر شارع الجلاء لتصل مقر عملها، وكشقاوة "غادة" المفاجئة غير المبررة وقراراتها العشوائية فى الزواج وكتقلب "شهاب" فى الأحوال وكسيارة "كمال" التى تتوقف حين يجب أن تسير وكآراء "معز" التى ينطقها حين يجب أن يصمت وكـ"سمر" التى تختفى حين يجب أن تتواجد. لماذا يهتم إذن "شتراوس" بالقاهرة؟

أم أغوتك قاهرة "سارة" فكبرت فى غفلة من الزمن؟ قاهرة "سارة" التى لم نعرفها كما يتوقع من أناس عارفين أمثالنا، أناس يتكلمون عن الدولة الحديثة فى عهد "محمد على"، وعن إسهام "تارك الملائكة" فى الشعر الحر، وعن الفرق بين "ماركس" و"تروتسكى"، وعن الفرق بين "سيكا" و"نهاوند". نتكلم عن كل هذا ونكن عندما تتلبس "سارة" حالة الحكى نصمت جميعاً ونبدى قليلاً من الدهشة ونقول: "آه طبعاً فيه من ده كتير". أو كثير من الدهشة ونقول: "بتجيبى الحاجات دى منين يا سارة" وينفرد كمال بتعليقه "يخرب بيتك". عرفت أنك وقعت فى هوى "سارة" عندما تملكتك الغيرة منها حين تقمصتها حالة الحكى أول مرة أمامك.. تتذكرين تلك المرة؟ لم تكن تحكى عن صديق لم تره منذ عشر سنوات، ولم تكن تحكى عن امرأة تبكى فى حمام فندق. لم تكن "سارة" تحكى حدوتة حدثت لها فى إحدى شوارع القاهرة، ولا كانت تحكى عن "كمال" الذى يرفض أكل الحمام لأنه مأكل بورجوازى ولا كانت تحكى عن الرجل الذى قرر أن يصرح لها بحبه وهى تحاول تغيير إطار عجلة السيارة بعد منتصف الليل ولا كانت تحكى عن رحلتها للعراق وتبكى، لم تكن تحكى أى شىء من هذا. كانت "سارة" تحكى قصيدة! حتى أنا تملكتنى الدهشة يومها، كيف تمكنت "سارة" من حكى قصيدة؟ أغوتك القصيدة ذاك اليوم، ولم تفعلى سوى الصمت، حط عليك الصمت كما ينزل الثلج فى برلين فيلفها كلها بالصمت. كنت قد

نويت أن تكبرى بالفعل وأنا مازلت أتخبط فيما بين ضمير ورغبة، بين أم وأب وعمة وحياة مختلفة، بين قاهرتين؟

أم كبرت يوم أن أصبح "عماد" أباً، جاءه طفل يوم عيد ميلادك الحادى والعشرين. ولدتما معاً، فى يوم واحد. مصادفة! كبر "عماد" وأصبح أباً وكبرت أنت وأصبحت أنت. لابد أن تتلازما طوال العمر، لابد أن يذكرك وجوده بكبرك، كنت يوم مولده بالفعل قد تمكنت من قيادة سيارتك فى شوارع القاهرة الساهرة. كنت تنصحينه أن يبقى مع زوجته، كنت تطمئنين عليه بالتليفون، كنت تسألينه عن صحة الأم، كنت تسألين عن الطفل. كنت كبرت بالفعل.

أم كبرت يوم قررت أن تخرجى فى مظاهرة اقترحها عليك "شهاب"، كنت ملتزمة بالميعاد، جهزت نفسك وتظاهرت أنا بالنوم. لم أرد أن أشهد هذا الموقف. لم أعرف ما الذى يجب أن أفعله، هل أقول "مع السلامة" أم "خدى بالك من نفسك" أم "ماتتأخريش". كان الحل الأمثل أن أبقى عينى مغمضتين، وأتركك تتحسسين موقع ملابسك فى الحجرة، وأسمعك تقلبين الملعقة فى فنجان القهوة، ثم تعودين إلى الحجرة وتهزيننى برفق وتهمسين: "أنا نازلة علشان الميعاد". أطبقت عينى مرة أخرى وقررت ألا أفتحها إلا عند عودتك. ونمت، ونمت، وظللت أنام، ثم كان لابد أن أغادر السرير. تعرفين

كيف يبدو يوم الجمعة فى بيوتنا، هناك دائماً كرتفال صغير فى كل بيت. وعندما عدت ونظرت فى وجهك أدركت أن استقرار الخطوط المرتعشة ينبئ بالكبر القريب. عدت من المظاهرة بخطة واضحة، أول خطة فى حياتك، "لازم آكل وبعدين أستحمى وأنام".

أم كبرت يوم ركبت الطائرة بمفردك وأنت ترتعدين من أشياح، كنت ترتعدين من كل شىء... طائرة، مصعد، سلالم، بشر، جمل، أماكن، آكل، ملابس، وحتى الألوان. كان كل شىء يجعلك تقفزين من مكانك كالفأرة، وكان قفزك يسبب لى غضباً هائلاً. كنت تخافين من القاهرة ربما لم تكونى تعرفين ما هى القاهرة. عم إذن سنتحدث؟ الشرط الأول هو أن نعرف القاهرة و"شرع الهوى الإنصاف" كما يقول "بشير"، المغنى الأسمر. وأصعب الاختبارات هو إنصاف القاهرة. القاهرة مراوغة، كيف ننصفها؟ كيف نفهمها؟ كيف نحب مراوغا لئيما؟ ونجحت فى الاختبار!

أم كبرت حين كانت عائلتك على وشك التفتت وكان "مصطفى" الناصح الواعظ غائباً؟ كبرت حين ذرفت من الدمع ملء بحار وارتفع صوتك ثم اختنق ثم انفلت ثم صمت، وكنت أنا أجلس على السرير قبالتك أفكر فيما يجب أن أفعله. لم أتوصل لشىء سوى التماسك. كنت أراقبك وأنت تكبرين وتدركين أن العلاقات تنتهى كالعلاقة بين "سارة" و"كمال". كنت أراقبك

وأنت تتساءلين: "ليه؟" مثل "كمال" تماماً. كنت تسألين وتقدمين إجابات مقنعة ثم تملكك البكاء ويختنق صوتك. كنت أراقب الألم على وجهك وأدركت أن الكبر قد حل لا محالة. هكذا هو الكبر، لا يأتى بدون الألم. وبعد أن يكوينا الألم ويعذبنا نتحرر من كل مخاوفنا ونعشق القاهرة أكثر. تككت عائلتك ثم عدت فالتأمت ولم يكن هناك سوى "سميرة" تراقب، تشاهد، وتبكى، وتردد: "معلش كان لازم يحصل كده، هى لازم تكبر. كفاية فرجة على الحاجات من بعيد". هل فكرت فى "مصطفى" حينها، أنا على الأقل منحته حيزاً من فكرى، وتساءلت إن كان مازال نائماً.

ثم كبرت يوم أن أدركت ذلك الجمال الأخاذ الكامن بداخل عم "حسن"، زميل عم "محمد" السخيف فى المقهى. عم "حسن" عامل النظافة الذى يصنع النشيشة يوم إجازة عم "محمد". عم "حسن" البشوش الصامت الذى لا يكل من تنظيف المقهى وكأنه ينظف العالم كله. مغرم هو بتنظيف الأرض من كل بصمات القاهرة ومن كل كلامها رغم أن كلام القاهرة لابد وأن يترك علامات واضحة لا تزيلها كل المنظفات. عم "حسن" الذى يشبه وجهه وجه الفرد ويشى كل خط فيه بسحر غير طبيعى، عم "حسن" الذى افتعل مناسبة لأكلمه. إذا تمكنت من معرفة الفرق بين عم "حسن" وعم "محمد" فهنيئاً لك. كبرت. وهنيئاً لك حبك للقاهرة.

غالبا أنك كبرت عندما قابلت رجلاً كنت تعرفين ما سيقوله. تكبر عندما يقول لنا رجل: "بحبك"، عندما نذهب للمقابلة ونستعد لها ثم نفكر فيما يجب أن نقوله وما يجب أن نرتديه. كلامنا وملابسنا مؤشرات يتعامل بها معنا الرجال، مؤشرات تساعدهم على تصنيفنا وتنميطنا ووصمنا وتحديد النغمة التى سيلقون بها تحيتهم علينا. تكبر عندما نبدأ الحوار ونحن غير متأكدين من النهاية، بل حتى غير متوقعين الجملة التالية، وغالباً ما تكون كل الجمل مخيبة لتوقعاتنا التى نسجناها رغماً عنا، نسجناها لنراهن على شطارتنا التى تكشف عن أكبر خيبة فوراً. نكبر عندما يتلعثم هذا الرجل فنمد له يد العون ونوفر عليه مشقة كبيرة، عندما ندرك أن هذا الرجل الجالس أمامنا لا يتعامل إلا مع صورة لنا، يرانا عبر وسيط، يتحاور مع الوسيط، يتفاوض معه، يبرم الاتفاقات، بل حتى يصيح فى وجه الوسيط ويملى شروطه، وفى النهاية يكون جلوسنا على الطاولة ونحن نرتشف الكابوتشينو ليس إلا تكملة لمشهد مرسوم ومنته منذ زمن. كل ما نقوله أثناء رشف الكابوتشينو ليس سوى جمل لا معنى لها، جمل تتخبط ما بين الفنجان وبين الحروف التى تعطيها صوتاً. ندرك فجأة أن وجودنا لا يعنى أى شىء، كان لابد أن نتواجد ليجلس شخصان على الطاولة بدلا من شخص واحد بمفرده. وبمجرد أن ينتهى فنجان الكابوتشينو نبدأ فى نسج حلم يلازمنا حتى القبر، ولا ينتقل من خانة الحلم. نريد رجلاً نتكلم معه، رجلاً يربت علينا بهدوء ويقبلنا كما نحن بكل مخاوفنا الساذجة وشراستنا البليدة وقراءاتنا الكثيرة ونسياننا السليط وحالاتنا

المزاجية السخيفة، رجلا يرانا بدون وسائط، رجلاً يحبنا بدون إضافات كالطبعة الأولى من القاهرة، رجلاً صوته منخفض وحنانه مرتفع، رجلا ينتظرنا ويقضى عمره يبحث عنا.. ويكبر الحلم ويكبر ويكبر حتى يضغط على أنفاسنا ولا يتحقق يتلون الحلم ويتشكل ونقابل رجالاً يرون الدنيا كلها عبر وسيط. ثم ندرك أننا أصبحنا كالبطة السوداء التى قابلت الديك فاعتقدت أنه عائلتها فنقرها، ثم قابلت القطة واعتقدت أنها أمها فخربشتها، ثم قابلت المعزة وصدقت أنها أمها فتركتها تضيع، حتى قابلت طيور النورس التى انتشلتها من الغرق فأدركت أن عليها أن تبحث عن الأمان داخلها. كانت البطة السوداء جائعة للحب فقبلت المأكولات الخاطئة والأرواح الناشزة. ولا نتنازل عن الحلم، المشكلة أننا ننده‍ش عندما ندرك أننا كبرنا كثيراً... أكثر من اللازم، أكثر من شروط القاهرة. نكبر عندما نكتشف أن القاهرة كثيرة للغاية.. أكثر من عدد سيارات الميكروباص وأكثر من عدد المناطق التى يقلنا اليها الميكروباص.

أم كبرت عندما فهمت لماذا سافرت، فكتبت لى خطاباً أرسلته على جهاز الكمبيوتر، خطاباً رسمت فيه نفسك فى أحضان القاهرة، خطاباً صاغ كل الأسئلة التى ستبقى بدون إجابات محددة:

.. أمى تحب أن تعد أصابع يدى، وعندما تصل إلى الخامس يخونها نشاطها فتعود إلى الأول بحماس. هكذا رددت ترجمتى فى أذنك قبل أن

تستيقظى بلحظات لتلهثى وراء مدينتك المجنونة. هل تشبهينها، أم تلغينها، أم تكتبينها؟

... أمى تحب أن تعد أصابعى، هل هى ترجمتى أم ترجمتك هى عنك ومنك وتحبو بجوار ظلك لتعبر قبلك مسافات الأشواق. تسبقك إلى البلد الآخر لتزرع فيه بعضاً من سحر نجمك. تدفئه وتحاول أن تدفعه إلى الجنون حتى لا تشعرى بالحنين إلى مدينتك.. فهل نجحت؟

... أضع يدى على يدك فى محاولة منى لاحتواء الزمن - تعرفين أنت هوسى باللحظة والمكان - ورغم علمى بالإجابة، أسألك بمرح طفولى: "هل كبرت يدى؟" فتضحكين أحياناً وتنفين أحياناً أخرى. وعندما تتخلين عن إخفاء الطفلة بداخلك تضعين أنت يدك على يدى وتأخذين فى عد أصابعى... واحد.. اثنين.. فى الخامس يقنعك كسلك بأن اليد الأخرى بعيدة فتعودين إلى الأول لتتأكدى من عدم اختفائه. يسألنى عنك الأول دائماً، وعندما ترحلين إلى برلين يفقد الاتجاهات فى مدينتك ويقف عند حدود أماكن كثيرة فى انتظارك. وفى انتظارك يحتار كثيراً: هل هو الأول أم العاشر. تمضى عدة أيام وأسابيع يتذكر فيها تعاليمك فيعرف أنه الإصبع الذى يبدأ من عنده العد. يوقظنى فى الليل ويسألنى: "لماذا لم تتأكد أمك من وجودى منذ

بضعة أيام؟" أطمئنه وأدرك أنه مازال يحاول أن يحدد الاتجاهات فى مدينتك.

...مدينتك التى يصبح صخبها مزعجا فقط عند ذهابك، تصرخ وتنتفض شوارعها عند مرورى بها.. تطاردنى كى ألتفت إليها.. تسألنى عن ظلك الذى لم يعبرها بخفة منذ مدة... عن رائحتك التى لم تستنشقها منذ فترة.. عن صدى ضحكتك فى ممرات شوارعها.. عن رغبتك الخفية فى الرقص تحت هلالها.. عن كلامك الذى تقولينه لها وعنها. مدينتك هى الأخرى تردد معى فى الليل ترنيمة الحنين، وتغير من الإصبع الأول لأنه يشعر دائما بوجودك رغم أنه يفقد طوال الوقت الاتجاهات فى غيابك... مدينتك رغم ذكائها وحكمتها لا تستطيع الانتظار. مدينتك تشتاق إليك وعند حضورك تقدم لك كشف حسابها، الحسنات والسيئات.. تضع نفسها بين يدك لتحكمى عليها: موتى، جرحى، عبيد أسرتهم بحبها، طغاة، وبشر يحاولون الاحتفاظ بالحلم وسط نهاتها.. تسحبك فى دوامتها وتتوهين فتقنعينها بأنك ستحاولين أن تبحثى لها عن حكم يليق بها.. هل مازلت تبحثين؟

... تفكرين أنت دائما فى الحدود.. ولما سألت مدينتك عن معناها قالت لى إنها تعرف حدودها الجغرافية جيدا ولكن ألاعيبها - كما قلت لى - ليس لها حدود. تغير حدود ألاعيبها مثلما تريد. تمنع ثم تسمح.. تدفع بشرا إلى

الجنون وبشرا إلى الانتحار وبشرا يحتمون بظلها ورقتها وقسوتها. ولكن عندما رددت معى ترنيمة الحنين همست لها سرا بأن الحنين عابر للحدود.. لا يعرف المسافات.. لا يركب المواصلات التى تزعجها وتقتحم عزلتها.. الحنين له أجنحة شفافة لا تشبهه أجنحة الفراشات تجعله يصل إلى أى مكان بسرعة لا يفهمها. يراقبنا من بعيد، ينتظر بهدوء قادر هو على افتعاله.. يقترب منى مع اقتراب موعد مغادرتك.. يلقى على التحية من بعيد فى اليوم قبل الأخير لسفرك ويسيطر على بهدوء جميل قادر هو على إتقانه. هل يراقبنا الشجن من بعيد أيضا؟ يلقى الشجن التحية على حنينى.. يبتسم له ويؤكد بثقة أنه سيأتى فيما بعد. الحنين عكس مدينتك فهو يحب الانتظار، يتغذى عليه ولا يختفى. يقبع بداخلى وأقنع أنا نفسى بأنه يرحل عندما تأتين ولكنى أكتشف دائما أن الحنين لا يغادر أبدا مثل الشجن يترك بذرته فى الروح ويعود ليرويها كل فترة. أيتغذى الشجن أيضا على الانتظار يا أمى؟ أتقلل البرودة كثافة الشجن بداخلك وأنت هناك؟ أم تزيدها؟

... فى مدينتك أضع نفسى وسط الزحام. ألتحم بالأجساد المحيطة بى فى الجامعة عند دخول قاعة المحاضرات.. وفى اللحظة ذاتها التى أبدأ فيها التذمر من الزحام يأخذنى عقلى فى رحلة لمكان غير معلوم لأقل من ثانية، وأعود ليصبح الالتحام مشهدا من فيلم طويل، لست جزءا منه.. ولم أقل لك أبدا

يا أمى بأننى لا أستطيع أن أتعامل مع مدينتك إلا على أنها فيلم غير مفهوم، لم نشاهد بدايته.. ونهايته لا نستطيع التحكم بها. مدينتك فيلم.

... مدينة مهولة. تلهث وراءها كالمجاذيب. وعندما تمتلئ أرواحنا بغبارها نهرول إلى أوليائها: "أغيثونا منها.. حددوا لنا مفاتيح أبوابها. تعرفين أنت أن مدينتك لا تحتاج إلى أبواب لتحبسنا بداخلها. سعرها وحده قادر على فعل ذلك. وأبواب المدينة بداخلنا. لتتمردى عليها لابد أن تتمردى على نفسك فى البداية... فهل نجحت؟".

أم كبرت حين أصبح لديك عمل تتوجهين إليه صبحاً وتعودين منه منهكة ومرهقة، ثم تقولين: "عندى مشكلة كبيرة فى الشغل"، وتنظرين لنا جميعاً بتعجب وتقولين: "وطوا صوتكم شوية، أنا افتكرت إنها خنقة"، وبعدها ترفعين قدميك على وسادة فى محاولة للتخلص من الورم الظاهر فيهما، أم كبرت حين أصبح لديك قصة خاصة بك تعيشين أفراحها وآلامها، بكاءها وفرحها، هداياها ومكالماتها ورسائلها؟ قصة أسألك عنها فتقولين: "بس بقى بانكسف بجد"، قصة منعك الخجل أن تظهرى سعادتك الفائقة بها، ربما أخذت فى اعتبارك هزائمنا وعجزنا، ربما لا تعرفين أن الشعور بالسعادة ترف. كبرت، حين تحولت إلى مشاركة وهجرت خانة المتفرجة. تشبعت من قصصنا وآلامنا فقررت أن تصنعى قصتك بمفردك.

بحبك بحبك يا بنت اللذين

نسافر كالناس ولا نعود إلى أى شىء، نسافر لنبحث، وغالباً لا نعرف عما نبحث. ثم ندرك أننا نسافر إلى آخر المدينة لنبحث عن المكان الذى غادرناه. نغادر الأماكن ولا تغادرنا هى. نسافر لنتعرف على الوحدة فى أقسى أشكالها، وحدة بدون إضافات. نسافر لنكلم أنفسنا حتى نتأكد من صوتنا، نخاف أن ننسى صوتنا، ولا نجرؤ على طلب مساندة كى لا نبدو أغبياء، ونؤكد أننا بخير رغم غياب السؤال، نضحك ونبكى بضعة نكات، ناكل ونضحك ثم نعود لأربعة جدران تعرف كل أسرارنا، جدران مزاليت تحمل علامات رأسى التى خبطتها فيها مئات المرات. نعود لبيوت الترانزيت ونفكر فى كيفية ترتيب بيوت هناك. ننتظر وننتظر ونكبر أثناء الانتظار، سنكبر كثيراً لأننا ننتظر إلى الأبد ولا نجرؤ أن نطلق كل ما بداخلنا، نتكلم كثيراً ولا نقول شيئاً، فقط ننتظر ربما يقول لنا الآخر شيئاً يثير دهشتنا. ننتظر ولا يحدث شىء سوى حالة من الحياد المطلق المخيف التى ما أن أصابتنى حتى بدأت أقرص ذراعى لأخرج من هذه القشرة الجمادية القاتلة. تحسست ركبتى واسترجعت كل الأوجاع بقسوة وعندما سقطت منى دمعة فى شوارع برلينية باردة تجسد الوحدة والخوف والغربة ابتسمت. فقد كسرت حالة

الحياد، وانتهكت الحظر على الحواس. لا تعرف "سارة" الآن أنها نجحت، أشعر بالسعادة لأنني أدركت أن الشعور بالسعادة ترف.

لوقت طويل اكتفيت بحكي "سارة". لن أحكي إلا في قلب القاهرة، سأحكي حكياً متصلاً صافياً بدون إضافات، حكيا يشبه حكي "سارة" و"كارينا"، حكيا متخلصا من كل الزوائد رغم كل مخاطر الحكي. في قلب القاهرة بعسكرها وحراميتها وتلوثها وضجيجها وجنونها وصخبها وفقرها وفولها وطعميتها وخواجاتها وأصحابها وكذبها وهدوئها وانتظارها وإيقاعها وشكلها ورسمها..

نسافر نسافر لندخر تلاتاً من الشجن..

الحكي هناك فقط، الحكي في القلب ودائماً على الحدود. والعبور يبدأ من هناك. والأربعين تكتمل في القاهرة لتهدأ الروح في مكانها ولتحصل على تلاتة ورقات منك تكتبيها بخط طفولي لأستيقظ فأجدها على المكتب:

صباح الخير يا سلحفاة..

شكراً على إنك سبتيني بره لحد الساعة ١٢. أنا رجعت ١٢.١٥ بالضبط. على فكرة أنا أخذت المرتب قبل لما أنزل من المكتب على طول. الاحتفال بتاع أول مرتب هيكون إنك تمضي على الظرف وإن أنا وإنت

نتغدى مع بعض. ولو ده مش هينفع ممكن نعمل الغداء عشاء. على حسب ظروفك.

أول مرتب ده السبب الحقيقي فيه هو إنت. علشان إنت شجعتيني إني أشتغل وأجري ورا حلمي وعلشان بتستحملني لما باكون راجعة من الشغل تعبانة. وعلشان حاجات كتيرة تملا أكتر من كراسة.

عارفة يا ماما... بجد والله من غير تنظير أو دراما ٩٩% من الحاجات اللي باعملها دلوقت السبب فيها هي إنت. الـ١% ده سببه علشان الحاجات الغلط اللي إنت هتقولي إن مانكيش دعوة بيها. خفة روحك وأفكارك اللي مالهاش حدود وحاجات تانية كتير علموني أكتر من ما إنت ممكن تتصوري، إنت أحلى وأروش سلحفاة.

* * * * * * * * * * *

روضة

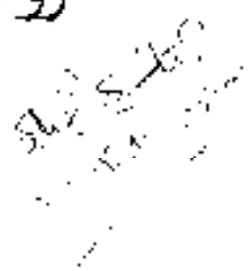

مدونـــــــة رفايـــــع

مدونـــــــــة رفايـــــــع

هذا الكتاب

نسافر كالناس ولا نعود إلى أى شىء. نسافر لنبحث، وغالبا لانعرف عما نبحث. ثم ندرك أننا نسافر إلى آخر الدنيا لنبحث عن المكان الذى غادرناه. نغادر الأماكن ولا تغادرنا هى. نسافر لنتعرف على الوحدة فى أقسى أشكالها، وحدة بدون إضافات. نسافر لنكلم أنفسنا حتى نتأكد من صوتنا، نخاف أن ننسى صوتنا، ولا نجرؤ على طلب مساندة كى لا نبدو أغبياء. ونؤكد أننا بخير رغم غياب السؤال. نضحك ونلقى بضع نكات، نأكل ونضحك ثم نعود لأربعة جدران تعرف كل أسرارنا، جدران مازالت تحمل علامات رأسى التى خبطتها فيها مئات المرات. نعود لبيوت الترانزيت ونفكر فى كيفية ترتيب بيوتنا هناك. ننتظر وننتظر ونكبر أثناء الانتظار. سنكبر كثيرا لأننا ننتظر إلى الأبد ولا نجرؤ أن نطلق كل ما بداخلنا. نتكلم كثيرا ولا نقول شيئا، فقط ننتظر ربما يقول لنا الآخر شيئا يثير دهشتنا.

خيانة القاهرة